

# التراث العربي



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد : ٥٧ - جمادى الأولى ١٤١٥ تشرين الأول «أكتوبر» ١٩٩٤ السنة ١٥

ذر

# التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد : ٥٧ - جمادى الأولى ١٤١٥ هـ تشرين الأول ، أكتوبر ، ١٩٩٤ م السنة الخامسة عشرة

المدير المسؤول د. علي عقله عرسان  
رئيس التحرير د. عبدالكريم اليافي

أمين التحرير  
عبداللطيف أرناووط  
هيئة التحرير  
د. ابراهيم الكيلاني د. أدhem السمان  
د. عدنان البني د. محمد زهير البابا  
د. عدنان درويش

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٢٣٠ - ٢١٢٤٢٩٩ - ٢١٢٤٢٩٩

# مكتبة لبنان العربي

تبوء :

- ١ - المواد الواردة الى المجلة لا تعاد الى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .
- ٢ - يتضمن ترتيب المواد لاعتبارات فنية وطبعية .
- ٣ - يُرجى من كتاب المجلة ما يلي :
  - أ - كتابة دراساتهم بخط واضح ومفرومة ، أو طباعتها على الآلة الكاتبة .
  - ب - كتابة تعريف وجيز يكتب الدراسة ، يتضمن أبرز نشاطاته الأدبية والعلمية والمهنية .
  - ج - ارسال عنوان الباحث مع البحث أو الدراسة .

## الاشتراك السنوي

داخل القطرين للأفراد	: ١٥٠ ل.س.
في الأقطار العربية	: ٣٠٠ ل.س أو ( ١٥ ) دولار أمريكي
خارج الوطن العربي	: ٤٥٠ ل.س أو ( ٢٠ ) دولار أمريكي
الدواتير الرسمية داخل القطرين	: ٣٠٠ ل.س.
الدواتير الرسمية في الوطن العربي	: ٥٠٠ ل.س أو ( ٢٥ ) دولار أمريكي
الدواتير الرسمية خارج الوطن العربي	: ٦٥٠ ل.س أو ( ٤٠ ) دولار أمريكي
أعضاء اتحاد الكتاب	: ٧٥ ل.س

■ الاشتراك يرسل حواله بريدية او شيئاً او يدفع نقداً الى : ( محاسب مجلة التراث العربي ) ■

الاخراج الفني : أكرم أفسدار

## **المحتوى**

**ص**

- هل التراث!... د. علي عقلة عرسان ٥
- ابن طفيل ورسالته الفلسفية « حي بن يقطان » د. عبدالكريم الياني ١٢
- المضور الصوفي في الجزاير على المهد العثماني د. ختار جبار ٥١
- رسائل عمر بن الخطاب في تدبیر الجیش د. احسان هندي ٦٧
- جلال الدين السيوطي « اضاءات تحليلية في سيرته » د. عبدالاله نبهان ٨٠
- فضل أطباء العرب على أوروبا في القرون الوسطى د. عبداللطيف ياسين ١٠٠
- شعراء عمانيون و .. جولة في واحة الشعر العماني مسلوح فاخوري ١٢١
- الثقافة والتراث ... في مهرجان الجنادرية التاسع عبد اللطيف الارناووط ١٤٨



أ. علاء الدين شويفي

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

# هل التراث..؟!

د. عاصي عربان

التراث مجرد نفق مظلم يمتد بين باصرة التاريخ المعاصرة وذاكرته القاصرة ،  
يدخله الباحث فيه أو العاشق له ، فيضيع في متاهاته ويزيد من تعقيد تلك  
المتاهات ، حتى ليغالي المرء إلا خروج منه بعد دخول فيه ، وأنه ثانية  
المعبسين للمبصر وثالث المعابس لمن فقد البصر ، والإلقاء مع الصدر بعدولوج أبوابه  
التي تفتح سجن الماضي ؟! وهل هو نوع من إعادة انتاج الماضي وإجتراره ، دون تداخل  
أو تفاعل يذكر مع الأداة المصرية المنتجة والمادة التي تدخل دائرة الانتاج ؟!  
وهل هو مما يستقر في مدى بعيد عن العاضر ، قد تجاوزته حاجة الناس ، ولم  
يعد نافعا ولا ضروريا ، ولا مما يصرف فيه الجهد ويستثمر فيه الزمن ؟!

وبالنسبة لنا نحن العرب ، في هذا القرن العشرين الذي يلفظ أنفاسه ،  
هل التراث مجرد أوراق صفراء حكمتنا وتحكمت بنا ، وألقتنا خارج العصر وكل  
عصر ، فكانت لنا قيداً وقوقة ومنفي أكثر منها جذراً حيا ، ومستبئتاً غنياً ،  
ومثابة قوية ، ومستجماً للعقل والذاكرة والروح ؟!

وهل يكون خلاصنا مما نحن فيه من تخلف وخلف ، بنبذ تلك الأوراق  
الصفراء التي هي - حسب رأي أهل «معرفة ورأي» - مصدر كل تخلف وخلف ؟!  
وهل لا يقدّم لنا تراثنا ، لدى عودتنا إليه ، إلا :

١ - مداريس «لسفلية متعرجة» ضارة ، ضاربة في عمق الصحراء والماضي الرمادي ،  
وفي مدى العجل بكل مفاتيح التقليد والثقافة والافتتاح ، والتجاهل لها ؟؟؟!

٢ - ومناهل للأصولية التي تتبعن في أصول « ما عادت هي الأصول المقبولة والمنقدة » ، في زمن تعصف فيه بالناس رياح المتغيرات وعواصف عصر التقانة والمعلوماتية ، وغيره من الأحوال وتلوّناتها بالوان اللعنة ، تلك التي تشهد في كل ثانية من ثوانيها تقدما علميا ، يرافقه أو ينتجه عنه تغيير أو دفع باتجاه التغيير ، حتى فيما تبت من أصول وفروع نبتت على تلك الأصول، فضلاً عن كون تلك الأصول - من وجهة نظر «أهل رأي وتقر» - تنجع «ارهابا» غير مقبول ، في عصر أصبحت فيه حماية الناس من الإرهاب ومن العلوان على العنصرية «والديمغرافية» «مسؤولية دولية؟!!

٣ - عودة بالناس الى ما وراء الزمن ، وإدارة الظهر لكل ما في واقعهم وزمانهم من معطيات وحقائق ومعلومات . وجعلهم يعيشون في دوامة مقولات لا تدفع باتجاه التلاقي مع الواقع جديد يفرض نفسه على العالم ، الواقع لا يستطيع أن يتجاهله من يريد أن يعيش زمانه ، وأن يعتل موقعا في ذلك الزمان .

٤ - هربا من مواجهة الواقع وأسئلته وازماته ومشكلات أناسيه ، ونوعا من الردود على معطيات : المكان والزمان ، هنا والآن ، باقوال ووقائع ومعاجلات وافتراضات واستنباطات وقياسات وفصل خطاب من : كنا وكأن ، لا ينير ظلمة ، ولا يرفع غمة ، ولا ينقذ أمة ، وهو في « نهاية المطاف » لا يدفع عنا عندها ، ولا يستنقذنا من جوع ، فما الذي يفيينا اليه رجوع اذن؟!!

تلك أسئلة محملة على نموش السنة وعقول ، تجول في فضاء الوقت والاعلام ، وتنزل شرائق من كلام ، تدفعها أفواه مدججة بالاتهام ، في وجوه من يأخذون من تراث أمتهم بقبس ، ويهتمون بالتواصل معه وبتصاعد تأثيره ليبقى عرق النسخ موصولاً و مليئاً بمقومات الحياة ، وسائلها وغنية ، تروج فيه وتجبيء قوافل «الجينات» عملية بقيم ومقومات هوية تصل ما بين حبيبات الجنور المنتشرة في عمق تربة الثقافة ، وبين براعم تتشكل في نهايات الأغصان الدقيقة من شجرة الأمة ، إبان تشكلها وتفتحها ، في آخر دقيقة من فجر كل يوم نعياه مع تدفق الحياة من حولنا ، وتدفقتها في دمنا .

و تلك الأسئلة التي تلجم بها السنة تقطر ذلقاً أسود ، لا ينفع معها تجاهل لها ولا إغضاء عنها ، لأن أصحابها يظنون عندئذ أنهم حبسوا الآخرين في سجون منطقهم ، وأن حجتهم أنت على كل العجج ، تلقفها لقفا ، فعل عصا موسى إذ أقيمت ، بسحر سحرة فرعون (؟!) وما ذلك بصحيح من جهة ، ولا هو جائز من جهة أخرى ، ولا هو مما يمكن أن تشق له المطرق ليستقر في النفوس وينمو في شعابها بأمان واطمئنان .

فالتراث ليس نفقاً مظلماً يضيع فيه الهداة ، بل هو – من بعض الوجوه –  
النور الذي تجده في نهاية نفق مظلم يضرك فيه الجهل أو العداة .

ولا يكون التراث متأهلاً إلا من يفرق في شبر ماء ويصل عن رؤية الحق  
والسماء ، ويبعث عن سفاسف الأمور التي يغض بها كل عصر من المصور ،  
ولا يكون من الهداة من لا يملك بصراً أو بصيرة ، ولا يعرف الفرق بين شخصيته  
والحصيرة ، إنما يكون ذلك من صنف الأدعية ، ويكون « هديه » نوعاً من  
التوكُّ على عصا من توهُّم تنفرس في مهاوي المضلال والضباب .

والتراث العربي ، سواء طال عمره أو امتد إلى عهد سومر وأكاد ، والعموريين  
والأراميين وصولاً إلى العرب الجاهليين ، أو انطلق – عند بعض ذوي الرأي  
والرؤى – من رسالة الإسلام وما أقرته من عادات الجahلية وتناولته من آداب أهلها ،  
وما سجلته الأقلام والمعقول بعد ذلك من آراء واجتهادات وابداع وابتداع ، فهو  
جزء من شخصية الأمة ، والعمود الفقري لجسمها الثقافي ، وهو المرئه التي يلتقي  
في حوصلاتها قديم بجديد ، وتحدث فيها التنقية من خلال تفاعل حيوي يغدو  
الحياة ويؤدي إلى استمرارها .

وسواء كتب على حجر أو رق ، ووصل إلينا مصراً أو مخضراً فهو جزء  
من تكويننا الذي لا يعيينا بل يشرفنا ، ولا يعوقنا عن التقدم إلا بمقدار ما تكون  
موقعين أصلاً وغير قادرين على امتلاك الرؤى والمنطق والقدرة العقلية التي  
تغزل الآراء والأفكار والأقوال ، وتفصل القمح عن الرؤان بدراية واقتدار ،  
وتأخذ ما ينفع الناس لتبذره من جديد في نفوس خصبة ، وتلقي الغلظ بعيداً عن  
دروبهم ، وتشق لهم تلك الدروب .

وما عطاء الإسلام في ذلك التراث إلا مشكاة النور التي تهدي وتعصم ، وما  
هو من شخصية العرب وانتسابهم القومي إلا المصيم من الصميم ، وما اغناوه  
واشفاوه وارواوه للقلب والمقل والروح ، بتوازن فريد مديد بين المادة والروح ،  
إلا من معجزاته ومميزاته التي صمدت لكل امتحان في كل زمان ومكان ، وسقطت  
عند قدميه الادعاءات والنظريات التي تشرخت حتى انفجرت في هذا الزمان .

التراث العربي خيوط منوعي وعريقة وتجربة وابداع وانتماه وخصوصيات بشرية وعقلية واجتماعية وتاريخية من كل لون ، تداخلت مع الآخرين وتفاعلوا معهم وتمايزت عنهم في كل مجالات العمل والأمل والفكر والحياة ، وهي تلك التي تجذل حال التواصل عبر الزمن بين العرب منذ أن تمايزوا عن غيرهم وتکاثروا في أرضهم وأمتلکوا قوامهم ومقومات حضورهم ، إلى يومهم هذا ، بكل ما لهم وما عليهم ، وهم لا يستطيعون خروجاً من جلد هم ولا يريدون ، كما أنه لا يعيهم ذلك الجلد ، وعليهم أن يزيلوا كل طفح عليه ، وكل ما علق به من درن لا يليق بهم وبمستقبلهم بين الأحياء .

وبمقدار ما نفتح اليوم على العلم في تطوره ومناهجه وانجازاته وتحدياته الدقيقة ، وعلى المعلوماتية المتطرفة بوسائلها وأمكاناتها وآفاق تقدمها ، وعلى التقانة بقدراتها وضروراتها وتطبيقاتها واحتياجاتها وما تيسر له من صعب ، ونستفيد من ذلك ونتواصل معه باحترامه واقتدار عليه وذراعية به » بمقدار ما نقدم لأمتنا ولتراثنا ، المتوحدين في كيان عضوي متكملاً ، مقومات التقدم والانتصار في معركة البقاء الحديثة ، فالعلم والعمل والإيمان تبني أسس الحضارات والأمم والشخصيات القادرة على البقاء والتأثير والريادة .

ولا تقع على التراث مسؤولية الذين يعيشون على الاجتسار ، ولا يعرفون طرق الابداع والتواصل الخلاق مع معطيات الماضي والحاضر ، ولا تتركز فيه جائحة مادة تحول كل من يتعامل معها إلى مجتر غير قادر على الابداع والرؤى الجديدة التجددية .

ومردود على القائلين قولهم إن المجتهدين الأوائل منذ عصر التدوين قيدوا الفكر وقيدوا الاجتهداد ، ولو كانوا كل مجتهد في جحائيل سجن النص . فاغلاق باب الاجتهداد ليس فرضاً ولا سنة ولم يجيء بنص ذي قدسيّة من أي نوع ، وإنما هو فعل بشر « مجتهدين » لدنياهم ، في أمور شرعية أو سياسية تحمي مصالحهم ، أو هو أمر سلطة من سلطنة العرب والمسلمين رأت أن تفلق ياباً تأتيها منه الربيع لتربيح و تستريح ، بعد أن شعرت ببعض الضنك والأذى والتعب في عصر من العصور ، ربما كانت فيه مصلحة أناسي ذلك العصر أو ذلك القطر بحاجة إلى شيء من ذلك لبعض الوقت .

وعلى ذلك فان التراث ، والنصوص الاسلامية من التراث، والنصوص المقدسة من النصوص الاسلامية لم تأمر ولا تأمر باغلاق أبواب التفكير والتدين وإعماق العقل في كل الأمور ، لأن ذلك يخالف جوهر الأمر الالهي الذي تضمنه نص القرآن الكريم في أكثر من موقع والذي حث على التفكير والعلم والتدبر والتأمل والتبصر .. الخ . وقال : « يامعشر العبّن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » والسلطان هنا علم وبرهان ومنطق وحجة ووسيلة مقبولة قادرة على تجاوز كل العجب والمعوقات لفتح باب الارتياد والخلق والوصول الى ما ليس قائما في حقل الرؤية البشرية ««المصرية»» ولا هو معروف أو متجاوز .

فالتراث من هذا المنظور يبعث على المباوازة بأصول ، وعلى الأخذ بكل المناهج والسبل والأدوات والوسائل التي يمكن من تحقيق تقدم وانعتاق وتجديده ، في إطار استثمار المهد والمادة والزمن لصالح الانسان والحياة .

والتراث العربي – الاسلامي يرتكز على أصول هي من أركانه أو في الصميم من تلك الأركان ، وجوهر ما عليه « احتجاج » من أهل « معرفة ورأي » ينصب على أصول اسلامية تعني « أصولية » تقود الى « الارهاب » الذي يزعج سلطنة عربية وحكومات غريبة ، ويؤدي الى ممارسات غير مقبولة ولا منسجمة مع تعاليم الاسلام السمح ، ولا مع قيم التراث ومقومات الشخصية العربية التي نسبتها عبر العصور عادات وأعراف واعتقادات وتقالييد راسخة في جذرها الانساني والأخلاقي .

وفي هذا المجال أحب أن نفرق تفريقا جنريا دقيقا وعميقا وحاسمـا ، بين جوهر الاسلام و فعل المسلمين ، فليس كل فعل يقوم به مسلم هو بالضرورة من جوهر الاسلام وفي صلبه ، وليس كل ما يعرض عليه الغربيون والساسة المصريون والمفكرون الماديون من فعل يقوم به متفرد على المركبة الثقافية الغربية وأهدافها ، أو على السياسة الرسمية ومحرماتها ، أو على الالحاد ودعاته ، والمادية وبناتها وهداتها وأتباعها ، أو كل مؤمن بما يرون الغرور عليه من ايمان ، أو كل مخالف لمجموعة من المفكرين أو المثقفين أو المنقرين أو المسيسين ، هو بالضرورة على خطأ ويجب أن ين accus للاوامر الصادرة عن مراكز ذات

عصمة وقداسة من نوع آخر . فذاك هو فعل «الارهاب» والمصادرة والقتل في الظلام ، وهو فعل مرفوض . وليس كل فعل يقوم به مسلم هو بالضرورة «ارهاب» اذ لا بد من معايير ومرجعيات تحكم الأفعال والأقوال والمارسات حتى لا نقع دائماً في أحابيل موازين الأقوى ومعاييره وازدواجية مكايبله وخيمة مصالحه .

وليست العودة الى الأصول ، في كل عقيدة أو مذهب أو نظرية فكرية أو فلسفية هي عودة محکوم عليها ، الا اذا ثبت على مر الزمن وبمعايير متعارف عليها ان تلك الديانة أو المقيدة أو المنظرية أو الفلسفة هي في جوهرها هدامة وغير انسانية ولا تورث الا الفتنة ولا تقدم الا المجرمين والخارجين على الشرائع والتشريعات والقوانين والأنظمة والأعراف .

ولم ينفي ذلك في هذا المصر للأسف حتى بالنسبة لنظريات ثبت أنها هدامة وغير انسانية ومدانة من قبل المجتمع الدولي مثل المنصرية والصهيونية على الأقل . بل على العكس من ذلك ، ارتفعت أسمهم المنصرية الصهيونية وأصبحت تتهم الآخرين وتفضّل لهم الوجوه والأشواب والتهم والمواصفات والتسميات . وليست الأصول الاسلامية مما يعيّب أو يؤدي الى الانحراف ، او مما يقود الى ممارسات اجرامية ، حتى يتم ربط كل عودة لأصول الاسلام بالارهاب ، وتصبح الأصولية تهمة يحاسب عليها العرف والقانون « والفكر الحر » (؟!) ، وعليه فنان ممارسة « تيارات الاسلام السياسي » ليست هي بالضرورة ممارسة للأصولية الاسلامية او عودة لأصول المقيدة وترجمة عملية شرعية لها بكل الدقة والأمانة والوضوح والحكم النهائي ، وليست كلها بالضرورة « ارهاباً » او خروجاً على القانون !! فمقاومة اسرائيل العنصرية المعنة لأرض العرب والمسلمين ليست ارهاباً بل مقاومة مشروعية وجهاً يغض عليه .

وبالتالي فان هذا الجزء من التراث الاسلامي وهذا الكيان النهائي من التراث العربي الاسلامي لا ينبغي أن يؤخذ بجريدة فعل فاعلين بمجرد استنادهم الى انتماء سياسي يدعي بدوره أنه يستند الى الاسلام . ولا يجوز أن ينسحب ما يطلق عليهم من حكم ذي طبيعة سياسية على جوهر الشخصية العربية الاسلامية ، وعلى التراث العربي الاسلامي ، وعلى جوهر العقيدة الاسلامية .

أما «السلفية المتجردة» التي يقول فريق من – أهل معرفة ورأي – بأنها من نتائج تعلق بالتراث ، وبالتراث الإسلامي تحديداً ، فهي قضية تحتاج إلى تمعيض تكون فيه استفاضة ، وسأكتفي بمجرد طرح بعض الأسئلة على عتبة ذلك .

– هل «السلف» المنقول إليه باحترام وتقدير في كل أمة من الأمم هو بالضرورة قدوة غير صالحة تعيق تقدم الناس وتمنع رياح العصر والحضارة من الهبوب ؟ !؟

– وهل الشعوب التي تقدم رجالاً قدوة يوصفهم منائر ونماذج يقتدي بفعلها وسلوكها وقيمها النشرة هي على ضلال في ذلك تربوياً وعلمياً وعملياً ؟ !؟

– وهل كل سلف متجاوز من قبل الخلف حتى تصبح العودة إليه قيداً ، ويصبح علم تجاوزه عملياً قيداً من القيود أيضاً ؟ !؟

– وهل نتساوى نحن العرب والمسلمين مع غيرنا في هذه «النظرة – القاعدة» أم أنها مفصلة لنا ومحكم بها على سلفنا فقط ؟ !؟

– وهل كل صالح من فعل أو قيمة أو شخص أو فكرة أو قول أو سلوك هو بالضرورة قيد وسبب تخلف وصفة تعجر ؟ ! أم أن ذلك محصور – يوصفه تهمة – بالعرب المسلمين ، وموجه إليهم من قبل أعدائهم والمتخالفين من أبنائهم مع أولئك الأعداء ، أو الواقعين تحت تأثيرهم ، والسامدين في ظلال تبعية ثقافتهم ، عرفوا ذلك أو لم يعرفوا ؟ !؟

ان هذا الأمر يحتاج كما قلت إلى شيء من التمعيض باستفاضة ، وليس هذا هو مجاله الآن ، ولا بد لذلك من عودة بعون الله .

دمشق في ٢٦/٨/١٩٩٤



# ابن طفيل

## ورسالته الفلسفية «حي بن يقظان» والمكتب الطوباوي

د. عبد الكريم اليافي

أتبع للمرء أن يزور إسبانيا ويطوف في ربوع الأندلس يسترعى انتباهه أشياء كثيرة . منها هذا التشابه الكبير بين سكانها على الصفة الغربية من البحر المتوسط وسكان بلادنا على صفة الشرقية في الشكل والطابع وفي هذه البشاشة العذبة المترفرقة على الوجوه والنظرات المتفهمة الحلوة في العيون والإبتسامة الملتمعة على الشفاه . هذا عدا التشابه في جودة الأقليم وجمال الطبيعة واشتباك الروابي والجبال والسهول المكسوة بالكرم وأشجار الزيتون والبرتقال والرمان والبيوت التي تتنصب فيها عرائش الياسمين والفل والنسرین حتى يكاد العربي الشامي يحسب نفسه بين أهله وذويه لو لا اختلاف اللسان .

ولكنه حين يوم بعض الآثار العربية الباقيه الأبدية ينسى هنالك العاضر كله ويعيش مدة في جو من الأحلام العلقة الماضية . بل ينسى الزمان قاطبة أمام روعة الفن الغليم في جامع قربطة ولا سيما الزخرفة العجيبة في معрабه ، وتنقاء الهندسة البارعة في منارة الشبلية ، وازاء الصنعة البدوية الفائقة في قصور العمراء بغرناطة . تلك الآثار الفنية الرائعة كافحت العروب والفنون وصروف الزمان في الأحقيات المتطاولة وما زالت تتنصب لساناً ناطقاً بعلمة العضارة البدوية التي تعالت أركانها وتالتقى أنوارها في الأندلس .

بيد أن العربي وهو يتأمل مجالـي الفن هنالك لا يلبـث أن يتجاوز تلك الآثار الشـخصـة فـيتـذكر الآثارـ الـفكـرـيةـ والأـدـيـبـيـةـ الكـثـيرـةـ التيـ هيـ منـ ثـمـراتـ تلكـ المـضـارـةـ وـالـتيـ لاـ تـقـلـ روـعـةـ وـعـظـمـةـ وـعـلـوـاـ وـابـداعـاـ عنـ شـأـوـ فـنـ العـمـارـةـ وـالـزـخـرـفـةـ .

يطوف العربي حول تلك الأركان وتطوف في سماء فكره ألوف من أسماء الفلاسفة والمفكرين والعلماء والشعراء والأدباء والفنانين والزجالين والمبرزين في كل ميدان . هؤلاء الذين كانوا فضلاً عن عقرياتهم سبباً كبيراً من أسباب وصول الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا ويزوغر شمسها عليها من المغرب بعد بزوغها من الشرق .

ولا شك أن الفيلسوف العربي أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الذي عاش في القرن السادس الهجري أو الثاني عشر الميلادي يأتي في طلائع أولئك المفكرين الفلاسفة . وإذا كان مكان الولادة من أثر في اعتدال المزاج ورقته وصفاء الفكر فمن المناسب أن نذكر أن ابن طفيل ولد في وادي أش قريباً من غرب ناطة . ويقال أش بفتح الهمزة والشين مخففة وربما مدت الهمزة وهي مدينة كثيرة المياه ينبع منها من جبل الثلج وهو شرقها وهي على ضفته ، كثيرة الفاكهة كالتوت والأعشاب والزيتون وغيرها كما تنمو حولها أشجار الشاهبلوط ، وقد يطلق وادي أش على المدينة وعلى ما يجاورها من غياض وبساتين . نهرها ماؤه النقي أذ على الظلماء من السلحفاة للتديم وحصاء لؤلؤ وفيروز ومرجان ترتاع الصبايا الفرائر عند تلمسها إذ يتوجهن أن عقودهن انفرطت فيتلمسن نحورهن كما وصفت الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد ذلك الوادي الوارف حين كانت تختلف إليه وقد تستحمل في غدراته هي ورفيقاتها . وذلك في الأبيات الرشيقية الرقيقة المنسوبة إليها والتي يعلو دائماً ترديدها :

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقا ه مضاعف الغيث العريم
نزلنا دوجه فعننا علينا	حنوا المرضعات على القطييم
وارشفنا على ظلماء زلازله	الذ من المدامنة للتديم
تروع حصاء حالية العذاري	فلتمس جانب العقد النظيم
يصد الشمس أني واجهتنا	فيعجبها ويانن للنسيم

ولد ابن طفيل في إحدى السنوات العشر من ( ٤٩٥ هـ - ١١٠١ م ) إلى ( ٥٥٥ هـ - ١١١١ م ) وتوفي في نحو الثمانين من العمر ( ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م ) . ونشأ معيناً للعلم والثقافة فدرس اللغة والأدب والشعر والفقه وبقية العلوم

الدينية كما درس العلوم العقلية واشتهر خاصة بالطب والرياضيات والفلك والموسيقى والفلسفة وتأثر ببيهود أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه معاصره وإن لم يلق شخصه كما تأثر بأمثال ابن باجه من فلاسفة المغرب والشرق . وألف بعض الرسائل الفلكية والفلسفية ولكن الزمان والفتنه أتت عليهما ما عدا واحدة منها تبوأت مكانة كبيرة في عالم الفكر وكان لها أثر عميق في قرائتها بأصلها العربي أو بترجماتها المتعددة ، وهي رسالة «حي بن يقطان» التي هي موضوع هذا البحث . كذلك قرض الشعر وقد وصلنا من شعره القطع الصغيرة التي تتم على تمكن من النظم وعلى سلبيّة طبيعية طيبة وعلى اتجاه فلسفي وروحي عميقان .

ومن شعره هذه القطعة الرقيقة المؤثرة الموجة :

هلا يكفيت فراق الروح للبين  
فانحاز عثروا وخائى العтин للكفن  
اغنها هذة كانت على دخن  
فيالها صفة تعم على غبن

يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط  
نور تردد في طين الى اجل  
يا شئ ما افترقا من بعد ما اعتقا  
ان لم يكن في رضا الله اجتماعهما

وقد نبه أمره وعلا شأنه في عهد دولة الموحدين التي أطلقت حرية الفكر وشجعت البحوث الفلسفية إلى أن صار طبيب الأمير يوسف أبي يعقوب بن عبد المؤمن ونديمه وزيره . رأس هذا الأمير دولة الموحدين بين ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ و ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ . وكان ابن طفيلي في سن الستين من عمره أو تجاوزها ، وقد اكتمل معرفة وحكمة . وهكذا نجد أن الحكم هذه المرة يمد يده إلى الحكمة فيتعاونان ويتشاروان . وما أصوب اللغة العربية حين اشتقت الحكم والحكمة من أصل واحد . بل الحكم في الأصل الأول معناه الحكمة . ومن الطبيعي أن يقرب ذلك الأمير رجل عصره في الطب والفلسفة فلقد كان له ولع بتقريب أهل العلم وبجمع الكتب المتنوعة .

ذكر عبد الواحد المراكشي عنه في كتابه «المعجب في أخبار المغرب» أنه لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبعث عن العلماء وخاصة أهل علم المناظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب.

وكان ابن طفيل مثل ملوكه في محبة المفكرين والعلماء وال فلاسفة وتقريرهم من القصر والعنابة بهم . كان من جملة من قربهم من الأمير وعرفه بفضلهم ومواهفهم الفيلسوف الكبير القاضي ابن رشد ( ١١٢٦ / ٥٢٠ - ١١٩٨ / ٥٩٤ ) .

قال عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب » عند كلامه على ابن طفيل متحدثاً عن علاقته بالملك الموحدى : « ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبهه عليهم ويحضره على إكراهم والتذويه بهم . وهو الذي نبه على أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد . فمن حينئذ عرفوه ونبأه قدره عندهم » .

تقرير ملك الموحدين لابن رشد مهم جداً في تاريخ الفلسفة الإنسانية وفي تاريخ انتقال الحضارة إلى أوربة . فلا يأس في أن نقف بعض الشيء عند هذه المرحلة ذات الشأن والخطورة ، ولا يأس في أن نتبين مكانة ابن رشد فيها . تتتابع المراكشي ينقل كلام تلميذه ابن رشد أبي بكر بن دودبن يحيى القرطبي وأصفا لقاء أستاذه لأمير المؤمنين : وكان هؤلاء يطلقون على ملوكهم لقب أمير المؤمنين : « قال : سمعت العظيم أبو الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما . فأخذ أبو بكر ينشي علىه ويدرك بيته وسلفي ، ويضم يفضله إلى ذلك أشياء لم يبلغها قدره . فكان أول ما فاتعني به أمير المؤمنين بعد أن سالني عن اسمي واسم أبي وننبي أن قال لي : ما رأيهم في السماء – يعني الفلسفة – أقدمية هي أم حادثة ؟ فأدركني العياء والخوف . فأخذت أتعلل وأنكر اشتغاله بعلم الفلسفة . ولم أكن أدرى ما قرر معه ابن طفيل . ففهم أمير المؤمنين مني الرّوع والعياء . فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألته عنها ، ويدرك ما قاله أرسسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد احتجاج أهل الإسلام عليهم . فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنهما في أحد من المشتغلين في هذا الشأن المترغبين له . ولم يزل يبسطلني حتى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك . فلما انصرفت أمر لي بما وخلمة سنية ومركب . »

ويضيف المراكشي أيضاً :

« وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : استدعاني أبو بكر بن طفيل

يوماً فقال لي : سمعتالي يومأمير المؤمنين يتذكر من قلق عبارة أرسسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهـا جيداً لـقرب ماخذـها على الناس . فـان كان فيك فضل قـوة لـذلك فـافعل . وإنـي لأـرجو أن تـفي به لما أـعلمـه من جـودـة ذـهـنـك وصـفـاء قـرـيـعـتك وـقـوـة نـزـوـعـك إـلـى الصـنـاعـة . وما يـمـعـنـيـ من ذلك إـلـا مـا تـعـلـمـهـ من كـبـرـةـ سـنـيـ وـاشـتـغـالـيـ بـالـخـدـمـةـ وـصـرـفـ عـنـايـتـيـ إـلـىـ ماـ هـوـ أـهـمـ عنـديـ منهـ . قال أبو الـولـيدـ : فـكانـ هـذـاـ الـذـيـ حـملـنـيـ عـلـىـ تـلـغـيـصـ ماـ لـخـصـتـهـ مـنـ كـتـبـ الـحـكـيمـ أـرسـطـوـ طـالـيـسـ . »

كان ابن رشد في الثامنة والثلاثين لما بُويع أبو يعقوب يوسف الأول ، أي في تمام القـوـةـ والـتـبـحـرـ فـيـ الـعـلـمـ وـتـحـفـزـ الـفـكـرـ . قدـ أـلـفـ كتابـ «ـالـمـكـلـيـاتـ فـيـ الـطـبـ»ـ إـلـىـ جـانـبـ عـلـوـمـ الـوـاسـعـةـ فـيـ الـلـغـةـ وـالـفـقـهـ وـالـحـدـيـثـ وـعـلـمـ الـكـلـامـ وـالـفـلـسـفـةـ . فـلـماـ عـهـدـ مـلـكـ الـمـوـحـدـيـنـ إـلـيـهـ فـيـ تـفـسـيرـ كـتـبـ أـرسـطـوـ الـمـلـمـ الـأـوـلـ وـتـلـغـيـصـهاـ وـشـرـحـهاـ أـقـبـلـ عـلـيـهـ وـهـوـ الـكـفـيـ الـقـدـيرـ عـلـىـ ذـلـكـ . وـهـكـذـاـ كـانـتـ رـغـبـةـ الـمـلـكـ فـيـ الـإـزـدـيـادـ مـنـ الـعـلـمـ هـيـ الـتـيـ حـمـلـتـ أـبـاـ الـوـلـيدـ عـلـىـ تـلـغـيـصـ ماـ لـخـصـتـهـ وـشـرـحـ ماـ شـرـحـ مـنـ كـتـبـ الـحـكـيمـ الـيـونـانـيـ كـمـاـ روـيـ هـوـ عـنـ نـفـسـهـ .

ولـماـ عـكـفـ اـبـنـ رـشـدـ عـلـىـ تـلـغـيـصـ كـتـبـ أـرسـطـوـ الـتـرـجـمـةـ وـجـدـ أـرـاءـهـ قـدـ اـمـتـزـجـتـ بـغـيرـهـ مـاـ جـاءـ فـيـ الـفـلـسـفـةـ الـأـفـلـاطـوـنـيـةـ وـالـفـلـسـفـةـ الـأـفـلـاطـوـنـيـةـ الـحـدـيـثـيـةـ اوـ فـيـ شـرـحـ أـرسـطـوـ نـفـسـهـ . لـذـلـكـ عـمـدـ إـلـىـ تـجـرـيـدـ أـقـوـالـهـ تـجـرـيـدـ دـقـيقـاـ وـالـيـ شـرـحـهـاـ فـكـانـ أـكـبـرـ الشـرـاحـ فـهـمـاـ لـأـرسـطـوـ وـاـيـضـاـ الـأـنـائـهـ . وـشـرـوحـهـ هـذـهـ ثـلـاثـةـ أـنـوـاعـ : فـهـيـ اـمـاـ جـوـامـعـ وـاـمـاـ تـلـغـيـصـاتـ وـاـمـاـ شـرـحـ مـطـوـلـةـ . فـيـ الـجـوـامـعـ يـهـمـ النـصـ وـيـعـرـضـ مـوـضـوعـ الـكـتـابـ وـبـحـوـثـهـ . وـفـيـ التـلـغـيـصـاتـ يـوـرـدـ النـصـ الـأـصـلـيـ بشـكـلـ وـاضـعـ وـيـعـرـضـ آرـاءـ الـمـفـسـرـيـنـ وـيـنـاقـشـ وـيـرـجـعـ . وـفـيـ الشـرـوحـ الـمـطـوـلـةـ يـوـرـدـ النـصـ الـأـصـلـيـ مـسـتـقـلاـ . ثـمـ يـفـسـرـهـ وـيـعـلـقـ عـلـيـهـ وـيـنـاقـشـ الـمـسـائـلـ الـتـيـ يـثـيـرـهـ النـصـ ، وـيـعـرـضـ فـيـهـ رـأـيـهـ الـخـاصـ . وـقـدـ تـرـكـ فـيـ ثـنـيـاـ شـرـوحـ نـظـامـاـ عـقـليـاـ اـمـتـاسـكـاـ هـوـ الـفـلـسـفـةـ الـرـشـدـيـةـ ، لـهـاـ خـصـائـصـهاـ ، تـقـفـ إـلـىـ جـانـبـ الـفـلـسـفـةـ الـأـرـسـطـوـ طـالـيـسـيـةـ وـتـشـدـ أـزـرـهـاـ . وـنـظـرـاـ لـهـذـهـ شـرـوحـ الـدـقـيقـةـ دـعـيـ اـبـنـ رـشـدـ بـالـشـارـحـ وـأـحـيـاـنـاـ بـالـشـارـحـ الـكـبـيرـ .

أشد ما ترسم به فلسفة ابن رشد اتجاهها العقلي . وقد ترجم أكثر كتبه إلى اللاتينية . بدأت ترجمتها منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . فانتقلت آراءه إلى الغرب وفهمها الذين ينشدون العلم والفلسفة كل حسب استيعابه وميوله . فنشأ في ذلك الوقت تيارات فكرية وسميت بالرشدية الlatinية . وهي وإن انتسبت إلى ابن رشد لم تكن التعبير الدقيق عن آرائه . بيد أنها تدخل في نطاق الفلسفة الأرسطو طاليسية . وكان الغرب في حاجة إليها لاتجاهها العقلي فأفاد منها الكثير من علماء ومفكرين . بل انتعلوا قسماً منها . وكان لها أثر عميق في يقظة الغرب كما كانت حافزاً على البحث والتمسك بالبرهان . يضاف إليها طرائق الملاحظة والاستقراء والقياس والتجريب التي امتازت بها الحضارة العربية الإسلامية .

\* \* \*

ويطيب لنا الآن أن نلخص قصة حي بن يقطان ثم نلقي عليهما تعليقات مناسبة . ونحافظ في التلخيص على أكثر عبارات المؤلف .

\* \* \*

حي بن يقطان انسان تكون أو شأفي جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء . في تكونه ونشوئه روایتان :

الأولى أنه ولد من غير أب ولا أم . وذلك «أن بطننا من أرض تلك الجزيرة تغمرت فيه طينة على مر السنين حتى امتصزج فيها العمار بالبارد والرطب باليابس امتصاج تكافؤ وتعادل في القوى . وكانت هذه الطينة المتغمرة كبيرة جداً . وكان بعضها يفضل بعضاً في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الأمشاج . وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الإنسان . فتضخت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات ، الغليان لشدة حرارتها ، وحدث في الوسط منها نفخة صغيرة جداً منقوسة يقسمين بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال الملائقي به . افتعلق به عند ذلك ، الروح الذي هو من أمر الله وتشبت به تشبيتاً يصعب انفصاله عنه عند الحس وعند العقل ، اذ قد تبين أن هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل وأنه بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم

الفيلسان على العالم . . . فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى وسجدت له بأمر الله في كمالها . فتكونَ بازاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة إلى ثلاثة قرارات بينها حجب لطيفة ومسالك نافذة وامتلات بمثل ذلك الهوائي الذي امتلت منه القرارة الأولى إلا أنه ألطف منه . . . وتكون بازاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية نفاخة ثلاثة مملوءة جسمًا هوائياً إلا أنه أغاظ من الأولين وسكن في هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاصة وتوكلت بحفظها والقيام عليها فكانت هذه القرارات الأولى والثانية والثالثة أول ما تخلّق من تلك الطينة المتغيرة على الترتيب الذي ذكرناه » .

يشرح ابن طفيل في هذا النص نشوء المضنة وتخليقها ويستمر في بيان تكون مختلف الأعضاء من قلب ودماغ وكبد متضامناً بعضها مع بعض بحيث يتکفل القلب بالعروبة والدماغ بالحس والكبد بالغذاء . وإنما حصل هذا التضامن بنشوء مسالك وطرق بعضها أوسع من بعض بحسب ما تدعو إليه الضرورة فكانت الشريان والمرفق وارتبط بعض الأعضاء ببعض على شكل مراتب من رئيس ومرؤوس .

ولما كمل خلق هذا الكائن على حسب ما وصف الطبيعيون خلقة الجنين في الرحم وتمت أعضاؤه وصار في حد خروج الجنين من البطن بعد أن جلنته أغشية انشقت تلك الأغشية بشبه المخاض وتصدع باقي الطينة إذ كان لحقه المفاف . « ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه واستهداه جوعه فلبته ظبية فقدت طلاها » .

نلاحظ في هذا الوصف كيفية نشوء الحياة الإنسانية على وجه الأرض وهي تعاون ما كانوا يسمونه الأركان الأربع وهو امتراج النار (النار) والبارد (الهواء) والرطب (الماء) والمياس (التراب) في سبيل اعتدال المزاج والتهيؤ لتكوين الأمشاج كما يتصور الأطباء الطبيعيون القدماء ، ثم اتصل الروح كشعاع الشمس الفائض بذلك المزاج وتلك الأمشاج . وعند هذا الاتصال والتعلق استجابت جميع القوى التي سلف ذكرها وخضعت للروح وكان تلك القوى كانت بمنزلة الملائكة التي سجدت لأبينا آدم .

الرواية الثانية في ولادة حي بن يقطان أنه «كان بازاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الأكناf كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكونها رجال منهم شديد الأنفة والغيرة . وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر ففضلها ومنعها الأزواج إذ لم يجد لها كفواً . وكان له قريب يسمى يقطان فتزوجها سراً على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم ، ثم إنها حلت منه ووضعت طفلاً . فلما خافت أن يفتح أمرها وينكشف سرها وضعيته في تابوت أحكمت زمَّه بعد أن أروته من الرضاع وخرجت به في أول الليل في جلة من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر وقلبها يحترق صباة به وخوفاً عليه ثم إنها ودعته ٠٠٠ ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جري الماء بقوة المد فاحتملته من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى ٠٠٠

فأدخله الماء بقوته إلى أجمة ملتفة الشجر عندها التربة مستورة عن الرياح والمطر عجوبة عن الشمس تَرْوَرُ عنها إذا طلعت وتميل إذا غربت . ثم أخذ الماء في النقص والجزر عن التابوت الذي فيه الطفل وبقي التابوت في ذلك الموضع ٠٠٠ فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستفاث وعالج العركة فوقع صوته في أذن ظبية فقدت طلامها ٠٠٠ فحننت الظبية وحننت عليه ورئت به والقمح حلمتها وأروته لبنا سائغاً وما زالت تتعمده وتربيه وتدفع عنه الأذى » .

وإذا اختلفت الروايتان في نشأة حي فهما تتفقان بعد ذلك في معنى التربية وسيورتها . ذلك أن الظبية التي تكفلت به وانقت خصباً ومرعى أثينا فكثر لحمها ودر لبنيها حتى قام بفناء ذلك الطفل أحسن قيام وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعي . وآلف الطفل تلك الظبية التي كان بعيث إذا أبطأه اشتد بكاؤه فطارت إليه .

ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السبع العادية فترى الطفل ونما واغتنى إلى أن تم له حولان وتدرج في المشي وأثغر فكان يتبع تلك الظبية وكانت هي ترقق به وتعمله إلى موضع بها شجر مشمر فكانت تطعمه ماتساقط من ثمارها العلوة النضيجية ، وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها ، ومتى عاد إلى اللbin أروته ، ومتى ظمىء إلى الماء أرْوَته ، ومتى ضعا ظللته ، ومتى خصر أدافته ، وإذا جن الليل صرفته إلى مكانه الأول ، وجلنته بنفسها وبريش كان هناك

ما ملئ به التابوت أولاً . وكانا في غدوهما ورواحهما قد الفهم ربيب  
يسرح ويبت معهما حيث مبيتها .

وعلى تلك الحال حكى الطفل نفمة الظبية بل جاوزها إلى حكاية جميع  
ما يسمعه من أصوات الطير والحيوان ولاسيما أصوات الظباء في الاستقرار  
والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاعة فالفتة الوحش والفتاة ولم تذكره ولا  
أنكرها . ومع ذلك كان يميل إلى بعض منها دون بعض .

ورأى جميع الحيوانات كاسية باللوبر والشعر والريش كما رأى ما لها من  
العدو والبطش وما لها من القرون والأنياب والعوارف والمغالب ووجد نفسه  
عارياً عديم السلاح ضعيف العَدُو قليل البطش ففك في ذلك وطال همه وهو قد  
قارب سبعة أعوام فاتخذ من أوراق الشجر العريضة ما يستر به بدنه وعمل من  
أغصان الشجر عصيّاً له هشّاً بها على الوحش المنازعة له ، فعلا بذلك قدره  
عند نفسه . ثم رأى أن ليديه فضلاً على أيديها إذ كان يتصرف بها كما يريد .  
ولقد صادف في بعض الأيام نسراً ميتاً فقطع جناحيه وذنبه صحاحاً كما هي  
وسلخ عنه سائر جلده وفصله على قطعتين ربط إحداهما على ظهره والأخرى على  
سرته وما تحتها وعلق الذنب من خلفه وعلق الجناحين على عضديه ، فاكتبه  
ذلك ستراً ودقناً ومهابة في نفوس الوحش .

ثم أستنّت الظبية وضفت فكان يرتاد بها المداعي المقصبة ويجتنب لها  
الثمرات الحلوة ويطعمها ، حتى أدركها الموت فسكنت حر كاتها بالجملة وتعطلت  
أفعالها فجزع الصبي جزاً شديداً وكادت نفسها تفيض أسفًا عليها .

كان يناديها بالصوت الذي اعتاد أن تجيبه عند سماعه ويصبح باشد ما يقدر  
عليه فلا يرى حركة ولا تغيراً فشرع يستطلع سبب ما حصل ويبحث جميع  
أعضائهما دون أن يرى آفة فيها إلى أن اهتدى إلى عضو في جانب الصدر ألا وهو  
القلب فنظر فلم ير فيه آفة ظاهرة ولكنه ألغى فيه تجويفين أحدهما من الجهة  
اليميني مملوء يعلق منعقد والآخر من الجهة اليسرى خال لا شيء فيه ، فعدس  
أن الساكن في ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله وتحقق أنه  
آخر لا يعود إليه ، وصار الجسد كله عنده خسيساً لا قدر له بالإضافة إلى ذلك

الشيء الذي ارتحل عنه . وتشتت فكره في ذلك كله وعلم أن أمه التي عطفت عليه وأرضعته وتعهدت به إنما كان ذلك الشيء المرتجل وأن الجسد بحملته كالألة وبنزلة العصي التي اتخذها هو ملأب شتي . وفي خلال ذلك نتن ذلك الجسد وقامت منه رواحة كريهة نفرت عنه . ثم سمع لنظره غرابة يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتا . ثم جعل المي يبحث في الأرض حتى حفر حفرة وارى فيها ذلك الميت بالتراب . فحفر هو حفرة وألقى فيها جسد أمه وحثا عليها التراب .

وبقي على ذلك برهة يتصفح أنواع العيون والنبات ويطوف بساحل تلك الجزيرة فلم يجد لنفسه شبهاً ووجد لكل واحد من أشخاص العيون والنبات أشباحاً كثيرة . وكان يرى البحر معدقاً بالجزيرة من كل جهة فظن أنه ليس في الوجود أرض سوى أرض جزيرته تلك ، واتفق أن انقدحت نار في أجنة قصب أجوف على سبيل المحاكاة فهاله منظرها . فوقف يتعجب فيها مليأً ثم دنا منها و مد يده فلما باشرها أحرقت يده ، فاهتدى إلى أن يأخذ منها قبساً لم تستول النار على جميعه فأخذه بطرفة السليم وحمله إلى موضعه الذي يأوي إليه وهو جنر استحسن للسكن قبل ذلك .

ثم ما زال يمد تلك النار بالحشيش والخطب ويعهد لها ليلاً ونهاراً . وكان يزيد أنسه بها ليلاً لأنها كانت تقوم له مقام الشمس في الضياء والدفء فعظمه بها ولو عه واعتقد أنها أفضل الأشياء التي لديه ورأها تتحرك إلى جهة فوق وتطلب اللهو . وألقى فيها على سبيل الاختبار شيئاً من أصناف الحيوانات البحريّة فسطع قتاره وحرك القطار شهوته إليه فأكل منه شيئاً استطاعه فاعتاد بذلك أكل اللحم وصرف العيلة في صيد البر والبحر .

وزادت معجته للنار لما رأى من حسن آثارها وقوّة اقتدارها . ثم وقع في نفسه أن الشيء الذي ارتحل من قلب أمه الطيبة كان من جوهر هذا الموجود أو من شيء يجاوره ، وأكمل ذلك في ظنه ما كان يراه من حرارة الحيوان العي و ما كان يجهد من شدة الحرارة عند صدره بازاء الموضع الذي كان قد شق عليه من الطيبة .

ثم دفعته الرغبة إلى البحث عن سائر أعضاء الحيوان وتربيتها وأوضاعها وكميّاتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمر لها الحياة من تلك الحرارة

التي في القلب فتتبع ذلك كله بتشريح العيونات الأحياء والأموات . ولم يزل ينعم النظر فيها ويعجل الفكرة حتى بلغ في ذلك كله كبار الطبيعيين . فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان وإن كان كثيراً بأعضاءه وتفنن حواسه وحركاته فإنه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد وانقسامه في سائر الأعضاء منبعث منه ، وأن جميع الأعضاء خادمة له أو مؤدية عنه . وهو يصرفها كأنها آلات أنياء من التصريف بحسب ما تصلح له كل آلة ويحسب الغايات التي تلتزم بذلك التصريف . فإذا عمل بالآلة المبين كان فعله ابصاراً ، وإذا عمل بالآلة الأذن كان فعله سمعاً ، وإذا عمل بالآلة الأنف كان فعله شمّاً ، وإذا عمل بالآلة اللسان كان فعله ذوقاً ، وإذا عمل بالجندول للحم كان فعله لمساً ، وإذا عمل بالقصد كان فعله حركة ، وإذا عمل بالكبد كان فعله غذاءً واغتناءً . ولا يتم لشيء من هذه فعل إلا بما يصل إليها من ذلك الروح على الطرق التي تسمى عصباً ، و تستمد الأعصاب الروح من بطون الدماغ ، والدماغ يستمد الروح من القلب . فإن خرج الروح بجملته عن الجسد أو فني أو تعلل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كنه وصار إلى حالة الموت . وقد انتهى حسي إلى هذا الحد من النظر على رأس أحد وعشرين عاماً من منشئه .

وفي خلال هذه المدة تفنن في وجوب حيله واكتسى بجلود العيونات التي كان يشرحها واحتدى بها واتخذ الخيوط من الأشجار ولحاء القصب والخبازى والقنب وكل نبات ذي خيط .

وكان بتلك الجزيرة خيل بريء وحروشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها حتى كمل بها غرضه .

ثم بعد ذلك أخذ في مأخذ آخر من النظر فتصفح جميع الأجسام من العيون والنبات والمعادن وأصناف العجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد والدخان واللهمب والجمر فرأى لها أوصافاً كثيرة وأفعالاً مختلفة وأنعم النظر في ذلك فكشف خصائصها وتعرف طبائعها فرأى حقيقة وجود كل منها مركبة من الجسمية ومن شيء آخر زائد على الجسمية أما واحد وأما أكثر من واحد . فلاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحاني اذ هي صور لا تدرك بالحس وإنما تدرك بضرب مامن النظر العقلي ولاج له أن الروح العيواني

الذي مسكنه القلب لا بد له من معنى زائد على جسميته يصلح به لأن يعمل تلك الأعمال الغربية من ضروب الاحساسات وفنون الادراكات وأصناف العركات . وذلك المعنى هو صورته وفصله الذي يفصله عن سائر الأجسام ويميزه منها وهو الذي يعبر عنه بالنفس العيوانية .

و مثلها النفس النباتية التي هي صورة النبات وفصله المائز له . وكذلك للجمادات شيء يخصها وهو صورتها وفصلها ، ويعبر عنه بالطبيعة .

وهكذا تجاوز جسمية الأجسام إلى صورها وخصائصها التي ينفصل بعضها بها عن بعض . فتأمل بالتفصيل تلك الخصائص والصور التي تميز أنواع الحيوان والنبات والجماد .

وبالتدريج انتهي إلى أبسط ما قدر عليه من قلة التركيب وهو الأرض والماء والنار والهواء ، ثم إلى الصورة التي تلبس المادة وإلى المادة أو الهيولي العارية عن الصورة جملة . ولما انتهي نظره إلى هذا الحد وأشرف على تغوم العالم العقلي حين إلى ما أله من عالم الحس فتأمل صور الأركان الأربعمة من أرض وماء ونار وهواء . فالماء مثلاً إذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة إلى فوق وصلح لها بذلك الاستعداد هو صورته . وعلى العموم صلوح الجسم لبعض العركات دون بعض هو استعداده وصورته . ولاحق له مثل ذلك في جميع الصور فتبين له أن الأفعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها وإنما هي لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها .

فلم لا يلاحظ من أمر هذا الفاعل ما لا يلاحظ على الأجمال دون تفصيل حدث له شوق حيث يحيط به على التفصيل . فتصفح جميع الأجسام فلن يرى منها شيئاً بريئاً عن العذوات والافتقار إلى المفاعل المختار . فاطرحاها كلها وانتقلت فكرته إلى الأجسام السماوية . وكان ذلك على رأس ثمانية وعشرين عاماً من عمره .

فعلم أن السماء وما فيها من كواكب أجسام لأنها متدة في الأقطار الثلاثة : الطول والعرض والعمق ، وإنها جميعاً متناهية . ورأى أن الفلك بعمله وما يحتوي عليه كشيء واحد متصل بعضه ببعض وأن جميع الأجسام كالأرض والماء والهواء والنبات والحيوان وما شاكلها هي كلها في ضمنه وأنه كله أشبه

شيء بشخص من أشخاص الحيوان . وما فيه من الكواكب المنيرة هي بمنزلة حواس الحيوان ، وما فيه من ضروب الأفلاك المتصل بعضها ببعض هي بمنزلة أعضاء الحيوان ، وما في داخله من عالم الكون والفساد هو بمنزلة ما في جوف الحيوان من أصناف الفضول والمرطبات .

فلما تبين له أنه كله كشخص واحد في الحقيقة قائم محتاج إلى فاعل مختار تفكير في العالم بجملته هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن وخرج إلى الوجود بعد العدم ؟ أو هو أمر كان موجوداً فيما سلف ولم يسبق العدم بوجه من الوجه . فتشكل في ذلك ، وانتهى بعد التشكك في قدم العالم أو حدوثه إلى أنه لا بد على كلا الوجهين من وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه ، اذ الاتصال والانفصال والدخول والخروج هي كلها من صفات الأجسام وهو منزلة عنها . واذن فالعالم كله بما فيه من السماوات والأرض والكواكب وما بينها وما فوقها فعله وخلقه ، وهو متاخر عنده بالذات . وان كان غير متاخر بالزمان في وجده من الوجهين اللذين سلف ذكرهما . وعندئذ تصفح الموجودات مرة جديدة تصفعاً على طريق الاعتبار في قدرة فاعلها والتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه . وتبيّن له في أقل الأشياء الموجدة فضلاً عن أكثرها من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما قضى منه كل العجب ، وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار في غاية الكمال وفوق الكمال . وكل شيء له حسن أو بهاء أو كمال أو قوة أو فضيلة من الفضائل هو من فيض ذلك الفاعل ومن جوده ومن فضله . وانتهت به المرارة إلى هذا العدد على رأس خمسة وثلاثين عاماً من منشئه ، وقد رسم في قلبه من أمر هذا الفاعل ما شغله عن الفكرة في كل شيء إلا فيه . وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها حتى صار بحيث لا يقع بصره على شيء إلا ويرى فيه أثر الصنعة فينتقل بفكره على الفور إلى الصانع حتى استدشوه إليه وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس وتعلق بالعالم الأرفع المعمول .

فلما حصل له هذا العلم بهذه الموجودات الرفيع الثابت الوجود أراد أن يعلم بأي شيء حصل له هذا العلم وبأي قوة أدرك ذلك الوجود ، فتصفح حواسه كلها وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس فإذا ألم الحواس لا تدرك إلا جسماً أو

ما هو في جسم . وقد تبين أن هذا الموجودالواجب الوجود بريء من صفات الأجسام من جميع الجهات ولا تعلق له يوجه من الوجه بالأجسام ، كما تبين أنه أدركه بذاته ، وأن ذاته التي أدركه بها أمر غيرجسماني ولا يجوز عليها شيء من صفات الأجسام ، وأن كل ما يدركه من ظاهر ذاته من الجسميات فانها ليست حقيقة ذاته . وإنما حقيقة ذاته ذلك الشيء الذي أدرك به الموجود المطلق الواجب الوجود . فلما علم أن ذاته العقيقيةليست هذه المتجمسة التي يدركها بواسطه ويحيط بها جلده هان عنده بالجملةجسمه وجعل يتذكر في ذاته العقيقة الشريفة التي أدرك بها ذلك الموجودالشريف الواجب الوجود . ورأى أن الذات التي أدرك بها ذلك الموجودالشريف الواجب الوجود لا يمكن تصور فسادها وأنها إذا أدركته وتعرّفته تعلقت به وحنت إليه . وتبين له أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجودالواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبداً حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكي توافقه المنية وهو في حال المشاهدة بالفعل فتتصال لذته دون أن يتخللها ألم . ثم جعل يتذكر كيف يتأنى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه إعراض . ففدا معرضأ عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية ، مجتمع لهم . والفتكرة في الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة . فمتي ستح لخياله سانح سواه طرده عن خياله جهده وراض نفسه على ذلك ودأب عليه . وفي شدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكره ونكره جميع الذوات إلا ذاته . فانها كانت لا تغيب عنه في وقت استغرقه بمشاهدة الموجود الحق الواجب الوجود . ولتكن ما زال يطلب الفنان عن نفسه والاخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك ولم ييق إلا الواحد الحق . واستفرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطط على قلب بشر . ثم لما أفاق من حالي تلك التي هي شبيهة بالسكر عادلى ملاحظة الأغيار وخطط بياله أنه لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعالى ، وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق ، وأن الشيء الذي كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرةذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة ، بن لس ثم شيئاً إلا ذات الحق ، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها . فإنه وإن نسب إلى الجسم الذي ظهر فيه وليس هو في الحقيقة شيئاً سوى الشمس . وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور

الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه . ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله ، فاذاد عدم الجسم ذلك القبول لم يكن له معنى . وَتَقْوَىً عنده هذا الظن بما قد كان باهله من أن ذات الحق عز وجل لا تتذكر بوجه من الوجه ، وأن علمه بذاته هو ذاته بعينها . فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته فقد حصلت عنده ذاته . وقد كان حصل عنده العلم فحصلت عنه الذات . وهذه الذات لا تحصل الا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات . فاذن هو الذات بعينها .

لقد كتب ابن طفيل هنا صفحات ممتعة عما لا يُحْسَنُ إِلَّا بِالْعُلُوِّ<sup>١</sup> ما استطاع التدرج العلوى بعي<sup>٢</sup> والتحليل معتمدأ على تشبهات ثلاثة :

١ - تشبه بالحيوان غير الناطق . جعله هذا التشبه يعيش في الافتداء عيشة اعتدال دون اضرار ولا استئصال وبحسب ما يسدعنه خلة الجوع وفي العين بعد العين دفنا للضعف وامساكا للرمق .

٢ - تشبه بالاجرام السماوية . وكانوا يقلنون تبعا لفلسفة ارسطو أن لها طبيعة خامسة مطهرة غير مادية . وما رأها تجري في نظام دقيق يتهدى الحياة على وجه الأرض الزم نفسه اتباع ذلك النظام وأن يتعهد متطلبات الحياة عامة . فجعل يبذل وسعه في عيون الحيوان والنبات وفي اتساق القوى الطبيعية على الأرض وهو ما نستطيع قوله في التعابير العديدة اليوم من دفع التلوك والفساد في جزيئته . وكذلك العناية بنفسه تقافة وطهارة ثم ملازمة الفكرة في ذلك الموجود الواجب الوجود وفي حكمته وسننه التي تجري بمقتضاهات تلك الأفلاك .

٣ - تشبه بالوجود الواجب الوجود وصفاته . وقد تبين له أن تلك الصفات على ضررين : أما صفات ثبوت كالعلم والقدرة والحكمة وأما صفات سلب ترجع كلها الى التنزعه عن الجسمية . فأخذ يطرح عن ذاته أوصاف الجسمية ما عدا ما لا بد منه من العركة والاعتناء بأمر الحيوان والنبات والرحمة لها وازالة عوائقها وأعرض عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية وغدا مجتمع الهم والفكرة في الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة واستغرق في مجاهدته كما شرحنا ذلك آنفا حتى غاب عن نفسه في مشاهدة العق .

يتلامح من وراء هذا الترتيب ودرجات التشبه روح النهج الاسلامي الشرعي ثم الاتجاه الصوفي الحقيقي الرفيع . وهكذا يصل ابن طفيل بعي<sup>٢</sup> الى ذروة الحكمة المشرقية والتتصوف في الفلسفة الاسلامية .

وقد ألح المؤلف على كيفية تعرف حي بن يقطان لذاته الإنسانية الحقيقة الشريفة وأن من حصل العلم بذاته فقد حصلت عنده ذاته ، ونفس حصولها هو الذات . ويظهر من ذلك أن الذات هي التي أشار إليها التنزيل الكريم : « قل الروح من أمر ربي » وإنها خالدة ، وأن حديث المؤلف عنها يصلح أن يكون مقدمة واضحة أو موجبة لكتابي المفلاسوف الفرنسي ديكارت الذي أطلقها بعد نحو خمسة قرون : « أنا أفك أذن أنا موجود » وأن مثل هذا الحديث هو الذي جعل ديكارت أيضاً يمنع أن يكون للحيوان روح أو نفس – هنا مع جواز أن يكون في الفلسفة الإسلامية أيضاً موضع أوحت بذلك الكوجيتو أو يسّرت له كما أشار إلى ذلك المفكر الإيطالي فرلاني Furlani G. في مقال نشره عام ١٩٢٧ في مجلة Islamica بعنوان « ابن سينا ومقولة ديكارت » معتمداً على نص الشیخ الرئیس باسم « الرجل الطائر » ورد في كتابه « الشفاء » .

ومهما يكن من أمر فان مؤلف حي بن يقطان حين وصل بحيـ إلى تلك الندوة من الحكمة ومن التأمل والاستغراق شعر بضيق المجال وبخطر التحكم بالألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ، بل باستحالة التعبير عن تلك الحالة اذ لا سبيل الى التحقيق بما في ذلك المقام الا بالوصول اليـه .

ثم أراد المؤلف أن يتمتع القارئ بتمام الخبر بأقل شأنـاً من الخبر ذاتـه . وذلك لبيان اتفاق الحكمة مع حقيقة الشرعية وأن الناس ليسوا سواءً في تفهم حقيقة كل من الشرعية والحكمة . ولهذا يقـم المؤلف حـيـاً وقد وصل إلى قمة المعرفة والـرفـانـ في مجتمع انساني ليتـدبرـ وجوهـ الواقعـ وأصنافـ الناسـ ويتـبـينـ مزاـياـ المـتأـلهـينـ ورـفـعـهمـ وسـجـائـاـ المؤـمنـ الصـادـقـينـ وضـلالـ الـدهـماءـ الذينـ هـمـ كـسوـامـ الانـعامـ لاـ يـتـمـسـكونـ الاـ بـالـدـنيـاـ، قدـ تـفـشـتـهمـ ظـلـماتـ الـحـجـبـ . فقد ذـكـرـواـ أنـ جـزـيرـةـ قـرـيبـةـ منـ تـلـكـ الـتـيـ نـشـأـ بـهـ حـيـ اـنـتـقـلـتـ إـلـيـهـ مـلـةـ منـ المـلـلـ الصـعـيـعـةـ المـأـخـوذـةـ عنـ بـعـضـ الـأـنـبـيـاءـ . وـكـانـ قدـ تـرـعـرـعـ بـتـلـكـ الـجـزـيرـةـ فـتـيـانـ مـنـ أـهـلـ الـفـضـلـ وـالـرـغـبـةـ فـيـ الـهـيـرـ . أـحـدـهـماـ اـسـمـهـ أـبـسـالـ أوـ أـسـالـ وـاسـمـ الـآـخـرـ سـلـامـانـ . وـكـلـاهـماـ اـنـتـحـلـاـ هـذـهـ الـمـلـةـ وـقـبـلـاهـماـ أـحـسـنـ قـبـولـ وـالتـزـمـاـ جـمـيعـ شـرـائـعـهـاـ وـأـعـمـالـهـاـ وـاصـطـعـبـهاـ عـلـىـ ذـلـكـ . فـاـمـاـ أـبـسـالـ فـكـانـ أـشـدـ غـوـصـاـ عـلـىـ الـبـاطـنـ وـأـكـثـرـ عـثـورـاـ عـلـىـ الـمـعـانـيـ الـرـوـحـانـيـةـ وـأـطـمـعـ فـيـ التـأـوـيـلـ . وـأـمـاـ سـلـامـانـ فـكـانـ

أشد احتفاظاً بالظاهر وأشد بعدهاً من التأويل ، وأوقف عن «التصرف والتأمل» . وكان في تلك الشريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدل على أن الفوز والنجاة فيما . وأقوال آخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة . فتعلق أبسال بطلب العزلة ، وتعلق سلامان بملازمة الجماعة .

وكان أبسال قد سمع عن الجزيرة التي تكون ابن يقطان بها وعرف ما بها من الغصب والرافق والهواء المعتمد . فأجمع أمره على الانفراد بها وارتحل إليها وبقي بها يعبد الله عن وجل وأقام على هذه الحال مدة وهو في أتم غبطة وأعظم أنس بمناجاة ربه .

وأتفق أن خرج حيٌ للتعاس غذائه ، وأبسال قد ألمَ بتلك الجهة فوقع بصر كل منها على الآخر فاما أبسال فلم يشتك في أنه من العياد المنقطعين وصل إلى تلك الجزيرة اعزلا للناس ، فائزراحترام اعتناله وعدم الم تعرض له . وأنا حيٌ فلم يدرِّ ما هو لأنَّه لم يره على صورة شيء من العيونات التي كان قد عاينها قبلًا . فوقف يتعجب منه ملياً . وولى أبسال هارباً منه خيفة ان يشله عن حاله . فاقتفي حيٌ أثره لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الأشياء . فلما رأه يشتت في الهرب توارى له حتى ظن أبسال أنه قد انصرف عنه . وشرع أبسال في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع . فجعل حيٌ يتقرب منه قليلاً قليلاً حتى دنا منه بحيث يسمع قراءته وتسبيحه ويشاهد خضوعه وبكاءه . فسمع صوتاً حسناً وحرقاً منتظمة لم يعهد مثلها من شيء من أصناف العيون . ونظر إلى أشكاله وتخطيطه فرأه على صورته ، فزاد في الدنو حتى أحس به أبسال ، فاشتد في المعدو واشتد حيٌ في أثره حتى التحق به ، ففزع منه . ولكن حيٌ شرع يؤنسه بأصوات تعلمها من بعض العيونات ، ويجر يده على رأسه ويمسح أعطافه ويظهر البشر والفرح به حتى سكن جاش أبسال وعلم أنه لا يزيد به سوءاً . وكان أبسال قد تعلم أكثر الألسن ومهـر فيها ، فجعل يكلـم حيـاً ويـسألـه عن شأنـه بكلـ لسانـ يـعلـمهـ وـيـعـانـجـ اـفـهـامـهـ فلاـ يـسـتـطـيعـ ، وـحيـ يـتعـجـبـ مماـ يـسـمـعـ ولاـ يـدـرـيـ ماـ هوـ عـلـيـهـ ، فـاستـغـرـبـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـماـ اـمـرـ صـاحـبـهـ . وـرأـيـ حـيـ أـنـ يـقـيمـ معـ أـبـسـالـ حـتـىـ يـقـفـ عـلـىـ حـقـيـقـةـ شـائـنـهـ . فـالـتـزـمـ صـحبـتـهـ . وـلـمـ رـأـيـ أـبـسـالـ أـنـ لـاـ يـتـكـلـمـ أـمـنـ مـنـ غـوـائـلـهـ عـلـىـ دـيـنـهـ ، وـرـجـاـ أـنـ يـعـلـمـ الـكـلـامـ وـالـعـلـمـ

والذين زلّف عندهم فشرع في تعليمه الكلام أولاً بـأن يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق باسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق بها حتى علمه الأسماء كلها ودرّجها قليلاً حتى تكلم في أقرب مدة . فجعل أبساـل يسألـه عن شأنـه وـمن أين صار إلى تلك العـزـيرـةـ فأعـلـمـهـ حـيـةـ أنه لا يـدـريـ لنـفـسـهـ اـبـتـداءـ ولا أـبـاـلاـمـاـ أـكـثـرـ منـ الـظـبـيـةـ الـتيـ رـبـتـهـ، وـوـصـفـ لـهـ شـأـنـهـ كـلـهـ، وـكـيـفـ تـرـقـيـ بـالـعـرـفـةـ إـلـىـ درـجـةـ الـوـصـولـ . فـلـمـ سـعـمـ أـبـسـالـ مـنـهـ وـصـفـ تـلـكـ العـقـائـقـ وـالـذـوـاتـ الـمـفـارـقـةـ لـعـالـمـ الـعـسـنـ الـعـارـفـ بـذـاتـ الـعـقـعـ عـزـ وـجـلـ وـوـصـفـ ذـاتـ الـعـقـعـ تـعـالـيـ وـجـلـ بـأـوـصـافـهـ الـعـسـنـ وـوـصـفـ مـاـ أـمـكـنـهـ وـصـفـ مـاـ شـاهـدـهـ عـنـدـ الـوـصـولـ مـنـ ذـاتـ الـوـاصـلـينـ وـالـآـلـمـ الـمـعـجـوبـينـ لـمـ يـشـكـ أـبـسـالـ فـيـ أـنـ جـمـيعـ الـأـشـيـاءـ الـتـيـ وـرـدـتـ فـيـ شـرـيـعـتـهـ مـنـ أمرـ اللهـ عـزـ وـجـلـ وـمـلـائـكـتـهـ وـكـتـبـهـ وـرـسـلـهـ وـالـيـوـمـ الـآـخـرـ وـجـنـتـهـ وـنـارـهـ هـيـ أـمـثـلـةـ هـذـهـ الـتـيـ شـاهـدـهـ حـيـ بـنـ يـقـيـانـ . فـانـفـتـحـ بـصـرـ قـلـبـهـ ، وـانـقـدـحـتـ نـارـ خـاطـرـهـ ، وـطـبـاقـ عـنـهـ الـمـعـقـولـ وـالـمـنـقـولـ ، وـقـرـبـتـ عـلـيـهـ طـرـقـ الـتـأـوـيلـ ، وـلـمـ يـبـقـ عـلـيـهـ مشـكـلـ فـيـ الـشـرـعـ إـلـاـ تـبـيـنـ لـهـ وـلـاـ مـفـلـقـ إـلـاـ اـنـفـتـحـ وـلـاـ غـامـضـ إـلـاـ اـنـفـسـحـ وـصـارـ مـنـ أـوـلـيـ الـأـلـبـابـ . وـعـنـدـ تـلـكـ نـظـرـ إـلـىـ حـيـ بـعـيـنـ التـعـظـيمـ وـتـعـقـعـتـ عـنـدـهـ آـنـهـ وـلـيـ مـنـ أـوـلـيـاءـ اللهـ الـذـينـ لـاـ خـوفـ عـلـيـهـمـ وـلـاـ هـمـ يـعـزـنـونـ . فـالـتـزـمـ خـدـمـتـهـ وـالـاقـدـاءـ بـهـ . وـجـلـ حـيـ ، وـكـانـتـ سـنـهـ إـذـ ذـاكـ خـمـسـيـنـ عـامـاـ يـسـتـفـصـحـهـ عـنـ أـمـرـهـ وـشـأـنـهـ . فـجـعـلـ أـبـسـالـ يـصـفـ لـهـ شـأـنـ جـزـيرـتـهـ وـمـاـ فـيـهـاـ مـنـ الـعـالـمـ وـكـيـفـ كـانـتـ سـيـرـهـ قـبـلـ وـصـولـ الـمـلـةـ إـلـيـهـمـ ، وـكـيـفـ هـيـ إـلـآنـ بـعـدـ وـصـولـهـاـ وـصـفـ لـهـ جـمـيعـ مـاـ وـرـدـ فـيـ الشـرـيـعـةـ مـنـ وـصـفـ الـعـالـمـ الـإـلـهـيـ وـالـجـنـةـ وـالـنـارـ وـالـبـيـثـ وـالـنـشـورـ وـالـعـشـرـ وـالـعـسـابـ وـالـمـيـزانـ وـالـمـصـراـطـ . فـفـهـمـ حـيـ هـذـاـ كـلـهـ وـلـمـ يـرـفـهـ شـيـئـاـ عـلـىـ خـلـافـ مـاـ شـاهـدـهـ فـيـ مـقـامـهـ الـكـرـيمـ . فـعـلـمـ أـنـ الـذـيـ وـصـفـ ذـلـكـ وـجـاءـ بـهـ مـعـقـ فيـ وـصـفـهـ صـادـقـ فـيـ قـوـلـهـ ، رـسـولـ مـنـ عـنـدـ رـبـهـ ، فـأـمـنـ بـهـ وـصـدـقـهـ وـشـهـدـ بـرـسـالتـهـ . ثـمـ جـلـ يـسـأـلـهـ عـماـ جاءـ بـهـ مـنـ الـفـرـائـضـ وـالـعـبـادـاتـ فـوـصـفـ لـهـ الـصـلـاـةـ وـالـزـكـاـةـ وـالـصـيـامـ وـالـعـجـ وـمـاـ أـشـبـهـهـاـ مـنـ الـأـعـمـالـ الـظـاهـرـةـ . فـتـلـقـيـ ذـلـكـ وـالـتـزـمـ إـلـاـ آـنـهـ بـقـيـ فـيـ نـفـسـهـ أـمـرـانـ كـانـ يـتـعـجـبـ مـنـهـاـ وـلـاـ يـدـريـ وـجـهـ الـعـكـةـ فـيـهـاـ .

أـحـدـهـاـ لـمـ ضـرـبـ هـذـاـ الرـسـولـ الـأـمـثـالـ لـلـنـاسـ فـيـ أـكـثـرـ مـاـ وـصـفـهـ مـنـ أـمـرـ الـعـالـمـ الـإـلـهـيـ وـأـضـرـبـ عـنـ الـمـاـكـاشـفـةـ حـتـىـ وـقـعـ النـاسـ فـيـ التـجـسـيمـ وـاعـتـقـادـ أـشـيـاءـ فـيـ ذـاتـ الـعـقـعـ هـوـ مـنـزـهـ عـنـهـ ، وـكـذـلـكـ فـيـ أـمـرـ الـثـوـابـ وـالـعـقـابـ ؟

والأمر الآخر لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات ، وأباح اقتناة الأموال والتلوّن في المأكل حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل والاعراض عن الحق ؟

وكان رأيه هو لا يتناول أحد شيئاً ما يقيم به الرمق . وأما الأموال فلم يكن لها عنده معنى . وكان يرى ما في الشرع من الأحكام في أمر الأموال كالزكاة وتشعبها والبيسوع والربا والحدود المقويات ، فكان يستغرب ذلك كله وبيناه تطويلاً ويقول : إن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه البوائل وأقبلوا على الحق واستفروا عن هذا كله ، ولم يكن لأحد اختصاص بمجال يسأل عن زكاته أو تقطع الأيدي على سرقته أو تذهب نفوس على أخيه مجاهراً .

وقد سبق ظنه إلى أن الناس كلهم ذوو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة ، وما درى ما هم عليه غالباً من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وأنهم كالأئم السائمة .

فاشتد أشفاقه عليهم وطبع أن تكون نجاتهم على يديه ، فقاوم في ذلك صاحبه أبسال ، وطبع هذا أن يهدي الله على يديه حي طائفة من معارفه . فالالتزام بالبحر . وكان أن سفينته ضلت مسلكها وقربت من البر ورأى أهلها الرجلين على الشاطئ فدنوا منها وحملوها معهم إلى الجزيرة التي قصدتها . وكان رأس الجزيرة سلامان صاحب أبسال وملازم الجماعة ومحرم العزلة ، فشرع حي في تعليمهم وبث أسرار الحكمـةـ اليـهمـ فجعلـواـ يـنقـبـونـ منهـ ويتـسـخـطـونـ فيـ قـلـوبـهـ . وما زال كذلك حتى يئس من اصلاحهم . وتصفـحـ الناسـ بعدـ ذلكـ فرأـيـ أنـ كلـ حـزـبـ بماـ لـدـيـهـ فـرـحـونـ ،ـ قـدـ اـتـخـذـوـ إـلـهـهـمـ هـوـاـهـ ،ـ وـتـهـالـكـواـ فيـ جـمـعـ حـطـامـ الدـنـيـاـ .ـ وـأـمـاـ الـعـكـمـةـ فـلـاـ سـبـيلـ لـهـمـ إـلـيـهـاـ .ـ وـلـاـ تـمـكـنـ مـخـاطـبـتـهـمـ بـطـرـيـقـ الـمـكـافـةـ .ـ وـحـظـ أـكـثـرـ الـجـمـهـورـ مـنـ الـانتـفـاعـ بـالـشـرـيـعـةـ آـنـمـاـ هـوـ فـيـ حـيـاتـهـمـ الـدـنـيـاـ لـيـسـتـقـيمـ لـكـلـ مـنـهـ مـعـاـشـهـ وـلـاـ يـتـعـدـىـ عـلـىـ سـوـاهـ .ـ وـلـاـ يـفـوزـ مـنـهـ بـالـسـعـادـةـ الـآـخـرـيـةـ إـلـاـ الشـاذـ النـادـرـ .ـ

فـانـصـرـفـ حـيـ إـلـيـ سـلـامـانـ وـأـصـحـابـهـ وـأـعـتـدـرـ عـمـاـ تـكـلـمـ بـهـ مـعـهـمـ وـتـبـرـأـ يـهـمـ مـنـهـ ،ـ وـأـعـلـمـهـ أـنـهـ قـدـ رـأـيـهـ مـثـلـ رـأـيـهـمـ وـأـهـتـدـيـهـ بـمـثـلـ هـدـيـهـمـ ،ـ وـأـوـصـاـهـمـ بـلـازـمـةـ

ما هم عليهم من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة والاقتداء بالسلف الصالح والترك لعدثات الأمور ، وأمرهم بمحابية ما عليه جمهور الموام من اهتمام الشربية والاقبال على الدنيا . وعلم هو وصاحب أبسال أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها الا بهذا الطريق ، وأنها ان رفعت عنه الى يفاع الاستبصار اختل ما هي عليه ولم يمكنها أن تتحقق بدرجة السعداء . وهي ان دامت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالأمن وكانت من أصحاب اليدين . وأما السابقون فأولئك المقربون . ( يتذكر ابن طفيل هنا سورة الواقعة وما جاء فيها من تصنيف الناس يوم القيمة ) فودعاهم وانفصل عنهم وتلطخا في العود الى جزيرتهما . وطلب حي بن يقطان مقامه الكريم بالنحو الذي طلبه أولاً حتى عاد اليه واقتدى به أبسال وعبد الله بتلك الجزيرة حتى أتاهم اليقين .

تلك خلاصة رسالة « حي بن يقطان » . يقول المؤلف في ختام الرسالة : « ولم نخل مع ذلك ما أودعناه هذه الأوراق الياسرة من الأسرار عن حجاب رقيق وستر لطيف ينهمك سريعاً لن هو أهله ، ويتكاشف لم لا يستحق تجاوزه حتى لا يتمدها » .

وهذه اشارة واضحة الى أن المؤلف أراد أن يسلك طريق الرمز والتغطية ولو بعض الشيء فيما يقصد . فلا بد من الاستفهام في حل تلك الرموز . فهل رمز بعي الى العقل الانساني وبقطان الى الله ؟ وهل قصد لما سلف آنفأ في التقاء حي بن يقطان وأبسال واتفاقهما الى التقاء النظر المقلبي الفلسفى العرى والشرايع التي جاءت بها الرسل كما نوه بذلك من قبله الفارابي وابن سينا وكما أكدته ابن رشد أيضا ؟ أئم لا يدل اخلاق حي بن يقطان بين أهل الجزيرة الثانية على عجز جماهير الناس عن ادراك مقاصد الفلسفة وتجريدةاتها سواء أكانوا مؤمنين بالشرايع أم كانوا اعمى عن غaiاتها ؟ أو لا يشبه تفاوت أبسال وسلمان تفاوت أهل الباطن أصحاب التأويل وأهل الظاهر الذي يتمسكون بالنصوص ؟ كل ذلك جائز ، بل هو شديد الرجحان . ولكننا نظن مع ذلك أن ثمة أموراً كان يعتقدها المؤلف وأراد أن يدل عليها ويلوح بها من بعيد وهي تنويه بالفطرة السليمة وبالحكمة السديدة وتنديده بالمجتمع الذي كان

يعيش فيه ، كذلك فهمه لكنه الحياة وأصلها ولطبيعة الثواب والعقاب وما إلى ذلك .

ولكن طريقة الرمز تمنع القطع في الحكم ، لأن الرمز جَفَرُ السر ، يقول ما لا يقال بغيره . وهو كالقطعة الموسيقية لا تتعمل مقاصدها بالسماع مرة واحدة . بل تتجدد ايماءاتها وتزداد معانيها بتتجدد سماعها . ولا شك في أن زيادة الایضاح في رموز ابن طفيل تستدعي زيادة دراسة المقرر الذي عاش فيه والاطار الفكري للآراء والتلویحات من قبله ومن بعده . وربما كان بعض التلویحات في رموزه تبدو بصورة أجهز وأقوى في كتابات مواطنه الفيلسوف الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي الذي كان في سن العشرين حين مات ابن طفيل .

\* \* \*

قصة حي بن يقظان تدخل في نطاق ما صار يدعى في العصور الحديثة بالطوباوية وهو لفظ يقابل لفظ أو توبيا ويوتوبيا في اللغات الأجنبية . لا بد لنا من شرح أصول هذين اللفظين العربي والأجنبي .

الطوباوية أو الطوبوية ويستعمل بعض الكتاب لفظ الطوبائية مصدر صناعي من طوبي .

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم مرة واحدة في الآية ٢٩ من سورة الرعد « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » . جاء في تفسير « الكشاف » للزمخري : « طوبي مصدر من طاب كبشرى وزلفى . ومعنى طوبي لك أصبحت خيراً وطيبة . و محلها النصب أو الرفع كقولك طيباً لك وطيب لك ، وسلاماً لك وسلام لك ، والقراءة في قوله وحسن مآب بالرفع والنصب تدللك على محليها . والسلام في لهم للبيان مثلها في سقياً لك . والواو في طوبي منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كمونق وموسر . وقرآنكمكورأة الأعرابي طيبى لهم فكسر الطاء لتسلم « الياء » . قول الزمخشري : ان الواو في طوبي منقلبة عن الياء معناه أن الأصل طيبى . زدنا في الشرح لمزيدة الايضاح . على أن الرجوع إلى كتب اللغة يزيدنا تعرضاً لهذا اللفظ . ففي هذه الكتب ، الطوبي : الطيب ، وجمع الطيبة وهو من نوادر الجموع ، وتأنيث الأطيب . ومن معانيها السعادة والغبطة

والخير والخِيرَة . وجاء عن النبي ﷺ أن طوبى شجرة في الجنة وهو عَلَمٌ عليها . وقيل طوبى فعلى من الطيب والمعنى العيش الدائم الطيب . وقيل طوبى اسم الجنة بالهندية معربة عن توبي أو اسم الجنة بالعربية .

في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » ثلاثة نبوياً يبدأ بلفظ طوبى . أولها « طوبى للشام لأن أجمعه الملائكة باسطة أجنحتها عليه » أي لأن ملائكة البليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء تحفها وتحوطها بائزالبركات ودفع المهالك والمؤذيات . قال المهيتمي : « رجال رجال الصريح » .

هذا وللهفظ الذي تتبعناه وجدناه في الآرامية وال عبرانية و نظن أنه في سائر اللغات السامية وهو يدل على الخير والسعادة والهناء كما يدل على المجتمع الراafee الوداع المراافق بالهدوء والطمأنينة والسلامة .

أما اللفظ الأجنبي فأول من استعمله الكاتب القس الانكليزي توماس مور أو موروس *Morus* كما لَّأَن اسمه ( ١٤٧٨ - ١٥٣٥ ) وهو جزء من عنوان كتاب له ألقاه باللاتينية وهو *De optimo reipublicae statu deque nova insula Utopia* ألفه عام ١٥١٦ ولكن الكتاب شاع بعنوان يوتوبيا وترجم إلى الانكليزية عام ١٥٥١ . ومع أن الكتاب والعنوان كليهما باللاتينية فان المؤلف يقال انه صاغ أو تويبيا من اليونانية ( أو بمعنى لا ، و تويبيا بمعنى مكان ) فيكون لفظ أو تويبيا أو يوتوبيا منتهلاً مكان أو عديم المكان . وقد صور المؤلف حياة اجتماعية مثالية في جزيرة خيالية ( يوتوبيا ) يعيش سكانها في ظل نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي يكفل لهم المعاشرة ويقدم لهم ما يحتاجونه من طعام وسلح ويفرض على كلِّ منهم أداء عمل يدوى وهم سعداء هاندون لأنهم في جنة دنيوية . ومن مظاهر سعادتهم ازدراوهم للذهب وكنز المال واقتناه الشروقات .

وقد اصطنع العرب المترجمون العديرون المصدر الصناعي طوباوية للدلالة على ما يدل عليه اللفظ الأجنبي . وربما كان اللفظ العربي أفضل دلالة على المقصود وأكثر تفاؤلاً وأقرب فحوى من اللفظ الأجنبي الذي يدل على عدم وجود المكان .

بل نحن نذهب الى أن اللفظ العربي الوارد في اللغات السابقة :التي كانت معروفة لدى المثقفين في عصر النهضة الأوروبية ربما أوحى الى المؤلف الانكليزي باللفظ الذي صاغه من لفته لم يكتب كتابه بها . ثم انه يصعب على المؤلف أن يتخيّل مجتمعاً ويكتب فيه كتاباً ثائماً يمنع امكان تحقيقه في مكان ما . ومع ذلك غداً اللفظ الطوباوية أو اليوتوبيا يطلق على كل نظام مثالي لمجتمع انساني يتصوره مؤلف أو كاتب ويطمح الى تحقيقه أو يتمّنى حصوله . وانما يعمد الكاتب أو المؤلف الى تصور ذلك النظام ضيّقاً بالمجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه وتنديداً بحياة الناس وبؤسهم في المجتمع الراهن . فمثل هذه الكتب الفكرية أو الأدبية تصوّر لأحلام مؤلفيها وطموح الى تحقيق تلك الأحلام في عصورهم أو في العصور التالية . وفيه أيضاً نزوع الى التغيير الاجتماعي الانساني . من أشهر المؤلفات « جمهورية أفلاطون » ( ٤٢٨ - ٣٤٧ ق.م ) و « رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة » لفارابي ( ٩٥١ / ٣٣٩ - ٨٧٢ هـ / ٢٥٩ ) وكتاب « تدبیر المتّحد » لمحمد بن يحيى بن باجه ( توفي عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٩ ) الذي تأثّر به ابن طفيل كما يمكن عدّ « رسائل اخوان الصفا » بما قصده من اصلاح الفرد والمجتمع من الطوباويات . وثمة طوباوية غريبة تختلف عن جميع ما سلف فهي نفسية خيالية صرف ينبع منها على طبيعتها هذه ولا تطمع الى التحقّق لأنّها متحقّقة في عالم الروح والخيال . انها « أرض السمسمة » التي يورد الشیخ محبی الدین بن عربی ( ١١٦٥ هـ / ٦٢٨ - ١٢٤٠ ) وصفها في كتابه المشهور « الفتوحات المکیة » : « وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره ويبهر العقول أمره » . ينقل المؤلف قول بعض المارفین : « لما دخلت هذه الأرض رأيت فيها أرضاً كلها مسك عطر لو شمه أحد منا في هذه الدنيا لهلك لقوه رائحته تمتد ما شاء الله أن تمتد . ودخلت في هذه الأرض أرضاً من الذهب الأحمر اللين فيها أشجار كلها ذهب وثمرها ذهب فياخذ الرجل التفاحة أو غيرها من الثمر فياكلها فيجد من لذة طعمها وحسن رائحتها ونعيمتها ما لا يصفه واصف تقصير فاكهة الجنة عنها فكيف فاكهة الدنيا » . ثم يقول المؤلف : « وإذا نظرت الى نسائها ترى أن النساء الكائنات في الجنة من العور بالنسبة اليهن كسائلنا من البشر بالنسبة الى العور في الجنان » ثم يقول : « وكل

ما أحاله العقل بدليله عندنا وجدناه في هذه الأرض ممكناً قد وقع » . وتدكرنا  
 الجملة الأخيرة ما جاء في المشهد الأخير من رواية « فاوست » الثانية للشاعر  
 الألماني الشهير غوتي يقول ما ترجمته: « المستحيل على الوصف يقع هنا  
 بالفعل » ولقد أعلى الشيخ محبي الدين شأن الخيال وجعله ركناً عظيماً من  
 أركان المعرفة . يقول في الباب السابع والسبعين ومائة في معرفة مقام المعرفة  
 من الفتوحات المكية: « ومن لا يعرف مرتبة الخيال فلا معرفة له جملة واحدة . وهذا  
 الركن من المعرفة اذا لم يحصل للعارفين بما عندهم من المعرفة رائحة » ( ج ٢ من  
 ٢١٣ دار الكتب العربية ) . ولا عجب عندئذ أن يكون الخيال مصنعاً للطرباويات  
 ومزرعة لا حدود لها ينمو فيها مختلف العالم ممكنة ومتقدرة . لكن المجيب في  
 هذا أن السمسمة بزرة صغيرة فضلت عن الطينة التي خلق منها سبحانه وتعانى  
 سيدنا آدم . فسوى من هذه الفضلة النخلة . فهي بهذا الاعتبار عمتنا . وبقي  
 من طين هذه الفضلة مقدار ضئيل يعادل جرم السمسمة فصنع منه أراضي واسعة  
 وعوالم لا تکاد يكون لها حدود سميت أرض السمسمة . ذكرنا بعض ملامحها  
 آنفاً . الفيلسوف الفرنسي العدید غاستون بشلار ( ١٨٨٤ - ١٩٦٢ ) لم  
 يطلع على ما كتبه ابن عربي . ولمKen ديج بعثاً طريفاً في كتابه « شاعرية  
 المكان » LA POETIQUE DE L'ESPACE « بعنوان الرسم المفترض la miniature  
 أو التمنمة أورد فيه أمثلة من كتب مؤلفين أمثال شارل نوديي  
 Charles Nodier وغيره تفتحت أخيلتهم عن حالات وغرائب لا تجد لها تحقيقاً  
 إلا في عالم الخيال . ولو اطلع بشلار على ما كتبه مؤلف الفتوحات لأنفلي فيه ضالة  
 أي ضالة لموضوعه الطريف . وانما استطردنا هذا الاستطراد لتشير الى غنى  
 التراث العربي الاسلامي الذي يحتاج الى التنقيب عن الجواهر الفريدة .

ومن الطرباويات « مدينة الشمس » للمفكر الايطالي كمبانيلا ( ١٥٦٨ -  
 ١٦٣٩ ) نشرها باللاتينية عام ( ١٦٢٢ ) . ان هذا المفكر تصور مدينة فاضلة في  
 مدينة تيرو بانا التي هي اليوم جزيرة سيلان قريبة من خط الاستواء كأنه  
 يتبع مؤلف حي بن يقطان . وهو يذكر في كتابه جمهورية أفلاطتون ويتوبيا  
 توماس موروس . ومن تلك المؤلفات « أطلنطس الجديدة » لفرنسيس بيكون  
 ( ١٥٦٠ - ١٦٢٦ ) كتبها بالانكليزية حوالي ١٦٢١ ، « والمرحلة الى ايكاريا »

للمفكر الفرنسي ايتين كابي ( ١٧٨٨ - ١٨٥٦ ) نشرها عام ١٨٤٥ وهو من ممثلي الاشتراكية الطوباوية ومن رواد الاشتراكية الحديثة . حاول أن يؤمن مجتمعاً اشتراكياً مثالياً فسافر هو وأتباعه إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأنشأ على أرض منها ذلك المجتمع فنجح أول الأمر ثم عصفت به وبأتباعه نزاعات الغلاف التي أدت إلى الإخفاقة . على أن أمثاله الذين تقدموه وحلموا بالاصلاح أصابهم الإخفاق أيضاً . أما رسائل أخوان الصفا فقد كتم أصحابها أسماءهم . ولقد مات ابن باجه مسموماً . وقد ترجمت « أطلنطيس الجديدة » إلى اللاتينية ونشرت عام ١٦٢٧ بعد وفاة بيكون ، وكان هذا قد أتاه في حياته بالرشوة والاختلاس مال الدولة . و تعرض كمبانيا لصروف التعذيب وللسجن الطويل وللنفي . وحكم على سوروس بالإعدام . وأخفق أفالاطون أخفاقاً ذريعاً في سقلية حين أنكر الفساد المتفشي في بلاد ملكها وأعرب عن آرائه الاصلاحية . فاعتقل وبيع رقيقاً ثم حرره مولاه .

على أنه قد يطلق لفظ الطوباوية بشيء من الزراية على مثل سياسية واجتماعية مشوقة وجذابة ولكن يتمذر تحقيقها على صعيد الواقع لبعدها من طبيعة الإنسان وأحوال حياته . ومع ذلك فإن كثيراً من آراء المفكرين والمفلاسفة وسواعدهم المستقبلية كانت بداية لاصدارات اجتماعية وتغييرات سياسية مهمة .

نلاحظ أن تلك الرؤى والأراء التي تتلخص نحو عالم مثالي وحياة انسانية فضلى كانت تظهر في أبان الفتنة والقلق الاجتماعي والأزمات السياسية . فكان المفلاسفة يلجمون إلى تدبّج المؤلفات التي تتألق بالخلال لهم المتوجهة ورؤاهم المتوجهة ، وهم يطمحون إلى التغيير والاصلاح كما سلف ويتصورون الناس في حياتهم الاجتماعية المثلثي .

وهكذا يمكن أن نعد حي بن يقطان من الكتب الطوباوية . ولكنها على خلاف جميع الكتب السالفة طوباوية فردية . فهي لا تتحدث عن نظام اجتماعي انساني وإنما تعرض حياة طفل إنساني عاش منفرداً واستطاع أن تكون معيشته بعد الجهد مثالية تعتمد على الذكاء والمعقل كما تعتمد على الاكتفاء الذاتي ويصل

فيها بعد لأي ومشقة الى أعلى درجة يستطيع مفكر متوحد أن يصل اليها .  
وبهذا الاعتبار تختلف عن جميع المؤلفات الطوباوية .

يقول أرسطو في حقيقة الانسان : انه حيوان مدنى أي اجتماعي ، ولا يمكن تصور كائن يكتفى بذاته ولا يحتاج الى غيره ولا يشارك في مجتمع الا أن يكون وحشا من الوحش أو الها من الآلهة . ومع ذلك فحي قد استطاع أن يفعل ذلك بعد أن رئته أمه الظبية ويتقرب في مسالك حياته وتعلييات تفكيره وأرائه في الغير والعبادة والتجرد من صفات الآلهة .

ان القسم الأخير من رسالة حي بين يقطان ذو شأن كالقسم الأول منها .  
شعر أن ابن طفيل لم يكن راضيا عن المجتمع الذي كان يعيش فيه ولا عن غالبية الناس الذين كانوا يزفونه . يقول في بطله حي : انه ظن « أن الناس كلهم ذنو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس عازمة ولم يكن يدرى ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

ولما جاء حي مع أبسال الى المجزية الثانية ورأى ما هم فيه من الضلال أشفق عليهم وطبع أن تكون نجاتهم على يديه . فتصفح طبقاتهم ورأى « أن كل حزب بما لديهم فرحون . وقد اتخذوا الله لهم هواهم ومعبودهم شهواتهم وتهالكوا في جمع حطام الدنيا . الهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر . لا تنبع منهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ، ولا يزدادون بالجدل الا اصرارا . وأما الحكمة فلا سبيل لهم اليها ولا حظ لهم منها . وقد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ». ( مورة البقرة الآية ٧ )

وفحوى ذلك أن الدين الذي انتعلوه لم ينفذ الى قلوبهم ولم يسطع نوره في أذهانهم وأن « حظ أكثر الجمورو من الانتفاع بالشريعة انما هو في حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به ، وأنه لا يفوز منهم بالسعادة الأخروية الا الشاذ النادر . لقد فهم « أحوال الناس وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق » فيئس من هدايتهم كما يشن مؤلف القصة من أهل زمانه .

أيوقف ابن طفيل عند اليأس أم يجد منفذًا آخر للتأثير في الناس بعد أن لخص لهم في القسم الأول من رسالته فضة المعرفة الإنسانية . لا شيء يفيده في رأيه سوى الفلسفة والحكمة ومخاطبة فطرة الإنسان السليمه وضميره المعنى والدعوة إلى النظر والتأمل والعد من التهافت على جمع المال وكنز الذهب وارضاء الشهوات وسوى الحث على الرقي شيئاً فشيئاً بالتجدد والماكاشة والمشاهدة . ولتكن تلك الدعوة والمخاطبة على شكل قصة رمزية لا باساده النصائح وتقديم الموعظ . فالقصة تنويه بالحكمة وبانعام النظر في أغراض الشريعة البعيدة الموازية لأهداف الحكم في ترقية النفس وتحسين المجتمع .

\* \* \*

عالج الباحثون تأثير رسالة حي بن يقطان في الأدب والأفكار الأوروبية . وذلك أنها ترجمت إلى لغات عديدة . ترجمتها إلى اللغة البربرية موسى التربوني عام ١٣٤٩ . بعد حين ترجمها إلى الإنكليزية ونشرها مع النص العربي ادوارد بوكوك عام ١٦٧١ . ثم ترجمت إلى الهولندية عام ١٦٧٢ باشراف الفيلسوف الهولندي اسبينوزا ( ١٦٢٢ - ١٦٧٧ ) . ثم ترجمها عن اللاتينية إلى الإنكليزية جورج كيث عام ١٦٧٤ . وترجمها مرة ثانية عن اللاتينية إلى الإنكليزية جورج أشويل عام ١٦٨٦ . وترجمها ثالثة عن العربية إلى الإنكليزية سيمون أوكلி عام ١٧٠٨ وكان أستاذًا لغة العربية بجامعة كمبرidge . ثم توالت الترجمات إلى مختلف اللغات الأوروبية . ومن أجودها ترجمة المستشرق الفرنسي ليون غوتيي لها عام ١٩٠٠ إلى الفرنسية . ثم أعجب الفلسفه والمفكرون الأوروبيون بها ورجعوا ولا سيما الذين أشادوا بالحال الطبيعية للإنسان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وخاصة الكاتب الفرنسي جان جاك روسو . ثم ظهرت طبعاتها العربية متأخرة . ومن أفضل هذه الطبعات ما نشره الدكتوران جميل صليبا وكامل عياد مع مقدمة ضافية عام ١٩٣٥ بدمشق . ثم حققتها أحمد أمين ونشرها في دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٢ ومعها رسالتان احدهما لابن سينا بنفس العنوان والأخرى للشهيرودي مقتول حلب بعنوان « الغربة الغربية » وترادفت طبعاتها في دمشق وبيروت والقاهرة

ولا غرو بعد نشر ترجماتها في القرن السابع عشر بأوربة أن يكون لها تأثير واسع وأن يستفيد من شكلها القصصي واتجاهها الروحي وسلامتها ويستوحىها مؤلفون ذاع صيتهم وشاعت كتبهم . عشاق الأدب المقارن يهمهم استبانة هذا التأثير . وبصرف النظر عن الترجمات وتتبع التأثير والتدقيق في ذلك ، الأدب فقد كانت اللغة العربية والثقافة العربية رائجتين بين العلماء في بلاد الغرب . فلا عجب أن يؤلف الأب اليسوعي الإسباني بلتازار غراياثان إيه موراليس ( ١٦٠١ - ١٦٥٨ ) رواية بعنوان « النقاد El Criticon » نشر الجزء الأول منها عام ١٦٥١ والثاني عام ١٦٥٣ والثالث عام ١٦٥٧ وكل جزء يقابل أحدي مراحل العمر الثلاث : الربيع يضم الطفولة والصبا ، والخريف يشمل سن النضج ، والشتاء يوازي الهرم . ومثل هذا التقسيم يعكى تقسيم ابن طفيل لراحل حي بن يقطان في تدرج معارفه . وفي الجزء الأول مشابه لسيره حي أيضاً . قرنيليو يركب متن الأسفار بعثاً عن زوجته المخطوفة . و تتعرض السفينة التي ركبها للفرق قريباً من ساحل جزيرة سانت هيلانة . وينقذه فتى كان يعيش هناك عيشة العال الطبيعي وهو يجهل أصله وأمه وأباه . ولا يتكلم بلغه ما . فلقته لفتة وعلمه وسماه أندرنيوس وغدوا يتنقلان في أنحاء العالم ويواجهان الظروف المختلفة حسب مراحل العمر .

واثمة رواية بلغت أقصى الشهرة في العالم كله وهي روبنسون كروزو باللغة الانكليزية مؤلفها دانيال ديفو ( ١٦٦٠ - ١٧٣١ ) ظهرت عام ١٧١٩ بعد شيوخ ترجمات رسالة حي بن يقطان اللاتينية والإنكليزية . وهي وإن شبها رسالة حي في بعض جوانبها تختلف عنها كسابقتها « النقاد » في الاضافة وفي تطوير التفاصيل . وقد غدت أصلاً في اللغة الانكليزية من أصول الرواية الحديثة التي تتوجه نحو وصف الحياة الواقعية وإن كانت تخيلاً مستفاداً من الرسالة العربية ومن قصة تروي طوراً من حياة الملحن الاسكتلندي المكندر سلكيك .

وقد كثر الباحثون في بيان هذا التأثير وأمثاله مؤكدين له أو متعرجين . وأفرد له السيد حسن محمد عباس كتاباً في الدراسات المقارنة بعنوان « حي بن يقطان وروبنسون كروزو » يجدر الرجوع إليه عند تقصي هذا التأثير .

يرى علماء الاجتماع أن المجتمع الإنساني وجد طفرة واحدة لأن الفرد منبني البشر يتغدر عليه أن يعيش متوحداً على الأرض . ويتصور بعض المفكرين أن آدم أباً البشر عليه السلام رمز إلى ذلك المجتمع الإنساني الأول . نحن هنا لا نناقش هذه الدعوى المحفوظة بالغيب ولكننا نشير إليها جملة لكي ننتقل إلى تخيل كاتب لطفل إنساني منبني نوعه تائه أو ممندوف في الطبيعة كيف يستطيع مغالبة المعيب العارجي وحده مع ما قد يسعفه من رأي أنتي حيوان له .

رسالة هي بن يقطان رمزية . ويجوز في الرمز ما لا يمكن أن يتحقق في الواقع . ولكن قصة روينسون كروزو تدعى الواقعية في أحاديثها وأسلوب كتابتها . ويدرك الباحثون كما سلف في الأصول التي استقى منها ديفو روایته روينسون كروزو قصة البحار الكسندر سلکریک كما مر آنفاً وقد وقع بينه وبين قبطان السفينة شجار فأنزله القبطان في أحدى جزر خوان فيرننديث الغالية في المحيط الهادئ على مقربة من ساحل تشيلي عام ١٧٠٥ مع صندوق فيه ملابس وفراش وبندقية وبارود ورصاص . ثم التقى بعد أربع سنوات وأربعة أشهر القبطان روجرز فوجده في حالة زرية جداً قريبة من حالة البهائم لا يكاد يبيّن ، يتلفظ بأنصاف الكلمات ، فكتب القبطان روجرز قصته ونشرها عام ١٧١٢ .

وقد ذكرنا قبلًا كلام أرسطو في حال الفرد الذي يعيش متوحشاً حتى أبعد منه صفة الإنسان . وقد درس ناقد من نقاد الرواية الانكليز بامعان أدب ديفو وهو إيان واط وكتب منكراً على المؤلف دعوى نجاح روينسون كروزو في مقامه بتلك الجزيرة الغالية .

نقل ما ترجمه عنه السيد حسن عمود عباس في كتابه « هي بن يقطان وروينسون كروزو » : « في الجزيرة المذكورة يحوّل روينسون كروزو حالة العزلة إلى النجاح . وهذا زيف فاضح . فالمتبذلون الآخرون منهم سلکریک نموذج ديفو الرئيسي كانوا قد انحدروا إلى حالة من البدائية التامة في غضون سنوات قليلة . لقد كانوا يتضائلون بسبب تأثير البيئة والخوف المطلق إلى مستوى الحيوانات . وفي بعض الحالات الموثق بها كانوا يفقدون القدرة على

الكلام ، أو يصابون بالجنون ، أو يموتون جوعاً . وهناك كتاب لا بد أن ديفو كان قد قرأه وهو « رحلات وأسفارجي البرت دي مانلسسو » يروي لنا حادثتين مماثلتين : الأولى حادثة الفرنسي الذي مزق ثيابه اثر نوبة من نوبات الجنون جاءته في أعقاب وجبة غذاء من لحم سلحافة نيء وذلك بمد عامين من اقامته في جزيرة موريشيوس . والثانية حادثة البحار الهولندي في جزيرة سانت هيلانة الذي أخرج جثة زميله من القبر واتجه الى البحر وهو يرتدي الكفن » .

ويعلق الباحث المترجم على ذلك : « أن ما ذكره واطل بين مدى الصعوبة التي كانت تواجه ديفو وهو يحاول وضع بطل روايته في جزيرة مهجورة لما يزيد على ثمانية وعشرين عاماً ثم يعيده بعد ذلك الى الوطن مكتمل المعلم والبدن ، بل اذا تجربة فريدة في غناها . وهنالرجح أن تكون قصة « حي بن يقطان » هي المثال الوحيد والنموذج الأمثل الذي حدا حذوه ديفو واستلهمه امكانية النجاح ، خصوصاً أن « حي بن يقطان » كانت دون سواها من الاعمال الفكرية والأدبية تقدم تجربة متكاملة لانسان عاش حياة عزلة تامة وخرج بتجربة متكاملة فريدة في غناها ، كما تحقق لروبنسون كروزو من بعد » .

هذا فضلاً عن بعض التفاصيل في رواية روبنسون كروزو تتبعها السيد عباس لبيان وجوه الشبه وأشكال التأثير الخفية مثل خلو القصتين من وجود المرأة بل من مجرد التفكير فيها ، ومن تصوير كل منها لشخص هبط الجزيرة ومن تعليم أحدهما الآخر لفته التي يتكلم بها ، ومن أمور أخرى يستطيع القارئ أن يتأملها في مقارنة القصتين البدعتين اللتين كأكثر الطواباويات تجري أحدهما في جزيرة نائية ، مبتعدة عن المجتمعات الإنسانية .

لقد تفتّق الخيال الانساني عن أساطير قديمة لا يعدم بعضها شبهها بقصة « حي بن يقطان » مثل أسطورة الصنم والملك وابنته اذ عشر على تمثال عليه كتابة تروي سيرة صاحب التمثال . وهي أن والدته كانت ابنة ملك قوي جبار تعلقت بابن الوزير الأكبر وحملت منه فخشيت افتضاحها . فلما ولدته صنعت

له صندوقاً وضعته فيه وألقته في اليم . فحمله الموج حتى ألقاه على شاطئ جزيرة خصبة لم تطأها قدماء انسان . فاللتقطته ظبية وأرضعته ورئته ونما الطفل وجعل يتدير أمور معاشه ويتفكر في الحياة والكون ثم ساقت الظرف والده ابن الوزير إلى الجزيرة ، فلقته اللغة والمعارف ثم رجعا معا إلى الجزيرة المعمورة .

بل ان خيال الانسان تصور آلهة متعددة في أوهامه وجعل ابني الاله مارس وهم روميولوس وريموس في الأساطير الرومانية يُلقي بهما وهم طفلاً في نهر تiber بایطاليا ، فقد فهموا الموج الى الصفة وأرضعهما ذئبة حتى نموا وووجهما راع ، ثم كبرا وشبّا عن الطوق ورغبا في أن يبنيا بدأاً تخليداً لنجاتهما . وتزاينا وقتل روميولوس أخيه وشاد روما التي حملت اسمه وكان أول ملوكها !

ولم ينقطع خيال الانسان عن تصوير الانسان الوحش حتى في العصر الحاضر . وفي حكايات « طرزان » تهافتيل تصوّر حياته في الطبيعة مع الوحش . ولكن ذلك كله في جانب ورسالة حي بن يقطان الفلسفية المتقدمة في جانب آخر .

\* \* \*

لا غرو لمثل ابن طفيل وقد بلغ شاؤاً في الطب والفلسفة ونضع المعرفة أن يكون مستهدفاً لسؤالات الطلاب والأتراب عن حقيقة الانسان و شأنه في الحياة وأصله ومصيره في الكون . والبحث في هذه الأمور من شأن كل فلسفة أصيلة .

ابو بكر بن طفيل فيلسوف وصل الى الصفاء واليقين . ولا عجب أن يكون معرضاً لمثل تلك التساؤلات . ولم يكن له في طور نضجه الروحي الا أن يبسط ثراءه الفكري و معارفه المتنوعة في رسالة معبوكة العناصر محكمة البيان متزنة الأداء ، تارة بالعبارة وطوراً بالاشارة . وقد مهد لرسالته بأن سائلاً صفيما حميأ سأله أن يبيث اليه ما يمكنه من أسرار الحكم المشرقية التي ذكرها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا . ويرى ابن طفيل « أن من أراد العق الذي لا جمجمة فيه فليله بطلبها والبعد في اقتنائها »، وينوه بأن من وصل اليها وانتهى الى حد من حدودها لا يستطيع أن يكتسم أمرها أو يغافل سرها بل يعترفه من

الطرب والنشاط والمرح والابساط مما يحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل . وذلك مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان . فان كان السؤال عما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق والحضور في طور الولاية فهذا يتعدى اثباته على حقيقة أمره اذ هو حال من الكشف . ومع ذلك فقد يكتفي السائل بطلب التعريف بهذه الأمر على طريقة أهل النظر . وهذا شيء يحتمل أن تتوضع فيه الكتب وتتصرف به العبارات وهو أشد من الكبريت الأحمر .

ثم يعرض ابن طفيل في مقدمة رسالته أسماء بعض الفلاسفة من حاول اقتحام هذا الموضوع ولكن لم يصل إلى مبتغاه ولا تهيا له الكمال والاحكام بسبب من الأسباب ، يذكر منهم معاصره وما اطنه وسميه أبو بكر بن باجة الذي يعجب به ويشيد بكتابيه « في النفس » و « تدبير الموحد » ، وأبا علي الفارابي في « رسالة أهل المدينة الفاضلة » و « شرح كتاب الأخلاق » ، وأبا علي ابن سينا الذي تكفل بالتعبير عما في كتب أرسطو طاليس سالكاً طريق فلسفته في كتاب « الشفاء » ولكن كان أكثر احسانافي كتابه « الفلسفة المشرقة » ، كما يذكر أبو حامد الغزالى ويراه يتغدى في كتبه مواقف متفاوتة بحسب مخاطبته للجمهور . فهو يربط في موضع ويحل في آخر ، ويذكر باشيء ثم يتحولها ، وأكثر تعليمه رمز وإشارة لا ينتفع بها الا من كان معداً لفهمها فائق المفطرة . ويرى ابن طفيل أن الشيخ أبو حامد من وصل تلك المواصل الشريفة ولكن كتبه المضنون بها المشتملة على علم الماكاشفة لم تصل إلى الأندلس . ويدرك ابن ط菲尔 أنه مع ذلك هو نفسه استفاد من كتب أولئك الفلاسفة ومن الآراء التي نبغت في زمانه حتى استقام له الحق أولاً بطريق البحث والنظر ثم وجد الذوق اليسيير بالمشاهدة فرأى نفسه أهلاً لكتابه الرسالة التي يتحف سائله بما عنده فيها . ثم انه يشير الى أنه يعتمد أسماء حي بن يقطان وأبسال وسلامان وقد ورد الاسم الأول عنوان قصة لابن سينا وورد الآخران في بعض كتبه الأخرى يعتمدها رموزاً دون مضامين ما تدل عليه في تلك الكتب لتقصير تلك المضامين عن الشأو المراد .

أما الشأو المراد فكما رأيت أيها القارئ الكريم آنفاً وأول الأمر هو بيان أسرار العكمة المشرقة . وذلك أن علماء الاسلام ومفكريه قرروا أن السعادة

العظمى والمرتبة العليا للانسان هي معرفة الماصنع بما له من صفات الكمال والتنزه عن النقصان بما صدر عنه من الآثار والأفعال في الشأة الأولى وفي الآخرة ، وبالجملة معرفة المبدأ والمعاد . والطريق الى هذه المعرفة من وجهين : أحدهما طريقة أهل النظر والاستدلال ، وثانيهما طريقة أهل الرياضة والمجاهدات . السالكون للطريقة الأولى ان التزموا ملةً من ملل الأنبياء عليهم السلام فهم المتكلمون ، والا فهم الحكماء المشاؤون أصحاب النزعة العقلية الجارون على نسق فلسفة أرسطو .

والسالكون للطريقة الثانية ان وافقوا في رياضتهم ومجاهداتهم أحكام الشرع فهم الصوفية ، والا فهم أهل الحكمة المشرقة أو الحكماء الاشراقيون .

وهكذا تكون الحكمة المشرقة أو حكمة الاشراق من الفلسفة بمنزلة التصوف من العلوم الاسلامية ، كما أن الحكمة الطبيعية الالهية منها بمنزلة عدم الكلام من تلك العلوم الاسلامية .

أراد ابن طفيل أن يجعل حي بن يقطان وهو متوحد في الجزيرة يسلك طريقة أهل النظر والاستدلال شيئاً فشيئاً ويترقى بقوته النظرية حتى يبلغ أعلى مرتبة فيها . ثم يشعر بقصورها بعض الشيء فيجعله المؤلف يسلك طريقة أهل الرياضة والمجاهدات ليشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويدرك «أن ليس ثم شيء إلا ذات الحق وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها» ويعلم أن ذلك من قبيل التشبيه وأن ما وصل إليه يعجز اللسان والبيان عن وصفه وايضاحه . ثم ينظر الى جميع الأشياء والكائنات في اشراق نور الحق .

وفي هذا غاية الفلسفة الصغيرة . ثم يشوق المؤلف القارئ بما يسوقه من مزايا الفطرة السليمة ونقاؤة الضمير وحب الغير لجميع الكائنات ومن بلوغ أعلى درجات البطة والسعادة في هذا السبيل ، ليعرّج بعد ذلك على ما في المجتمع الانساني من زيف وغرور وضلال ومن تهافت على جمع المال وحرص على المأرب الفردية والشهوات الشخصية . وذلك بجعل وأفلاط يعتمدها من الشريعة لينقد غالبية أحوال الناس المتدينين الذين لم يتفهموا غاية الملة العظيمة

ولم يستجيبوا لنداء القيم الرفيعة . بل ان الذي وصل بسلامة فطرته وطيب سريرته الى ما وصل اليه حيٌّ ويدري أسرار الدين وغاياته وفعوى الحكمة .  
حقيقة أن يسبغ عليه صفة الولاية كما يتصورها علماء الدين .

عددنا آنفاً « حي بن يقظان » في الطوباويات الفكرية التي تقصد الى صلاح الفرد والمجتمع . انها طوباوية الفرد المتوحد الى جانب الطوباويات الاجتماعية المتعددة . ومن الطبيعي في تاريخ الفكر أن تبتعد تلك الطوباويات التي تتصدر الاصلاح وتتلاّب بالأمل نقائض لها وأضداداً . فينهض ملئون مرموقون ينقمون ما في المجتمعات من تقدم ماديٍّ هائل الى جانب « التسفس والتعميم والطغيان » فيصورون تطور هذه المجتمعات في المستقبل الى نظم جماعية محكمة . الاعداد يسخرون منها باسمين أو حانقين .

هل نذكر في المصور العديدة التي طفى فيها الاتجاه المادي واتسعت سيطرة الحكومات الصارمة كتاب « العالم الطريف » أشهر مؤلفات الكاتب الانكليزي الدوس هكسلي ( ١٨٩٤ - ١٩٦٣ ) الذي نشره عام ١٩٣٢ .

هو يوتوبيا مستقبلية تقنية متشائمة . فهو اذن يوتوبيا عكسية أو مضادة . يغافل المؤلف على حياة الناس في المستقبل من سيطرة العلم في عالم جديد هو عالم المقاير والآلات يزول فيه الأدب والشعر والفن والدين . كل شيء فيه آلي مخطط له ومرسوم أو محفوظ في قوارير . لا حاجة الى الزواج للنساء لأن الأجيال تتكون في القوارير بطريقة علمية لا في الأرحام . والأطفال الناشئة طبقات يُعدُّ تكوينهم بمقتضى العاجة اعداداً دقيناً حسب كميات الاكسجين التي تبذل لكل طبقة . هو عالم ينكر الفردية . شعاره الجماعة والتشابه والاستقرار يكفي فيه أن تضفت على زر أو تدير مقبضاً لكي تناول ما تريد . الكتاب في شكل رواية ينقد حياة الانسان العديدة . وهو سلبي يهدم ولا يبني .

أم نذكر كتاب « ١٩٨٤ » للمؤلف الانكليزي جورج أورويل ( ١٩٠٥ - ١٩٥٠ ) نشره عام ١٩٤٩ وهوأشد اكتئاماً من « العالم الطريف » ، شعارات العالم المُقبل عنده ثلاثة . وهي من الغرائب ولكنها شعارات العالم المُقبل : العرب هي السلم . والحرية هي العبودية . والجهل هو القوة .

فالكتاب نقد مريولافع وساخر أي ساخر لنظام الحكم المطلق وللسبيطة  
السياسية الصارمة التي تتحكم في جميع مظاهر الأمة وطاقاتها المنتجة .

لم يكن لنا بد في سياق حديثنا عن طوباويه ابن طفيل من أن نستطرد هذا الاستطراد الذي يبرز عبقرية ابن طفيل حين يلح في رسالته على سلامة الفطرة وحرية الفكر . بيد أن ثمة شؤونا أخرى تزيد في ابراز قيمة هذه الرسالة .

\* \* \*

عاش ابن طفيل في صدر دولة الموحدين كما سلف في باكورة هذا العدّيـث .  
دولة الموحدين قامت على أنقاض دولة المرابطين . أنشأها أبو عبد الله بن تومرت  
عام ١١٢٨/٥١٥ وهو من قبائل المصمودة البربرية . ولما توفي عام ١١٣٠/٥٢٤  
تلاه على رأس المصامدة صاحبه القائد المغلص عبد المؤمن بن علي الكومي .  
وكومة قبيلة بربرية . أو هو من نسل قيس عيلان بن مضر وولدي في قبيلة كومة  
كما كان يقول . وتلاه أبناؤه وخلفاؤهم حتى سنة ٦٦٨/١٢٦٩ . فاستمرت  
الدولة في الحكم منذ زمن عبد المؤمن إلى نهايتها نحو مائة وخمسين سنة .

ومن أهم ملوكها الذين كانوا يتسمون بأمراء المؤمنين أبو يعقوب  
يوسف الأول بن عبد المؤمن الذي عاش ابن طفيل في كنته وبلاطه طبيباً وزيراً  
ونديماً ومستشاراً .

كانت أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين مختلة اختلالاً مفرطاً .  
قام أعيان الجزيرة فاستبد كل منهم بضبط بلده . وكانت الجلالة تتquin  
فرص ضعف المسلمين وتواكلهم وتنازعهم وتخاذلهم لانتزاع أطراف البلاد  
المجاورة لهم شيئاً فشيئاً . وكان عبد المؤمن قد أرسل عام ١١٤٣/٥٢٨ إلى  
الأندلس جيشاً سيطر به في غضون خمس سنوات على الملك التي كانت بأيدي  
العرب . ثم اتجه نحو الشرق وبسط نفوذه على سواحل إفريقيـة المتدة من  
حدود مصر إلى المعيط الأطلسي .

وكانت نشأت في الأندلس من قبل حضارة عربية إسلامية ازدهرت وازدهرت  
وقل مثيلها جعلت إسبانيا في طليعة بلاد العمورة عامة والبلاد الأوروبية خاصة .

فقد احتضر العرب قنوات الري ودعموا الزراعة والاقتصاد وعملوا على تمتين أنواع الصناعة المتأحة في ذلك العصر ونشطوا العلوم بجميع أصنافها وحفروا الناس من جميع التعلق والطبقات على ورود مناهلهما المترعة العذبة ، كما احتفلوا خاصة بالهندسة والعمارة والفلكل إلى جانب الفنون . كانت الأندلس تتلاً أصواتها الفريدة فتصل سناها إلى قصي الجهات وتبلغ أخبارها بعيد الأماكن . وليس غريباً أن يُسرع أبناؤها بما بلغته من جمال ورفعة وطيب عيش ورغد حياة . يقول ابن خفاجة ١٠٥٨/٤٥٠ - ٥٣٣/١١٢٨ يخاطب أهلها بهذه الأبيات :

يا أهل أندلس الله دركم  
ماء وظل وأنهار وأشجار  
ما جنة الغلد إلا في دياركم  
ولو تخيرت هندي كنت اختار  
فليس تدخلن بعد الجنة النار  
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقرا

ولكن هذه الجنة مال سكانها إلى النعيم وأخلدوا إلى الترف وركنوا إلى التغاذل ثم تبع ذلك التنازع والشقاوة والاستئثار وقلة التسلل على حين كان الجلالقة يتمتعون بذلك النعيم ويتعلمون الصنائع المدنية والعسكرية ويتکاثرون بسبب متساهم الثقافى والمعاشى الذى كان أدنى من مستوى المسلمين كذلك تسرّب خلل وتشتت في آراء العلماء الذين كانوا يتقدّرون من الولاة والملوك ويوجّون إليهم باتجاهاتهم الدينية وبتضييق الأمر على غيرهم . لقد عمل المراطبون على إذاعة مذهب الإمام مالك في البلاد ، وجاء الموحدون فعملوا على معهود مذهب مالك وإزالته من المغرب مرّة واحدة واهتموا حيناً بعلم الكلام ، ثم اتجه الاهتمام نحو الاقتصار على الأخذ بالكتاب والسنّة والا بتعاد عن علم المفروع جملة نظراً لتنوع السائل وتشعبها . وبعد تقرّيب العلماء وال فلاسفة في زمان أبي يعقوب يوسف الأول تغير الأمر في زمن خلفه أبي يوسف يعقوب الذي تولى الحكم بين ١١٤٨/٥٨٠ و ١١٩٩/٥٩٥ فتنكر للfilosophy ولأهل الرأي ووّقت في زمانه محنّة ابن رشد إذ أبعد من قرطبة شر إبعاد بل أمر الملك باحرراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وعلم الهيئة . هذا كله إلى زيادة قوة الجلالقة وتربيتهم ببلاد الأندلس . لقد كانت جيوش الفرنجة تتألف من بعض المسلمين ، وكانت جيوش المسلمين تتّألف من بعض الفرنجة . فلم

يُكَنْ هُنَالِكَ إِلَّا مَنَافِعُ فَرْدِيَّةٍ عَاجِلَةٍ وَلَهَا ثُوَرَاءُ الْمَالِ وَالْذَّهَبِ وَحِرْصٌ عَلَى التَّمَتُّعِ  
بِأَسْبَابِ الرِّفَاهِيَّةِ وَالْمَدْنِيَّةِ ٠ وَكَانَ الْيَهُودُ يَمْلَأُونَ الْمُسْلِمِينَ لَأَنْ هُؤُلَاءِ كَانُوا  
حَمَاتِهِمْ وَمُعْلِمِيهِمْ ٠

يُقُولُ الْمَرَاكِشِيُّ فِي كِتَابِ «الْمَجْبُ»: «إِنَّمَا الْيَهُودَ عِنْدَنَا يَظْهَرُونَ إِلَيْنَا  
وَيَصْلُونَ فِي الْمَسَاجِدِ وَيَقْرَئُونَ أَوْلَادَهُمُ الْقُرْآنَ جَارِينَ عَلَى مُلْتَنَا وَسُنْتَنَا وَاللهُ  
أَعْلَمُ بِمَا تَكْنَهُ صُدُورُهُمْ وَتَعْوِيهِ بِبَيْوَتِهِمْ» (ص ٣٥٥) ٠ فِي هَذِهِ الْآفَاقِ الْمَزْدَحَةِ  
بِالْتَّنَاضُطِاتِ نَحْسَبُ أَنَّ ابْنَ طَفْفِيلِ وَقْفٍ يَتَأْمِلُ الْخَلَافَ بَيْنَ الدُّولَ وَبَيْنَ الْحُكُومَاتِ  
وَبَيْنَ النَّاسِ أَنفُسِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا أَسْرَارَ الدِّينِ الْعَقِيقِيَّةِ سَوَاءً كَانُوا  
مُسْلِمِينَ أَوْ مُسِيَّحِينَ أَوْ يَهُودًا ، وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا إِلَى مَا مَكَنْتُمْ يَكُونُ بَيْنَهُمْ مِنْ  
رَوَابِطٍ تَدْفَعُهُمْ إِلَى تَأْمِلِ الْحَيَاةِ وَالْطَّبِيعَةِ وَالْمَوْتِ وَالْكَوْنِ وَالْيَوْمِ مَا يَتَجَاوزُ ذَلِكَ  
كُلَّهُ مِنْ آفَاقِ الْرُّفَعَةِ وَبِشَائِرِ السُّمُوِّ وَمَلْكُوتِ التَّقْدِيسِ ، وَرَأَى أَنَّ الْوعْظَ  
لَا يَفِيدُ وَأَنَّ النَّصْحَ مَرْدُودٌ وَأَنَّ طَرِيقَ الْاِصْلَاحِ مَسْبُودٌ فَعَمِدَ إِلَى أَوْلَ الْطُرُقِ  
وَأَكْثَرُهَا أَصَالَةً وَأَعْمَقُهَا أَثْرًا وَهُوَ الْإِهَابُ بِفَطْرَةِ الْإِنْسَانِ السَّلِيمَةِ وَبِسَرِيرَتِهِ  
الْإِنْسَانِيَّةِ الصَّافِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ رَهْنَهَا الْأَوْهَامُ وَلَمْ يَصْبِهَا دَنْسُ الْمَجَمِعِ فَنَهَدَ إِلَى  
كِتَابَهُ رسَالَتِهِ تِلْكَ ٠

أَبْرَزَ مَا فِي الرِّسَالَةِ حُبُّ وَاجْبُ الْوُجُودِ مَعَ الْقَبِيْطَةِ الْكَبِيرِيَّةِ فِي هَذَا الْعَبِ ثُمَّ  
إِسْبَاغُ الْمُحْبَّةِ وَالْعَطْفِ وَالْعَطْفِ وَالْوَفَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ٠ فَالظَّبِيْةُ تَعْطِفُ عَلَى الْوَلِيدِ  
وَهُوَ يَقْابِلُهَا بِالْمَرْفَانِ حِينَ كَبَرَ هُوَ وَأَسْتَّ ٠ ثُمَّ إِنَّ حَيَا «قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ أَلَا  
يَرَى ذَا حَاجَةَ أَوْ عَاهَةَ أَوْ مَضْرَةَ أَوْ ذَا عَائِقَةَ مِنَ الْعِيُونَ أَوِ النَّبَاتِ وَهُوَ يَقْدِرُ  
عَلَى إِزْالَتِهَا عَنْهُ إِلَّا وَيُزِيلُهَا ٠ فَمَتَى وَقَعَ بِصَرِّهِ عَلَى نَبَاتٍ قَدْ حَبَّبَهُ عَنِ الشَّمْسِ  
حَاجِبٌ أَوْ تَعْلَقَ بِهِ نَبَاتٌ أَخْرَى يُؤْذِيَهُ أَوْ عَطَّلَهُ عَطْشًا يَكَادُ يَفْسِدُهُ أَنْ إِلَى عَنْهُ ذَلِكَ  
الْحَاجِبُ إِنْ كَانَ مَا يَزَالُ ، وَفَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ الْمُؤْذِيِّ بِفَاصِلٍ لَا يَضُرُّ الْمُؤْذِيَ ،  
وَتَعْهِدُهُ بِالسَّقِيِّ مَا أَمْكَنَهُ ٠ وَمَتَى وَقَعَ بِصَرِّهِ عَلَى حَيْوانٍ قَدْ أَرْهَقَهُ ضَبْعٌ أَوْ  
نَشْبٌ بِهِ نَاشِبٌ أَوْ تَعْلَقَ بِهِ شَوْكٌ أَوْ سَقْطَفِيُّ عَيْنِيهِ أَوْ أَذْنِيَّهُ شَيْءٌ يُؤْذِيَهُ أَوْ مَسَّهُ  
ظَلَّاً أَوْ جَوْعَ تَكْفِلَ بِأَذْلَالَهُ ذَلِكَ كَلَهُ عَنْهُ جَهَدُهُ وَأَطْعَمَهُ وَأَسْقَاهُ ٠ وَمَتَى وَقَعَ  
بِصَرِّهِ عَلَى مَاءِ يَسِيلِ الْسَّقِيِّ نَبَاتٌ أَوْ حَيْوانٌ وَقَدْ عَاقَهُ عَنْ مَرْءَهِ ذَلِكَ عَائِقٌ مِنْ  
حَجْرٍ سَقَطَ فِيهِ جُرْفٌ اِنْهَارَ عَلَيْهِ أَزْالَ ذَلِكَ كَلَهُ عَنْهُ» ٠

وهو في ذلك يعترضني بنفسه . فمحبة النفس جزء من المحبة الشاملة فقد «الزم نفسه دوام الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء في أكثر الأوقات وتنظيف ما كان من أظفاره وأسنانه ومجايبه بدنه وتطيبها ما أمكنه من طيب النبات وصنوف الأدمنان العطرة، وتعهد لباسه بالتنظيف والتقطيف حتى كان يتلاؤ حسناً وجمالاً ونظافة وطبيباً» .

\* \* \*

كل فيلسوف ذو نهج فكري خاص به وبثقافته ومتاثر بملامح عصره . ويقاد أسلوبه في الكتابة يشف عن ذلك النهج سهولة أو وعورة ، وضوهاً أو غموضاً ، هدوءاً أو استعجالاً . وفلسفة ابن طفيل رسالته تطلع القارئ على الوصول السعيد بعد العنت والصبر والمراس ، كما تصف النضج والقلق في جوف الاطمئنان . إنها دوحة نشأت من الأرض وتنقلب على شتى العقبات ، وسمت باللاحظة والقياس والتجربة ، وتفتحت أذانها في صيف النضج على اليقين والانشراح مستندة إلى ما في الفطرة السليمة من سداد والى ما في الشريعة من صحة ورشاد والى ما في الحكمة والتصوف من رفعة وعلو وقوة . إنها مفاجرة الإنسانية الرشيدة التي تقبل جانبها من الواقع وتحاول أن تبني جانب آخر أعمق وأصل ، وهي توضح ضروب المساوي الإنسانية وتنكر الباطل وتنشر المحبة والمطف وتحث في عالم مادي متنازع على تجاوز الآثرة والأهواء والميول والنزاعات المادية وتحرض على الأخلاق الحميدية وعلى بلوغ غبطة التأمل العكيم وسعادة الذات . الإنسانية الشريفة التي تتميز بالخير والفوز والبركة . وهي تعطي في سبيل سعادة الإنسان فطرته السليمة وحسن تشوفه نحو القيم الرفيعة .

رسالة حي بن يقظان لمؤلفة من أجمل لآلئ الفكر العربي الإسلامي . هي سمعونية فلسفية إشراقية صوفية إصلاحية نفسية اجتماعية يعزفها مؤلفها أو قارئها على شكل حكاية بارعة رائعة . إنها تلخص حسب ظن المؤلف أصل الإنسان وإن كانت تهمل النظر في تسلسل مراتب المخلوقات في النشوء والتطور كما فعل مثلاً بعده ابن خلدون . وهي تسجل تاريخ المعرفة الإنسانية وتتبين ' مراحل هذه المعرفة المستندة إلى النظر والمشاهدة والقياس والتجربة والاستنباط والتفكير ثم الحدس العلوي ، وإن كان ينقص هذه المعرفة

أثر اللغة والأثر الاجتماعي . إنها كراسل في تلخيص الرسالة تنورة بأحداث الحياة والموت وتشيد ببعض مزايا خلق الإنسان كالانتباه لشأن يد الإنسان في الذكاء الإنساني ولشأن طاقة النار في تحقيق شتى مآربه الضرورية ، كما تنورة بطلاقة الفكر العر . الذي لا حدود له . كل ذلك ببيان راقي ورائق يتعادل فيه المبني والمنفي ويتساوق اللفظ والمفهوم وتجري الحوادث بتقدم منطقي مطرد وراسخ وتوقل سامي ودقيق وإحاطة ذكية وشاملة . ومثل هذه الرسالة كاف لأن تبوئ صاحبها وأمثاله أعلى درجات الفكر العالمي .

بل يمكن أيضاً النظر إلى الرسالة على أنها رمز إلى النوع الانساني وسؤاله لنفسه : ما أنا ؟ من أين أتيت ؟ ما شأنني في الحياة ؟ ما الغاية ؟ ما المصير ؟ وكيف العمل على بلوغ السعادة ؟

وهي في ذلك تبدو سناً حلوًّا ناعماً تلمعه حالمين في عصر ازدهرت فيه الحاجات ، وتتاذرت المأرب ، وتضاربت المصالح ، وضاقت في سبلها المساعي ، واستفحلا شأن المال ، واحتدم ظلام المادة .

ابن طفيل - فوق نثره الفلسفـي الدقيق الـطلـي - شاعر رقيق مبدع كما أشرنا إلى ذلك في ريقـ البحث و بدايته . أوليس لنا أن نعاول الاقتداء به فنأتي في الختام بآيات مناسبة :

مساعهم لاقتناص المال والنشر  
وكهم سائر يوماً إلى العطب  
لکنت اختار کنز العلم والأدب  
رأیت رتبتها في منتهى الرتب  
بريقها جاؤز الأحقاب كالشهب  
أنسني من النفط والدولار والذهب  
تزداد وهجاً لدى التنقيب والتعب  
وأثبـتها عقول العـربـ من كـتبـ  
فـلا حـيـاةـ بـغـيرـ الـعـلـمـ وـالـكـتبـ  
تـبـدوـ لـعـيـنـيـ فـيـ الـأـمـادـ كـالـحـقـبـ  
بـالـعـلـمـ وـالـعـدـ وـالـأـقـتـانـ وـالـنـصـبـ  
أـقـوىـ مـنـ الـدـهـرـ جـلـتـ وـحدـةـ الـعـربـ

تنـازـعـ النـاسـ فـيـ دـنـيـاهـمـ وـغـداـ  
تـخـاصـمـواـ فـيـ اـنـتـهـاـبـ الـعـيـشـ وـاقـتـلـواـ  
لـوـ خـيـرـ النـاسـ فـيـ مـالـ وـفـيـ أـدـبـ  
حـيـ بنـ يـقـظـانـ اـنـ حـقـقـتـ فـيـ عـلـمـ  
مـنـاقـبـ اـبـدـعـتـ تـدـبـيجـ آبـدةـ  
وـفـيـ الـعـلـمـ كـنـوزـ كـلـهاـ نـعـمـ  
كـمـ مـنـ أـوـابـدـ أـخـرىـ لـاـ عـدـادـ لـهـاـ  
تـنـورـتـهاـ عـقـولـ الـفـرـبـ عـنـ بـعـدـ  
أـطـلـ حـيـاتـكـ فـيـ عـلـمـ وـفـيـ كـتـبـ  
مـلـاـوـةـ فـيـ ضـيـاءـ الـفـكـرـ لـوـ قـصـرـتـ  
مـالـ الزـمـانـ بـنـاـ لـكـنـ نـعـدـلـهـ  
لـاـ يـدـفعـ الـعـيـفـ عـنـاـ غـيرـ وـحدـتـناـ

# أَخْضُور الصَّوْفِي

## فِي الْجَزَائِرِ عَلَى الْعَهْدِ الْعُثْمَانِيِّ

د. مختار حبّار\*

اتسم العهد العثماني في الجزائر بانتشار ظاهرة التصوف ، وسيطرتها على توجيه مسار الحياة السياسية والاجتماعية والروحية بوجه لم يسبق لهذه البلاد ان عرفت مثلها ، رغم انه كان منتشرًا قبل وبعد هذه الفترة التي ندرسها . ولذلك لا ييلو مجيئنا ان تتميّز بداية هذه الفترة بنهاية حياة متصوف جزائري شهير ، هو عبدالرحمن الشاعبي (ت ٨٧٥ هـ)(١) ، وتنتهي - بعد مرور زمام ثلاثة قرون - ببداية حياة بجاهد ومتصوف جزائري آخر شهير ايضاً هو الامير عبدالقادر الجزائري (ت ١٣٠٠ هـ)(٢) ، الذي قضى من عمره اربعين وعشرين سنة في هذا العهد العثماني ، وبقية العمر في عهد الاحتلال الفرنسي . وكان اليد التي صاغت العثمانيين ، ومهدت لدخولهم الى الجزائر ، هي نفسها اليد التي دعمتهم عند خروجهم منها ، وهي اليد الصوفية .

يتعرض المؤرخون المنسكون « بالرسوميات » على هذا الطرح بادعاء ان الوجود الشعاني الرسمي في الجزائر ينتهي بالضبط سنة ٩٢٠ هجرية ، لذا وطئت أقدام الآخرين: عروج وخير الدين بربوس، بلاد الجزائر(٣) وينتهي سنة ١٢٤٦ هجرية ، عندما خرج مؤلام، ووطئت أقدام الفزاعة الفرنسية أرض الجزائر(٤) . ان هذه أحداث تاريخية ثابتة لا جدال فيها ، لكن الاستعمار الفرنسي لما دخل الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، لم يعمّ حيئنة العطر الجزائري بأكمله في تلك السنة ، بل ظلل محاصراً في منطقة (متيبة) أبداً طويلاً ، ويكفي أن نذكر أن الأمير عبدالقادر ظلّ مستقلاً بالجزائر الغربية زمام سبع عشرة سنة ، عقد خلالها الجانبيان (الأمير وفرنسا) معاهدات ، وتبادلوا السفرا .

(\*) - مدرس في معهد اللغة العربية وأدابها - جامعة وهران - الجزائر .

كذلك الأمر بالقياس إلى الشماليين فقبل وجودهم الرسمي بالجزائر سنة ٩٢٠ هجرية كانت أساطيلهم تجوب البحر المتوسط ، وكانت لهم علاقات جهادية مع أمراء وذئماء المدن والصون المعاذية للبحر ، لأن الله الصليبي الأوروبي عادة كان يهدى من شواطئ شمال إفريقيا بالسقوط والاحتلال ، قبل ذلك التاريخ بأمس لويول ، اذ يذكر بعض المؤرخين<sup>(٥)</sup> ان : « سقوط مرفا عنابة (كان سنة ٨٦٧ هـ ) قبل وفاة الشمالي ، وقد سقط إلى جانب مرفا عنابة عدد من المدن الساحلية الأخرى : كالمرسى الكبير ، ووهران ، وبجاية ، وغيرها ، وقد تكفلت العملات الصليبية على الشواطئ المغاربية منذ سقوط غرب نافعنة سنة ٨٩٧ هـ »<sup>(٦)</sup> .

ولذلك فقد ألفينا بعض الباحثين<sup>(٧)</sup> يرون أنه « من الغطاء أن نبدأ تاريخ الجزائر العثمانية سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٦ م ، كما تذهب معظم كتب التاريخ فالوجود الشمالي في الجزائر ، وفي العوض الغربي للبحر الأبيض القيم من هذا التاريخ ، فهو يعود في الحقيقة إلى أواخر القرن التاسع » ثم يقول : « وفي بعض النصوص المحلية وجندنا العثمانيين كانوا على صلة بأهل المدن الساحلية الجزائرية ولا سيما رجال الدين يتعاملون معهم ، ويغاربون معهم العدو المشترك » .

وما لا شك فيه أن عبدالرحمن الشمالي الذي كان أنشد (أي أواخر القرن التاسع) على رأس امارة « الشماليّة بمدينتي الجزائر وسوهول» نتيجة يحكم المنطقة حكماً ذاتياً<sup>(٨)</sup> قد عانى كثيراً من الهجمات الصليبية ، ولا يستبعد أبداً أنه كانت له اتصالات مع الشماليين<sup>(٩)</sup> بحكم رئاسته لقبيلته ، وبحكم شهرته كرجل روحي كبير ، له كلمت المسوعة في الأوساط الشعبية ، ورسام القبائل المجاورة ، وهو ما ثلمسه واضحاً في رسالته<sup>(١٠)</sup> التي وجهها إلى نظيره محمد بن أحد بن يوسف الكفيف ببجاية ، ومن أهم ما يمكن استنتاجه منها ، هو ذلك الفراغ السياسي ، وقد كان سلطنة زمینية واسدة تجمع كلمة الأهالي ، والقبائل المنتشرة في ربوع هذه الأرض ، فلم يعد الشمالي سلطاناً لهذه البلاد يوجه إليه خطاب المهام ، وخاصة الشواطئ من مداهنة «بني الأصنفر» لها - كما يسميهم - ثم وجدها فيها يشرح لنظيره «الكفيف» الخطبة التي اتبها والمدة التي هياماً لمداهنة العدو وقتاله .

أما الربانيون الذين قيل في التاريخ ، إنهم كانوا يحكمون من العاصمة تلمسان ، المقرب الأوسط ، أو «أهل الواسطة»<sup>(١١)</sup> - مقابل حكم الزيانيين للمغرب الأقصى ، والمحصيين للمغرب الأدنى - فلم يكن لهم في حقيقة الأمر على هذه الربوع سلطان ، ولا حتى للمحصيين ، بدليل أن الشمالي لم يستصرخ في رسالته<sup>(١٢)</sup> سلطاناً بهمه ، بل استصرخ فيها رسام القبائل ، مما يوضح لنا أن الميل كان منقطعاً بين القبائل والسلطة الزيانية الرسمية ، وأنه لم يكن لأطراف منه الأرض سلطان ، إلا سلطان القبائل والمشائخ تحكم نفسها بنفسها ، ولا تخضع في أغلبها ، لا لسلطان المحصيين في الشرق ، ولا لسلطان الزيانيين في تلمسان ، الذين كانوا «نظرياً» يحكمون المغرب الأوسط وهو في المحقيقة لا يحكمون عملياً الأتلسasan وضواحيها ، وساحل البحر إلى متربة من مدينة الجزائر<sup>(١٣)</sup> ، أما بقية البلاد المغاربية ، فقد كانت تتبع النظام الشماثري أو القبلي ، تتضاعف تارة عند الفزو والقلبة - للمحصيين أو الزيانيين ، وتارة أخرى لليزيانيين ، وفي أغلب الأحيان - وعندما تنتهي حلة الفزو - لا تخضع لآية سلطة ، إلا لسلطة مشيتها ، أو رؤساء الأقطاع والأمراء .

ومن أهم ما يمكن استخلاصه من رسالة الشاعري أيضاً، هو شیوع الروح الصوفية وتحكمها في توجيه الأهمالي إلى المهداد، فمصدر رسالته في التعریض على القتال وأعداد المدة الموصقة لواجهة «بني الأصفر» لم يكن كل ذلك من تدبیرعقل حکیم صقلة السیاسة وحکیمة تجارب العرب، وإنما كان مصدره «رؤيا»<sup>(١٤)</sup> من رؤى الشیخ الصوفیة، أخبر بها أولاً: قومه وعشیرته الأقربین، ثم بعد ذلك عصمتها فراسل في شأنها من راسلمهم، واکد لهم: أن ما يأمرهم به هو أتابه في «رؤیا» وأن المدة التي وصفها لهم: «درّق المُودَ» كذلك جاءت في الرؤیا، وينکر أن قومه أنفسهم بدوا وحضرأ - لم يجتهدوا في أعداد المدة إلا مثأ علموا أن ما يمليه عليهم هو من قبيل الرؤیا، لا يمانهم العیق بكل ما يمیت يصلة الى الغیب، وثقتهم العیام في أقطابهم من رجال التصوف.

ونستخلص من كل ذلك أن الأوضاع السياسية للبلاد، كانت مضطربة، وخربطتها السیاسیة، لم تكن واضحة المآل والحدود، فمثل المزائر بشیخة الشاعرية كان له ما يماثله من المشیغات والامارات في مناطق أخرى من الوطن، وظلت الذهنية الشعیبية مرتبطة بالسلطة الروحیة المتمثلة في «مشائخ الصوفیة»، أكثر ما كانت مرتبطة بسلطة زنیة معينة تجمع شبات القبائل المتنافرة، فقد كان لكل مدينة رمزها الروحی، الذي يؤثّر بين القلوب، فالشاعر ظللَ حیا - ثم میتا - يمثل رمز السلطة الروحیة في مدينة المزائر وأحوالها متیجة ، وكان القطب الصوفی محمد الهواري يمثل تلك السلطة في وهران ، وكانت وما زالت قسنطینیة «مدينة سیدی راشد»، وتدمی تلمسان - رغم وجود سلطة زنیة بها آنذاك - «مدينة سیدی بومدين الفوث»<sup>(١٥)</sup> ، وفي مسکر كانت «الطريقۃ القادریة»، التي أسسها سلف الأئمہ عبد القادر هي التي تمثل تلك السلطة ، وفي أحوالها شلّف وتنس كأن يمثلها آل آبھلؤل الماجھی<sup>(١٦)</sup> ، وفي عنابة كانت الشیخة في عائلة «سامی البوني»، وفي غيرها من المدن والمبایل والسهول كان غيرهم من الرموز الروحیين ، الذين ما زالت آثارهم المتمثلة في الأضرحة والتقبیب تدلّ عليهم ، وتدلّ على ما كان لهم من سلطة روحیة على الأهمالی .

والى جانب تلك الرموز الروحیة ، كانت قائمة بعض الامارات الضیقة ، والمستقلة بعضها عن بعض ، فضلاً عن سلطة الزيانین بتلمسان<sup>(١٧)</sup> الا أن الوجود العثماني الفعلی والرسمی بالجزائر منذ بداية القرن العاشر الهجري عمل على تذویبهما ، وجمع شمل كثیر من القبائل والامارات المتنافرة لتوحیدها تحت سلطتها ، كما عمل العثمانیون على اعادة رسم خریطة جديدة لأقطار المغرب العربي ، بقیت - مع بعض التعدیلات الطفیفة - منذ ذلك التاريخ الى الان ، ومنذ ذلك التاريخ ايضاً أصبحت المزائر تابعة للخلافة العثمانیة مثلما في ذلك مثل محل الأقطار العربية ، بخلاف المغرب الاقصی الذي ظلل مستقلًا عن العثمانیین<sup>(١٨)</sup> .

ولکی نعرف دور الصوفیة السیاسی و موقفهم من الوجود العثماني كسلطة بدیلة ، لا بد من الاشارة الى ان العرکة الصوفیة بالجزائر كانت قد انتشرت بکامل القطر قبل مجيء العثمانیین<sup>(١٩)</sup> ، واذا كان العس «الوطنی» كما نفهمه اليوم يکاد يكون منعدما عند اخراصه بله العامة ، فإن «العس الروحی» المشوب بالتصوف هو الذي كان يجمع شبات القبائل والامارات تحت مظلته ، وبه كانوا يشعرون ان مصيرهم واحد اذاء الغزو الصلیبی لهم ، فرغم تفرقهم وتناحرهم

أحياناً ، من أجل توسيع نفوذهم واكتسابهم لمزيد من الاقطاعات ، إلا انهم سرعان ما توحدهم كلمة «الجهاد» في سبيل النزد عن حرمة الإسلام وحاته ، وأن الصوفية في الغالب هم الذين كانوا يغذون تلك الوطنية الدينية أو ما يمكن أن نطلق عليه «سلطة الصوفية» .

ففي تلمسان مثلاً عاصمة الغرب الجزائري الثقافية ، كان يغدو تلك السلطة الروحية كثيرون من أشهرهم عائلة ابن مزروق ، وتلاميذهـا<sup>(٢١)</sup> ، وكان قطب زمانه ، الشیخ احمد بن يوسف الراشدي الدار والنسب ، دفين مليانة ، المتوفى سنة ٩٢٧هـ<sup>(٢٢)</sup> يرور للطريقة الشاذلية - التي كان يرتدي خرقتها - في كامل القطر بعامة ، وفي الجهة الغربية منه وخاصة<sup>(٢٣)</sup> وقد اشتهر «بالقطبانية» و «الولايـة» ، في عهده ، وذاع صيته في الناس ، ونزل إلى العامة يستميلهم إليه ، فلقتـهم «الذكر» ، فتبـعـهـ خلقـ كـبـيرـ ، حتى النساء ، وقيل لهـ فيـ ذـلـكـ : «اهـتـ المـكـمةـ فيـ تـلـقـيـنـكـ الأـسـاءـ للـعـامـةـ حـتـىـ النـسـاءـ ، فـقـالـ : قـدـ دـوـنـاـ المـلـقـ إـلـىـ آـهـ فـأـبـواـ : فـقـنـعـنـاـ مـنـهـ بـأـنـ نـشـفـلـ جـارـحةـ مـنـ جـوـارـهـ بـالـذـكـرـ<sup>(٢٤)</sup> .

وكان من نتيجة نشاط الشـیـخـ اـبـنـ يـوسـفـ ، أـنـ اـنـتـشـرـتـ الطـرـيـقـةـ الشـاذـلـيـةـ فيـ كـامـلـ القـطـرـ الجزـائـريـ ، فـضـلـاـ عـنـ اـنـتـشارـهـ فيـ المـقـرـبـ والمـشـرقـ قـبـلـهـ بـوـاسـطـةـ مـؤـسـسـهـ اـبـوـ المـسـنـ الشـاذـلـيـ ، وـأـتـابـاعـهـ ، وـنـذـكـرـ مـنـ أـتـابـاعـ اـبـنـ يـوسـفـ المـلـيـانـيـ فيـ الـمـنـوبـ الـفـرـيـقـيـ مـنـ الـجـازـائـرـ : الشـیـخـ اـبـنـ سـلـیـمـانـ ، الـمـرـوـفـ بـاسـمـ : سـیدـ الشـیـخـ ، سـاحـبـ «الـیـاقـوـنـ» ، وـتـأـسـسـتـ فـيـ هـذـهـ الـبـهـیـةـ زـوـایـاـ كـثـیرـ مـنـ اـهـمـهاـ زـاوـیـةـ کـرـزاـزـ ، زـاوـیـةـ عـائـلـةـ اـبـنـ عـبدـالـجـبارـ الـفـیـجـیـ<sup>(٢٥)</sup> ، وـالـتـیـ کـانـتـ کـلـهـ تـبـعـ الـطـرـیـقـةـ الشـاذـلـیـةـ ، وـقـدـ لـعـبـتـ هـذـهـ الـطـرـیـقـةـ ، مـثـلـهـ فـیـ شـخـصـ اـبـنـ يـوسـفـ المـلـيـانـیـ دـوـرـاـ رـیـادـیـاـ فـیـ اـعـلـامـ «ـسـلـطـةـ الصـوـفـیـةـ» . وـلـمـطـرـهـاـ ، قـدـ اـتـصـلـ مـعـشـانـیـوـنـ بـمـثـلـهــاـ ، وـاسـتـمـالـوـهـ بـلـهـتـهـمـ ، فـماـ کـانـهـ مـنـهـ إـلـاـ بـارـکـ وـجـودـهـ ، وـتـعـالـفـهـمـ عـلـىـ حـارـبةـ الـمـدـوـلـوـالـشـرـكـ : الـاسـبـانـ مـنـ جـهـةـ ، وـسـلـطـةـ الـزـيـانـیـینـ بـتـلـمـسـانـ الـمـنـحـالـةـ مـعـ الـاسـبـانـ عـلـىـ الـمـشـانـیـینـ مـنـ جـهـةـ أـخـرـیـ<sup>(٢٦)</sup> .

وـأـمـاـ فـیـ قـسـنـطـنـیـةـ الـتـیـ کـانـتـ تـابـعـةـ لـسـلـطـةـ الـمـنـصـمـیـةـ بـتـونـسـ ، قـبـلـ الـوـجـودـ الـشـانـیـ بـالـبـرـائـ، کـانـ اـمـ «ـسـلـطـةـ الـرـوـحـیـةـ» ، فـیـهـ بـیدـ اـکـثـرـ مـنـ عـائـلـةـ : اـهـمـهاـ عـائـلـةـ الـبـادـیـسـ ، وـعـائـلـةـ آلـ عـبدـالـمـؤـمـنـ ، وـعـائـلـةـ الـفـکـونـ ، وـهـذـهـ الـأـخـیرـةـ هـیـ الـتـیـ عـمـلـ مـعـهـاـ الـشـانـیـوـنـ نـفـسـ مـاـ عـمـلـهـ مـعـ اـبـنـ يـوسـفـ المـلـيـانـیـ فـیـ الـغـرـبـ ، قـدـ رـحـبـتـ بـالـوـجـودـ الـشـانـیـ ، وـتـعـالـفـتـ مـعـهـ ، فـقـالـ اـلـیـهـ مـبـرـیـ قـسـنـطـنـیـةـ «ـالـرـوـحـیـ» ، اـمـاـ عـائـلـةـ آلـ عـبدـالـمـؤـمـنـ الـتـیـ کـانـ بـیدـهـاـ الـمـلـ وـالـرـبـطـ وـالـتـیـ اـنـصـرـتـ لـلـحـقـصـیـنـ ، فـکـانـ مـاـلـهـاـ الـمـسـرـانـ مـعـ الـشـانـیـوـنـ<sup>(٢٧)</sup> ، وـفـیـ الـجـازـائـرـ سـبـقـتـ الـاـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ صـوـفـیـةـ الـشـاعـلـیـةـ تـعـالـفـوـاـ مـعـ الـشـانـیـوـنـ ، وـمـقـدـوـاـ مـعـ بـابـاـ مـرـوـجـ الـشـانـیـ ، مـعـاـهـدـةـ لـعـدـ الـاسـبـانـ الـذـينـ کـانـوـاـ مـتـمـرـکـزـینـ بـصـخـرـةـ «ـبـنـیـوـنـ» عـلـىـ مـقـرـیـةـ مـنـ شـاطـئـ الـمـدـیـنـیـ<sup>(٢٨)</sup> . وـقـدـ خـانـ سـالـمـ التـومـیـ - الـذـیـ کـانـ يـمـثـلـ السـلـطـةـ الـزـمـنـیـةـ - الـمـاـہـدـةـ ، فـخـنـقـهـ الـتـرـکـ ، وـلـكـنـ ثـقـتـهـ فـیـ رـجـالـ الـدـینـ بـعـامـةـ ، وـالـصـوـفـیـةـ بـخـاصـةـ ، بـقـیـتـ عـلـیـ حـالـهـ ثـابـتـةـ ، قـدـ عـیـشـ الـشـانـیـوـنـ آبـاـ عـبـدـالـهـ مـحـدـدـینـ عـلـیـ الـمـرـوـبـیـ سـفـرـاـ لـهـمـ مـرـتـیـنـ عـلـیـ الـاـقـلـ ، يـمـثـلـهـمـ لـدـیـ سـلـاطـینـ الـمـغـرـبـ الـأـقـصـیـ ، وـکـانـ الـمـرـوـبـیـ مـنـ رـجـالـ الـدـینـ وـالـتـصـوـفـ ، وـهـوـ مـنـ تـلـمـیـدـ اـحـدـ زـرـوقـ ، قـدـمـ إـلـىـ الـجـازـائـرـ مـنـ طـرـابـیـلـسـ ، فـاستـوـطـنـهـاـ وـتـوـقـیـ بـهـ سـنـةـ ٩٦١ـ مـجـرـیـةـ<sup>(٢٩)</sup> .

واما في عناية ، فقد قصد الشمانيون عائلة سامي البوبي ، التي كانت تمثل السلطة الروحية هناك ، فلم تخيب العائلة قصدهم ، بل توطدت بينهم علاقة حميمة على مر الزمان ، وتبجل هذه العلاقة من خلال الرسائل<sup>(٢٠)</sup> المتبادلة بين محمد سامي البوبي ، ويوسف بابا (البزائر) من جهة ، وبين أحد بن قاسم البوبي (المفید) ومحمد يكداش من جهة أخرى . ويمكن النظر الى موضوع هذه الرسائل من جوانب ثلاثة :

الأول : يغدو تقارب السلطة الشمانية من الصوفية ، واضفاء هالة من التقديس الأعمى عليهم ، وإيمانها المعمق بهم كأولياء الله الروحيين في الأرض .

والثاني : يتمثل في ما يمكن أن نسميه « سلطة الصوفية » على كل من الحكم والرمية ، لضوء الكل لمنشورتهم عند المزم .

والجانب الثالث الذي يمكن أن تستشفه منها ، هو تعميق وترسيخ « التفكير الغيبي » في مقابل تعطيل التفكير المقللي ، وتهميشه مثليه الذين شتم منهم رائحة الاصلاح .

وفي داخل الوطن التقى كثير من مشايخ الصوفية اثر من سبق في تعاملهم مع العثمانيين ، فاتباع الملياني وتلاميذه التقروا في أغلبهم صنيع شيخهم ، نذكر منهم خدا بن شاعة الذي اعفاه الشمانيون من الضرائب لوقبه الإيجابي منهم<sup>(٢١)</sup>، ومن غير المستبعد ان يكون تلميذ الملياني : محمد بن عبدالجبار الفيبيجي المتوفى سنة ٩٥٠ هجرية قدتعاون مع العثمانيين اقتداء بشيخه ، فقد كانت له زاوية بم منطقة تاسالة ، جعلها وقفًا على المريدين الذاكرين<sup>(٢٢)</sup> .

وفي ضواحي شلت كان يرابط الشيخ ابن المغفل ، وهو من صلحانها الروحيين ، وكان له في قومه نفوذ ، لذلك كان أول من قصده الشمانيون في هذه الجهة ، وطلبا عليه مباريعتهم ، ومتناصرتهم على الزيانيين ، ومباركة حلتهم عليهم ، فكان لهم منه ما أرادوا ، وجهز لهم حلة وبث معهم ولديه بعد أن اعتذر الشيخ عن الذهاب منهم<sup>(٢٣)</sup> .

وفي مجاجة قرب مدينة تنس ، كانت ترابط عائلة أبيهول الماجي ، وقد أست هؤلاء العائلة زاوية بمجاجة ، وكان من بين أهداف مؤسسيها : الجهاد في سبيل حماية الإسلام والأرض الإسلامية من الفزو الصليبي . وقد تعاونت هذه العائلة - لذلك - مع الشمانيين ، وكان من أشهر رجالاتها لهذه الفترة ، الشيخ محمد بن علي أبيهول الماجي<sup>(٢٤)</sup> ، وقد ظلت هذه الزاوية تؤدي دورها في الجهاد في المهد الشماني ، ولم يقطع هذا الدور بذماب المشمانيين ، اذ برز أحفاد الشيخ كمجاهدين مع الأمير عبدالقادر الجزائري ، الذي تصدى للفزو الفرنسي<sup>(٢٥)</sup> .

ولقد تعمدت سوق هذه الطوائف من التصوف والطرق الصوفية التي سطع نجمها ، وتزامن مع الوجود الفعلى للشمانيين بالبزائر لسبعين :

الأول منها ، هو أن المركبة الصوفية بهذه البلاد كانت موجودة وشائعة قبل الوجود الشماني في الجزائر ، فليس الشمانيون هم الذين أوجدوها، أو جلبوا مفهم ، كما قد يتبارد الى كبير من الأذمان ، بسبب أن فكرتهم هي التي ذاع فيها التصوف والطرق الصوفية أكثر من أي وقت آخر ،

فلم يكن العثمانيون في حقيقة الأمر ازاء انتشار ظاهرة التصوف بشكل يبعث على الدهشة والتساؤل، الا كمصن يصب الوقود على النار<sup>(٣٦)</sup> .

واما الثاني منها ، فهو ان الشعور « بالوحدة الوطنية »<sup>(٣٧)</sup> ميأسياً كان منعدما ، بمعنى ان حلقات السلطة الزمنية التي كانت تمثلها الدولة الزيانية يتلمسان كانت مفككة ، ولم تكن شيئاً مذكوراً في الواقع ، وان كانت نظرياً تقوم ببعض ذلك ، كما سبقت الاشارة . والذى كان يقسوه مقام تلك الوحدة هو « الدين» يعامة ، و «التصوف» وخاصة ، او ما يمكن ان نسميه « بالسلطة الصوفية » ، التي كانت تغذى تلك الروح عن طريق « سلاسلها » و « طرقها » الصوفية ، التي كانت بثنائية الأحزاب في وقتنا المعاصر ، تشن الآباء ، والناس عموماً بالصier المشترك كلما داهمهم خطر المد الصليبيي ، حتى اذا جاء العثمانيون الفيتا الصوفية هم الذين سارعوا في بادئ الأمر بحكم « سلطتهم الروحية » على الأهالي الى مبادلة العثمانيين ، والتعاون معهم ، وبماركة حركتهم الجهادية ، في حين ان ممثلي السلطة الزمنية مثل (الزيانيين) وبعض الامراء مثل سالم التومي ، وغيره قد تنكروا للوجود العثماني وحاربوه ، بل تعامل بعضهم مع العدو (الاسبان) على ان يذعن للسلطة العثمانية<sup>(٣٨)</sup> .

ولقد شجع العثمانيون رجال التصوف ، وأهل الطرق الصوفية ، وذلك بانعيازهم في بادئ الأمر الى رجال الدين والتصوف – كما اسلفنا القول – وفيما بعد شاركوا مشاركة فعلية في بناء القبة والأضرحة والمزارات ، وفي « دار السجل » الوطني عدد كبير من الوثائق التي تدل على تلك المشاركة السخية . وقد تولت (المجلة الافريقية) بنشر بعضها ، ويسافر المتصفح لها كثيراً من العبارات مثل « أما بعد فهذا ضريح الولي الصالح الزاهد الورع (كذا) سيدى عبدالله بن منصور ادركنا الله برضاه آمين<sup>(٣٩)</sup> » .

ويجد القارئ أيضاً عبارات أو نصوصاً كثيرة تدل على مشاركتهم في تشيد القبة مثل : « امر بتشييد هذه القبة المباركة مع التابوت امير المسلمين السيد مصطفى باي ايمده (كذا) الله ، ونفعه بذلك سنة ثانية عشر بعد المائتين والت »<sup>(٤٠)</sup> . ومثل : « أما بعد امر ببناء هذا المقام السعيد ، امير المسلمين ... » الى آخر النص الذي يوضح ان صاحبه امر بذلك ويقصد من وراء عمله « وجه الله ، ورجام ثوابه »<sup>(٤١)</sup> .

كما مساعدوا « المسلمين » ببناء الزوايا والرباطات ، وأنفقوا في سبيل ذلك أموالاً سخية ، فربوا لبعضها أوقافاً خاصة<sup>(٤٢)</sup> وأغفروا المقربين منهم من الشرائب<sup>(٤٣)</sup> ومنحوه حمة وحسنة ، فالمستجد بمحامم لا يلعقه اذى ما دام في حى « الشيش » ولو كان المستجير مجرماً !

وبذلك وجد التصوف المجال خصباً للنماء والانتشار والشيوخ بين العامة والخاصة ، وتطمم بالمقتدات الشعبية المحلية فانتشرت – لذلك – بيجانبه الخرافية والآيمان بالشموذة ، وعمت الطريقية، فلا نكاد نجد علماً من الاعلام المشهورين يعلم الطهار او الباطن غير منتبض لطريقة معينة او لشيخ معين، وكيف لا، وحكمة ابي يزيد البسطامي الثالثة : « من لا شيخ له فشيخه الشيطان »<sup>(٤٤)</sup> . كانت رائعة على كل لسان ، لذلك كان الناس يفخرون بانتسابهم الى هذه الطريقة او تلك ، والى هذا الشيخ او ذاك ، وكثيراً ما نجد في تراجم الاعلام لهذه الفترة مبارزة مثل : « قلان » أخذن « عن

الشيخ الفلاسي « علم الظاهر » أو « علم الباطن » أو « ما معاً ، وأما العامة من الناس ، وبخاصة منهم النساء ، فيكتفون غالباً بالاعتقاد الراسخ في « الشيخ » أو « الفريج » ، التردد منهم ، ويتجاذبون إليه كلما أصاهم ضرّاً أو امتنع لهم معيضة<sup>(٤٥)</sup> ». وما تزال آثار هذه الاعتقادات سارية إلى اليوم في بعض الأوساط الشعبية ، وأحياناً في أوساط المتعلمين (وحتى المثقفين منهم) .

ولقد أعطى ذلك التجاوب بين الصوفية والسلطة الشمانية ، نتاجاً ثقافياً غيرياً ، مشوباً في أغلب بالتصوف ، والتفكير الباطني ، المعتمد على المواجهة وتصفيه النفس بالترك والزهد والتخلّي للتحلي ، وقلّما نجد نتاجاً ثقافياً يعود إلى هذه الفترة قد نجا من « حيّ » التصوف ، ذلك لأنّ أغلب الشيوخ المتصدّين للافتاء والتدرّيس كانوا يجمعون بين علمي الظاهر والباطن ، كما أن المؤسسة التعليمية المفضلة كانت غالباً هي « الزاوية » ، وكانت المواد المدرّسة في أغلبها دينية مشبعة بروح صوفية ، وكان التصوف من بين المواد المدرّسة من خلال بعض الكتب المشهورة : كالرسالة الشيرية ، وحِكَمَ ابن عطاء الله ، وأحياناً علوم الدين للغزالى ، وقوت القلوب لأبي طالب المكي ، وغيرها من آماث الكتب والتراث .

وكانت « الزاوية » إلى جانب قيامها بالتعليم ، تقوم بوظائف أخرى مكملة لفرس بذرة « الفكر الباطني » في الطالب أو المريد ، والذي يغرس ذلك هو عادة « شيخ الزاوية » أو « مقدمها »<sup>(٤٦)</sup> ، ففيها يتم أخذ « المهد » أو الطريقة ، وتغيير الزاوية ، والشيخ ، والمريد ، والطريقة ، من أهم الأسس التي تحدّد الفرد في المجتمع الجزائري إبان المهد الشماني أعاداً « باطنياً » ، وتجعله قابلاً لتلقّي « المرفة الوهبية » ، إذا « فتح الله عليه » ، وفي الوقت نفسه يتخلّص تلقائياً بناء المقل فيه ، ويصبح دوره مقتضراً على الحفظ والتخرّيز والاعتقاد بلا انتقاد ، ما دام أن « العلم » الذي ينشده ليس من قبل المسلم الذي يتم ادراكه بالعقل ، فالعقل في نظر مجل الصوفية يولد وهو يحمل معه عامة قصوره ، يقول الكلا بادي<sup>(٤٧)</sup> « العقل محدث والمحدث لا يمثل إلا نفسه » .

وان كنا لا نستطيع احصاء كل الزوايا التي كانت تقوم بذلك الهمة فاننا نحاول أن نذكر هنا أشهرها مع الاشارة إلى أهم الطرق الصوفية ، ولا غرو أن أشهر طريقة من حيث الديrous والانتشار ، كانت الطريقة القادرية - الشاذلية ، كما سلف القول ، ليس في المذاهب فحسب بل وفي العالم الإسلامي قاطبة<sup>(٤٨)</sup> .

وبحسب بعض الروايات<sup>(٤٩)</sup> فإنّ الطريقة القادرية التي تنسب إلى « الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ<sup>(٥٠)</sup> » قد انتقلت إلى المذاهب بغامضة والمغرب بعامة عن طريق الشيخ أبي مدین التلمساني المتوفى سنة ٥٩٤ هـ جرجية بتلمسان ، وتقول نفس الروايات : إنّ أبي مدین التلمساني بالجيلاني في موسم الحج ، وفي الحرم المكي كان اللقاء ، وانه لما عاد إلى وطنه أشاع الطريقة القادرية ونشرها في المغرب عموماً عن طريق مريديه وأتباعه ، وعن طريق مؤلمه انتشرت في كامل بلاد المغرب ، والشرق ، وانتشرت معها وبها الزوايا والمشيخات .

وكان من تلاميذ أبي مدین عبد السلام بن مشيش ، وكان هذا استاذاً ومربياً لأبي الحسن الشاذلی مؤسس الطريقة الشاذلية<sup>(٥١)</sup> والذي كان قد ولد سنة ٥٩٣ هـ بأحدى قرى المغرب الأقصى بسنة واحدة قبل موته أبي مدین التلمساني ، وقد استقر أبو الحسن بمنطقة شاذلة « بتونس »

فسب اليها ، وظل يتردد بينها وبين الاسكندرية والقاهرة كلما طرأ طارىء ، وقد وسعت حركته وتنقلاته هذه ، معارفه وتلاميذه ، وكثير بذلك المتنسبون الى طريقة الشاذلية التي هي فرع من القادرية ، وقد توفي ابو الحسن الشاذلي سنة (٦٥٦ هجرية)<sup>(٤)</sup> ؛ وزيرد ان نصل من كل ذلك الى ان اغلب الطرق في الجزائر « قادرية » الأصل ، رغم أنها تسمى « بالشاذلية » او « باليوسفية » او غيرها من الأسماء .

وقد يتسائل سائل عن سبب تسمية هذه الطرق باسمها أصحابها من الشياخ دون الالتباس الى الاصل اي « القادرية » ؟ وأرى أن مرجع ذلك يعود الى أحد مبادئ الطريقة القادرية التي كان ييشا عبد القادر الجيلاني في مريديه وهو « الانقسام »<sup>(٥)</sup> يعنى أن المريد بمجرد أن يصل الى مستوى المشيخة ، ويجزيه الشيخ الذي أخذ عنه ، فهو في حل من أمره ، بل من المستحب والواجب عليه أن (ينفصل) عن شيخه ويصبح في عداد الشيوخ الذين يعتمدون على أنفسهم في اجتهداتهم وسلوكهم ، ويمكن لهم عندئذ أن يؤسسوا زواياهم ، وأن يدعوا الى طرقوم التي تسمى غالباً باسمائهم ، كما هي الحال مع أبي الحسن الشاذلي الذي تنسب اليه معظم الطرق الصوفية الموجودة بالجزائر ابان المهد الشاذلي ، ولكن معظم تلك الزوايا ، تسمى باسماء أصحابها أيضاً مثل (الزاوية البكرية التي أسسها الشيخ البكري بمنطقة تمنطيط) ، وكان قادرياً - شاذلي المذهب ، وتوفي (١١٣٣ هـ)<sup>(٦)</sup> وقد سبقت الاشارة الى أن سيد الشيخ الياقوتة ، دان قدرياً - شاذلي المذهب ، كما أن عبدالكريم الفكون ، وأحمد بن عمار ، كانوا مثله على الطريقة الشاذلية .

اما في الشرق الجزائري فقد اشتهرت في كل من الجزائر ، وقسنطينة - الطريقة الرحمانية ، التي أسسها عبد الرحمن الأزمرى (مجاورة) وتأسست بها عدة زوايا من أهمها زاوية باش تارزي بقسنطينة التي أسسها عبد الرحمن باش تارزي ، والزاوية « الغروزية » بضواحي بسكرة التي أسسها تلميذهما ابن عزو ز البرجي المتوفى سنة (١٢٢٢ هجرية) ، وقد امتدت فروع هذه الزاوية الى تونس وطرابلس ، عن طريق أبناء ابن عزو البرجي .

وكانت الطريقة التجانية التي أسسها أحمد التجاني المتوفى سنة (١٢٣٠ هجرية) من أهم الطرق التي شدت انتباه الناس اليها ، لأنها كانت من بين الزوايا او الطرق التي ثارت في وجه الوجود الشاذلي ، ولها عدة فروع في المغرب الاقصى والسينغال وغيرها من الدول الافريقية ، وفي منطقة القبائل تذكر الحسين الورثلاني المتوفى سنة (١١٩٣ هجرية)<sup>(٧)</sup> الذي ورث الطريقة والزاوية من جدوده اذ كانت لهم ببني ورثلان زاوية عامة بال الطلبة والمربيدين .

وان كانا نفتقد الان الى احصائيات رسمية لكل الزوايا ومنذاهبها في الجزائر فان ذلك لا ينفي ان عددهما كان كبيراً مع نهاية المهد الشاذلي ، ونذكر على سبيل المثال أن مدينة قسنطينة وحدتها كان بها زهاء ست عشرة زاوية<sup>(٨)</sup> ومدينة تلمسان كان بها مازيد عن ثلاثين زاوية<sup>(٩)</sup> ، واما بمنطقة القبائل وبجاية فقد كانت من اكبر جهات البلاد كثافة من حيث عدد الزوايا اذ بلغ عددها نحو الخمسين<sup>(١٠)</sup> ، هذا في شمال البلاد ، أما جنوبها فلم تكن تخلو عشرة منها ، بل لقد كانت الزاوية ترحل احياناً مع الراحلين كما هو بالقياس الى زاوية سيد الشيخ ، الذي اضطرته الخلافات المذهبية الى التنقل بزاويته .

وفضلاً عما كانت تقوم به الزاوية من وظائف متعددة تحدثنا عن بعضها فانها كانت كذلك مخازن للكتب ، ومن أشهرها مكتبة زاوية الفيبيجي التي وصفها ابن عبد السلام الناصري ، وأشار الى اعتماد آل الفيبيجي بها ، وبمباهنة غيرهم بما فيها من نفائس الكتب<sup>(٥٧)</sup> ، وكانت زاوية سيدى الهواري بهران التي ألت الى تلميذه ابراهيم التازري ، تجتوى على مكتبة ضخمة<sup>(٥٨)</sup> . وما لا شك فيه أن الاستثمار الاسباني قد انتهى ، وأكمل انتهاءها الاستعمار الفرنسي بعده . وقد ذكر الكيفي في رسالته الى الشاعري<sup>(٥٩)</sup> عناته بمكتبه وتدين أمر تهريبها خارج المنطقة الحضرية خوفاً عليها من الانتهاء لأن شواطئه وبجاية كانت بدورها عرضة لهجمات الاسبان آنذاك . وكانت لائلة الف تكون مكتبة ضخمة وغنية بمنفائس المخطوطات وكان اعتماد الف تكون (الحفيدي) في ثقافته الدينية والصوفية والأدبية عليها كبيراً وكانت مكتبة الف تكون من ضمن المكتبات التي مسها الاحصاد أثناء الحملة الفرنسية على المزائر<sup>(٦٠)</sup> كما كانت مكتبة عبدالرحمن باش تازري من أشهر المكتبات بقسنطينة اذ ذكر تقرير الاحصاد الفرنسي أن بها ما يزيد عن خمسة مخطوط جلّها في الفقه والدين<sup>(٦١)</sup> وحسب هذا التقرير ، فلا تكاد تخلو زاوية أو مسجد من مكتبة .

ولقد ساعدت هذه المكتبات على نشر الثقافة الدينية في اوساط المريدين الترددية على مشائتها، ويذكر أحد التقارير<sup>(٦٢)</sup> أن المستوى الثقافي للجزائريين في نهاية العهد العثماني كان أفضل بكثير من مستوى الجنود الفرنسيين الذين كانوا في المزائر أثناء حملتهم على العثمانيين بها ، اذ شهد شاهد من قواد الجيش الاستثماري يومئذ أن الأمية بين جنوده بلغت (٤٥٪) ، وبالمقابل كان عدد القادرين على القراءة والكتابة من الجزائريين يفوق بنسبة (٥٥٪) ، ولكن بعد أكثر من قرن من الاحتلال الفرنسي يقول تقرير آخر<sup>(٦٣)</sup> : ان الأمية وصلت بين الجزائريين ما بين (٧٥-٨٥٪) مما يدل على سياسة التجهيز التي انتهت بها فرنسا في المزائر .

لكن اذا كانت هذه الاحصاءات تبين بعض جوانبها ارتفاع نسبة المتعلمين في العهد العثماني، فانها لم تكشف بذلك عن درجة وعي هؤلاء المتعلمين .لقد كان جلَّ المتصوفة - الذين ندرس اثراهم - متعلمين ، بل ومؤلفين ، ولا اريد ان اشير هنا الى جلَّ مؤلفاتهم<sup>(٦٤)</sup> ، ولكن اريد ان اشير الى انها كانت اغلبها في الدين والتصوف ، والى أنها كانت حصيلة للعقل الباطني السائد الذي غذته المؤسسة التعليمية التي كانت غالباً « زاوية » او مذهبها القائم على أساس « يعتقد ولا تعتقد » ، كما كان قائماً ايضاً على أساس « العلم الوهبي » المناسب للتوصيل القائم على العقل . ودفاعه التالي غالباً ما كانت قائمة على اساس فسيبي ، او خلعة للطريقة او حجاً لأولياء الله ، ورجاء كراماتهم ورضاهem .

ولنا ان نتعدد لذلك كتاب « البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلسان » لابن مريرم ، نموذجاً لمجموعة كبيرة من المؤلفات مشابهة له مضموناً ، لندرك ان الأساس الذي قام عليه تأليف كتابه - وهو في الترجم - لا يخرج مما ذكرنا آنفاً ، وفي معناه يقول في المقدمة « انه اذا كان مجرد حب الاوليات ولایة ، وثبت ان المرء مع من احب ، فكيف يمكن زاد على مجرد الحبة بمواصلة اولياء الله تعالى وعلمائه . وخدمتهم ظاهرة وباطنة بسيطرة احوالهم ، ونشر محاسنهم ، في اقوالهم وافعالهم وأحوالهم ، نثراً يبقى على مر الزمان . ويزرع المودة لهم ، والحب في صدور المؤمنين للاقتداء بهم بحسب الامكان<sup>(٦٥)</sup> .

وإذا كان منطلق ابن مرير في تاليته « لبستانه » منطلقًا باطنية ينبع لروح العصر كما هو واضح من بعض مقدمة الكتاب ، وكذلك متنه ، فاتنا ناتي - بالمقابل - بمنوج آخر ، مناقض له ، يزعم فيه مؤلفه الشیخ عبدالکریم الفکون(۶۱) أنه میشهر میف العقل على كل الباطنية والدجالطة بوجه خاص . وقد قسم الفکون كتابه الى مقدمة، وثلاثة فصول وخاتمة ، وبين في المقدمة أن الذي حمله على وضع هذا الكتاب هو ما كان يراه من انقلاب الاوضاع امام عینیه : فالمبهلة أصبعوا دعیاء للعلم ، والعلماء أصبعوا في موضع المساحة ، وأهل الطريقة المقة علام اهل الرندقة والبدع ، وبعد ذلك يقول « كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء ان يتسبب جماعة المبهلة الملائين الصالين المضللين لهم ، أن يذکروه في معرضهم ، وغیرة على جنب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة ، واندال الحق المفرورين ان يتسموا باسمائهم »(۶۲) .

لکتنا عندما نقرأ هذا الكتاب ، نجد میف العقل الذي سلطه الفکون حاداً في المقدمة . مغلولاً في الفصول ، وأن هنا السيف بيوره لم يتعذر من روح المعر الفصیح الذي كان مسيطرًا على الثقاقة العامة ، وحتى لا نظلم الشیخ نعرض بعض ما جاء في الفصل الأول الذي خصه « لمن تلقیه من العلماء والصلحاء المتقدی بهم ، ومن لم يلقیهم من توافقه ، ونقلت اليه أحوالهم وصفاتهم يعرف بهم ويدکر مناقبهم » وقد جعل على رأس هذه الطائفة عمر الوزان (ت ۶۹۵ هـ) وهو من أعيان قسنطينة الذين عصرروا الفکون (المجد) ، وقد وصفه الفکون(المفید) أي صاحب الكتاب ، بعدة أوصاف منها قوله : « شیخ الزمان » ومنها « العالم المارف بالآرثاباني » ، ومنها دولة في طريق القوم البد المطوى » ومنها « دعوة الشیخ الصالح القطب الفتوح ابی العباس احمد زروق » ، ومنها « دعوة كراماته رضی الله عنہ ۴۰۰ » ، ثم يذكر عدداً منها(۶۳) وللعلم فهو لا ينکر كل ذلك بل يشید به .

وإذا وصلنا بعنوان كتاب الفکون محاولة منا لمعارفة المقياس الذي يحكم به ما صح عنده من التصویف ، وما هو من قبيل البدع ، نجد أنه يتناول حسیناً مع نفسه فما تسبه إلى الطائفة التي جعلها في فصل المفضوب عليهم(۶۴) نجد له نظیره أو أكثر منه بدعة حسیناً مما تسبه إلى الطائفة التي جعلها في فصل الذين رضی الله عنهم (۶۵) ، فينکر ذلك من سبق ، ولا ينکر عن حق ، بل كان يميل إلى الاعتقاد به أكثر مما كان ينفر منه ، فهو القائل : « وكرامات الأولياء مما يجب الإيمان بها ، ورؤیة الملائكة جائزة »(۶۶) وكان ذلك تعلیقاً منه على حکایة سمعها عن فقیه ، قيل له : انه رأى « جبریل ومیکائيل وبنی يديهما ثلاثة اباء » ، ولكنه بالمقابل يعیب على الشیخ محمد ساسی البوني أنه صار في « بلد بونة » ، اي عنابة ، رئيس الباطن والظاهر ، ويعتقد الناس في البلد ونواحيها أنه « وارث شیخه وخليفته »(۶۷) ثم ينکر عليه أنه « ادعى مقام الأکابر من الأولياء » ثم يذكر أنه كان شاعراً ، وينکر عليه أنه قد ملاشرعه بعبارات « الحان والدنان » ، و « يزعم انه شرب من كأس الصفویة » ، وأنه « جلس على بساط القرب » ، وأنه « عرج به إلى السماء وكشف له عن أحوال الملكوت »(۶۸) وكل هذه وغيرها مما ينکر به الفکون ، الشیخ البوني ، ويعتبر ذلك من البدع ! وهو كما نرى من « شطحات » الصوفیة .

وعندما حاول ان يضع مقياساً لتصدیق مثل هذه الروایی ، وخوارق الكرامات والشطحات الصوفیة ، مرة ، واتکالها هي نفسها مرات اخرى بعد ذلك المقياس يتلغص في : أن لا انکار على من

يأتي بها أو يرويها عن نفسه وغيره ، اذا « كان بالثابة المثلى من طريق اتباع السنة والمعرفة باهـ والحق ابليج والباطل بملج » (٧٤) .

ومما يلاحظ على شيخنا التكون - رحمه الله - ان ذلك المقاييس - ان جاز تسييته كذلك - كان كثير التبلج والاضطراب في يده ، ويبدو أنه كان يعيش نوعاً من الفلق والاضطراب بين عقله وقلبه ، فرغم أننا الفيتاء في (المقدمة) عازماً على تصنيف(العقل) ميزاناً للحكم على الأمور الفنية بعامة والتصوف منها بخاصة ، لاستقطاب سلطة العقل الباطن من عرشه ، الا أن الشيخ - وكما يبدو لي - قد أخفق في ذلك اختلافاً كبيراً ، وانتصر عليه قلبه ، انتصاراً خطيراً ، لأنه لأنَّ أماته واستسلامه له ، ولم ينكر ما ينسب إلى التصوف من علم لدني ، ولولاه ، وكراهة ، وما إلى ذلك من المفهومات ، ولكنه انكر على من يزعم ذلك مدعاها أو ليس أصلاً له ، ومن ثمَّ بات التصوف في نظر الشيخ مثل « الجنة » أو « المفرقة » يلبسها أحدهم فتربيته ، وهي نفسها يلبسها آخر فتشنته ، لا لبيب فيها ، بل في من يلبسها .

وهكذا نلاحظ أن لا التكون ولا غيره استطاع أن ينفلت انفلاتاً كلياً من طوق التصوف الذي كان يحوط المهد الشامي في الميزائر بعلقه ، ويطبعه بطابعه . فظاهر ذلك جلياً في مؤلفات هذا المهد ، مثل مؤلف ابن مرير ، ومؤلف التكون ، فضلاً عن مؤلفات أخرى مثل رحلة الوراثلاني (٧٥) ورحلة ابن عمار (٧٦) ورحلة ابن حمادوش (٧٧) ورحلة العياشي (٧٨) وترجم المغناطي (٧٩) التي كتبها يمد المهد الشامي ، وغيرها ، وهي في أغلبها عبارة عن ترجم وأخبار ، اعتنت بالحركة الصوفية ممثلة في الشخصيات المترجم لها ، فإذا تصفحتها فاننا نجد العبارات الصوفية مثل (السارف ياهـ) و (الشيخ الرياني) و (صاحب المكافشات والكرامات) و (من كشف له النطام) و (مجاب الدعوة) وغيرها من الأوصاف التي لها علاقة (بالكرامة) و (الولالية) و (القطبانية المظمى) هي البارات الرائجة أكثر من غيرها .

كما ظهر ذلك في النظم بعامة ، ومن أشهر المنظومات التي تعود لهذا المهد منظومة عبد الرحمن الأخضرى المتوفى سنة ٩٥٣ هجرية (٨٠) وقد سماهـ القدسية ، وأطال نفسته فيها فجاءت في حوالى ثلاثمائة بيت ، وقد اعتبر التكون بالمنظومة القدسية امتازاً كبيراً ، وتمثل بها في منشوره مدايته كثيراً . لأنه يتفق مع الأخضرى . في الحال على « الدجالـة » الذين ينتسبون إلى التصوف لاستلاب الناس أرزاقهم ، والأخضرى في منظومته، مثل التكون في منشوره . لم يكن ضد التصوف في حد ذاته - لأنـ مثل التكون صوفي - ولم يكن ضد النسـمـوـفـيـةـ في حد ذاتها كالولالية والقطبانية وما إليها ، ولكنـ كان ضد الأدعـيـاءـ الـذـيـنـ يـخـالـفـونـ نـهـجـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ ، وـأنـهـ لمـ يـقـبـلـ بـعـدـ هـمـاـ حـكـمـاـ حـكـمـاـ فيـ الفـصـلـ بـيـنـ الـادـهـامـ وـالـسـدـقـ اوـبـينـ «ـالـاـلـفـكـ وـالـصـوـابـ»ـ كـمـ يـقـولـ فيـ الـقـدـسـيـةـ (٨١) :

واعلم بـانـ الـاوـالـيـ الـربـشـانـيـ لـتـابـعـ السـنـةـ وـالـقـرـآنـ  
وـالـفـرقـ بـيـنـ الـاـلـفـكـ وـالـصـوـابـ يـعـرـفـ بـالـسـنـةـ وـالـكـتـابـ

وفي بعض الأحيان نجدـهـ يـعـتـدـ عـلـىـ أـقـوـالـ الصـوـفـيـةـ الـمـنـصـفـيـنـ ، لـاستـنـتـاجـ بـعـضـ الـمـقـايـيسـ الـيـ

يمكن له بواسطتها أن يحكم على « صاحب الأفك من صاحب الصواب » ، ومعرفة المقيقة من الأدلة ، وفي معنى ذلك يقول(٨٢) :

وقال بعض السادة الصوفية      مقالة جليلة صفيه<sup>١</sup>  
 إذا رأيت رجلاً يطير      أو فوق ماء البحر يسير  
 فانه مستدرج وبداعي      ولم يقف عند حدود الشرع

ويبدو لنا أن الأخضرى في قدميته قد وفق إلى تحديد المنهج الذي يجب أن يقوم عليه التصوف، ويتمثل في الحث على الرجوع إلى الكتاب والسنّة لأن طريقة أهل السنّة أو السلف الصالح قائلة على إقامة الشريعة أساساً للوصول أو الترقى في سلّم المقيقة ، وذلك هو ما يقابل عند الصوفية القيام بالمقامات أساساً للوصول أو الترقى في سلّم الأحوال المفضية بالسالك إلى المقيقة . ويندّ ذلك يترقى الولى أو السالك على بيته وشرمه، لا على الأدلة الباطل(٨٣) ، ومن أهم الآيات التي يفسر بها الدعامة الذين يركبون الدين لا يتراز الناسن قوله(٨٤) :

كفاك في جيهم خيانة      ان قتلوا العباد بالديانته<sup>٢</sup>

وإذا كان الأخضرى قد وظّف « قدميته » لانتقاد أباطيل المتصوف، فإن بعضهم الآخر قد وظّف النظم لنشر الطريقة الصوفية التي يعتقدها ، وهو الأغلب الأعم ، ومن هذه المنظومات « المنظومة الرحانية » ، لمبد الرحمن باش تارزى المتوفى سنة ١٢٢٢ مجرية(٨٥) التي عرف فيها ناظمها بطريقته ومؤسسها ، وبين فيها شروط المريد الذي يسلك الطريقة الرحانية ، وتكلم فيها عن آداب السلوك ، وعلاقة المريد بالشيخ ، وعلاقة الشيخ بمربيه ، كما بين فضائل الطريقة التي وصل الكثير من السالكين بفضلها إلى المقيقة ، حسب رأيه وتتضمن المنظومة فضلاً عن ذلك سلسلة الطريقة في الشريعة والمقيقة، وقد تولى شرح هذه المنظومة الشيخ مصطفى باش تارزى ابن الناظم بعد وفاته والده وبعد الماح كثير من محبي الطريقة كما يقول الشارح(٨٦) .

ومنها منظومة ابن عزو ز البرجي النتني إلى الطريقة الرحانية ولذلك فمن غير المستبعد أن يكون البرجي قد تأثر بمنظومة أستاذه باش تارزى فالثالث هو منظومة في التصوف خدمة للطريقة ولمربيده ، وقد ساها « رسالة المريد في قواموط الطريق وسواليه وأصوله وأمهاته » ، وقد انتخذت منها نموذجاً لمنظومات هذا العقد ، والمتقدّمة بسفر للترجم والتارتارات الشعرية ، لتعرف من خلالها اللون الثقافي السادس الذي كان يروج له أغلب أصحاب المنظومات لهذا المهد(٨٧) .

وظهر ذلك بخاصة في الشعر الصوفي ، عندما يجد التصوف بعض القنطرة على صياغة الشعر ونظمها . وتعتبر بجمل القصائد التي وقع عليها اختيارنا(٨٨) صوراً صادقة لما كان يسود العصر العثماني – الذي صننته الصوفية – من اعتقاد راسخ بالأولياء والصلحاء والأقطاب ، وبكراماتهم

(\*) مخطوط عندي ، لم يطبع ، يعنوان : مختارات الشعر الصوفي في الجزائر على المهد العثماني . جمع وتحقيق وتقدير ، صاحب هذا المقال .

وخوارقهم، والتسلل بهم ورجاء بركتهم، ورحمتهم، ومنهم عليهم بالفتح عليهم، كما فتح على أوليائهم، والتقرب بهم ، وجعلهم « وسطاء » بينهم وبين من ترجي شفاعته ، ومن يتلقى غضبه وعقابه ، وترجي رحمة ورضاه ومنئه .

ولقد لست عند تعمالي مع شعر هؤلاء ، إن أغلب الصوفية كانوا يعتبرون القصيدة المديدة بعامة ، والتصوفة بخاصة ، من أقدس المقدسات الت婢يرية ، بعد القرآن والمحدث ، فقد فسحوا لها المجال واسعا ، لتدخل المساجد من أبوابها الواسعة ، ولتتوارد بحضورها محاذيف المأدب والمناسبات الدينية ، وبخاصة منها المدائن النبوية التي ينظر فيها من شفاعة إلى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نظرة روحية خالصة، ولذلك فإن قصائد المدح النبوى هي من أكثر الشعر انشاءً وانشاداً في هذا العهد ، تليها من حيث الكثرة والأهمية، قصائد الاستفانة والتسلل بالأولياء، ومشائخ الطرق، الأموات منهم والآحياء، ثم تأتي بعض الأغراض الأخرى التي لها صلة بالتصوف ، كالوقوف على الأطلال ، والفنر ، والرحلة ، هذا فضلاً عن بعض القصائد الأخرى كالاخوانيات والمراثي ، ووصف الطبيعة ، التي لا تخلو في عمومها من النفحات الروحية أو الصوفية .

ولقد بنيت أغلب قصائد المدح النبوى – التي اطلعت عليها – على نظرية « المقىقة المحمدية » التي يسري سريانها من قصائد السلف إلى قصائد المخلف : وقد نقل علينا ابن عمار في رحلته<sup>(٨٧)</sup> صوراً عجيبة عن الاحتفال بالسولد النبوى في الجزائر إبان المهد المشتاشي ، ممثلة في بعض الأخبار ، وفي بعض الولدان ، والمدائن النبوية التي تحفل بسريان « النور المحمدى » في الوجود ؛ وقد يختلف شكل التعبير عن ذلك من القصيدة إلى الموضع ، إلى السمعية ، لكن التكرا تظل واحدة ، وهو ما حاولنا دراسته في كتاب من جزئين : أحدهما ، دراسة عرفانية ، وأخرهما دراسة أسلوبية .

وخلاصة القول في هذا المقال ، هو أن الجزائر العثمانية ، قد تولت في آخر المطاف إلى « ورشة » لصناعة طرق « علم الباطن » ، وقد طفى ضجيجها ، وعمّ مجدها أطراف البلاد ، وطمس بعض الأصوات التي كانت تقاول – عبثاً – صنع « علم الظاهر » . ولا عجب بعد ذلك أن خطيب المحتل الفرنسي اعيان البلاد في منشوره<sup>(٨٨)</sup> الذي وزعه على الأهالي عشية الاحتلال ، يلفة « أهل الباطن » وكان مما جاء في الخطاب « يا أيها أهل الإسلام ، إن كلامنا هذا صادر عن الحب الكامل » ؟

## □ العواشي :

- ١ - انظر : محمد العفناوي – تعريف الخلف ب الرجال العذبة : مؤسسة الرسالة – بيروت – ط ٢ – ١٩٨٥ – ص ٢٠-١
- ٢ - انظر : ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري (جمع وتحقق د. ذكريها صيام) ديوان موجـ. الجزائر ١٩٨٨ – ص ٦٥ .
- ٣ - انظر : د. عبدالرحمن العجلاني – تاريخ الجزائر العـام: دار الثقافة – بيروت ١٩٨٢ – ص ٣٧-٣
- ٤ - انظر : المرجع السابق – ص ٤٠٣-٢ .
- ٥ - احمد توفيق المدنـي – حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا – المؤسسة و. د. – الجزائر – ط ٣ – ١٩٨٤ – ص ٩٦
- ٦ - د. عبدالرزاق قسمـ - عبد الرحمن العجلاني والتصوف - الشركة و. د. - الجزائر ١٩٧٨ - ص ١٣ .

- ٧ - د- أبو القاسم سعداته - تاريخ الجزائر الثقافي - ص ١٣١-١ .
- ٨ - انظر : د- عبدالرزاق قسوم - عبدالرحمن الشعالي والتتصوف (هامش) ص ٢٥ .
- ٩ - انظر : وليم بيبرس - الجزائر في عهد رياض البحر - ترجمة : د- عبدالقادر زبادية - ص ٣١ .
- ١٠ - حق الرسالة ونشرها : د- أبو القاسم سعداته - ابيات وأدلة في تاريخ الجزائر - ص ٢٠٨-١ .
- ١١ - مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار - تحقيق : احمد توفيق المدنى - ص ٨٥ .
- ١٢ - ذكر في رسالته التي بين ابيتنا الجهات التي وجه إليها رسائله .
- ١٣ - انظر : المرحوم توفيق المدنى - حرب الثلائة ستة - ص ٩٦-٩٣ .
- ١٤ - انظر : نص الرسالة : ابيات وأدلة في تاريخ الجزائر - ص ٢٠٩-١ (سبقت الاشارة اليها) .
- ١٥ - انظر : د- قسوم - عبدالرحمن الشعالي والتتصوف - ص ٢٥ .
- ١٦ - انظر : الشيخ المهدى اليعميدى - الجزائر في التاريخ - ص ١٢٤-٤ .
- ١٧ - انظر : الجزائر في التاريخ - ص ١٢١-٤ .
- ١٨ - انظر : حرب الثلائة ستة - ص ٩٥-٩٣ - وتاريخ الجزائر الثقافي - ص ١٣٣-١٣١ .
- ١٩ - انظر : تاريخ الجزائر الثقافي - ص ١٣١-١ ، وانظر: الجزائر في التاريخ - ص ١٣٦-٤ .
- ٢٠ - انظر : تاريخ الجزائر الثقافي - ص ٦٦-٦ .
- ٢١ - انظر : رحلة الفلسفى - هامش ٩٦ ، وابن مريم ، البستان في ذكر الاوليساء والعلماء بتلمسان - ص ٧٤ .
- ٢٢ - انظر : تعريف الفلك برجال السلف - ص ١٠٣-١٠٣ .
- ٢٣ - انظر : ميلاد عيسى - اليالوتة (باللغة الفرنسية) المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر ١٩٨٦ - ص ٦ .
- ٢٤ - تعريف الفلك برجال السلف - ص ١٠٦-٢ .
- ٢٥ - انظر : الجزائر في التاريخ - ص ١٨١-٤ .
- ٢٦ - انظر : تاريخ الجزائر الثقافي - ص ٤٧٠-١ .
- ٢٧ - انظر : محمد بن علي شفيب - أم العواشر في الماضي والحاضر ، تاريخ سينطيني ، مطبعة البىث ، قسنطينة ، ص ٣٣١-٣٣٦ .
- ٢٨ - انظر : الجزائر في عهد رياض البحر - ص ٣١ .
- ٢٩ - انظر : تعريف الفلك برجال السلف : ٤٩٠-٤٨٩/٢ ، وانظر : الجزائر في التاريخ ١٣٨٤-٤ .
- ٣٠ - حققها ونشرها : د- أبو القاسم سعداته - مجلة الثقافة (الجزائرية) عدد ٥١ - سنة ١٩٧٩ - ص ٢٩-٢١ .
- ٣١ - انظر : تاريخ الجزائر الثقافي - ص ٤٧١-١ .
- ٣٢ - انظر : البستان لابن مريم - ص ٢٨٨-٢٨٧ .
- ٣٣ - انظر : تاريخ الجزائر الثقافي - ص ٤٧١ .
- ٣٤ - انظر : ترجمته وشعره الصوفي في تعريف الفلك برجال السلف .
- ٣٥ - انظر : تاريخ الجزائر الثقافي - ص ١٩٨-١ .
- ٣٦ - انظر : الرجع السابق - ص ٤٦٦-٤ .
- ٣٧ - بدات ملامح الشعور بالوطنية تظهر في كتابات بعض الجزائريين آنذاك المهدى المثمنى ، قال الورتلانى : « وصلنا إلى مدينة سينطيني وهي مدينة في وطننا ...» الرحلة الورتلانى - ص ٦٨٥ .

- ٣٨- انظر : عبدالقادر المشرقي الجزائري - بهة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين - تحقيق : محمد ابن عبد الكريم - دار مكتبة العيادة - بيروت (٥٠) من ١٢٨ .
- ٣٩- وانظر : حرب الثلاثمائة سنة - ص ٣١٠-٣٠٢ .
- ٤٠- المجلة الأفريقية - عدد ٣١ - السنة السادسة جانفي - ١٨٦٢ - ص ١٦ .
- ٤١- الرجع السابق - ص ١٦ .
- ٤٢- الراجع نفسه : ١٧ ، والرسالة مؤرخة بسنة ١١٧٤ .
- ٤٣- انظر : تاريخ الجزائر الشفافي - ص ١/٨٤-٨٥ وفيرة .
- ٤٤- مثل عائلة الفكون يقتبسونه .
- ٤٥- ده عامر النجار ، الطرق الصوفية في مصر - دار المعارف بمصر - ط ٣/١٩٨٩ ، ص ٤٢ .
- ٤٦- انظر : تاريخ الجزائر الشفافي - ص ١٨٣-١ .
- ٤٧- المقدم : هو المرید الذى يقلمه الشیخ على فیوه من المریدین لینتوب عنه في القيام بكل ما يخص شؤون الشیخة او الزاوية .
- ٤٨- انظر لمذهب اهل التصوف : مكتبة الكليات الازهرية بالقاهرة - ط ٢ ، ١٩٨٠ - ص ٧٨ .
- ٤٩- انظر : سمع عاطف الزين - الصوفية في نظر الاسلام - دار الكتاب اللبناني - ط ٣ ، ١٩٨٥ - ص ٤٤٥ .
- ٥٠- رواية ابن مريم في : البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان - ص ١١٠ وما بعدها ، ورواية ده عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر - دار المعارف بمصر - ط ٣ ، ١٩٨٩ - ص ١١٥ .
- ٥١- انظر : الصوفية في نظر الاسلام - ص ٥٤٦ .
- ٥٢- انظر : الصوفية في مصر - ص ١١٤ .
- ٥٣- انظر : الصوفية في نظر الاسلام - ص ٥٤٦-٥٤٧ .
- ٥٤- انظر : فرج محمد فرج : القليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين - ص ١١٢ .
- ٥٥- انظر : ترجمته في الرحالة الورتلانية .
- ٥٦- انظر : تاريخ الجزائر الشفافي - ص ١/٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٤ .
- ٥٧- انظر : أبو القاسم بن هيدالجيار الفجيجي - الفريد في تقييد الشريد وتوطيد الوبييد - تحقيق وتقديم : ده هيدالهانى الشفافي - مطبعة النجاح الجديده - الدار البيضاء - المغرب - سنة ١٩٨٣ - ص ١٨ .
- ٥٨- انظر : تاريخ الجزائر الشفافي - ص ٢٨٧-٢٨٧ .
- ٥٩- نفس الرسالة في : ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر - ص ٢٠٨-١ (سبقت الاشارة اليها) .
- ٦٠- انظر : المكتوب - منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية : ١١ ، وانظر : تاريخ الجزائر الشفافي من ٢٨٧-٢٨٧ .
- ٦١- انظر : المرجع السابق - ص ٣١٢-١ .
- ٦٢- انظر : ده اسماعيل العربي - الدراسات العربية في الجزائر - ص ٦٧ .
- ٦٣- انظر : الدراسات العربية في الجزائر - ص ٦٧ ، وانظر : عبد الملاك مرتضى - فتوح النثر الادبي - ص ٣٣ .
- ٦٤- لأن المقام لا يتسع لها هنا .
- ٦٥- البستان : تحقيق : ده محمد بن أبي شنب - المطبعة الشعالية - الجزائر - ١٩٠٨ - ص ٦ .

- ٦٦- في مؤلفه : منشور الهدایة في كشف حال من ادهم العلم والولاية - تحقيق : د. ابو القاسم سعاده - دار  
الغرب الاسلامي - بيروت - ط ١٩٨٧ - ص ٣٢ .
- ٦٧- منشور الهدایة : ٣٢ .
- ٦٨- المصدر السابق - ص ٣٧-٣٥ .
- ٦٩- الفصل الثالث من المنشور - ص ١١٧ .
- ٧٠- الفصل الأول من المنشور - ص ٣٥ .
- ٧١- المصدر نفسه - ص ١٤٧ .
- ٧٢- يقصد (يشيفه) : الشيخ طراد وكان قد تحدث عنه الفكون وعمن علاقته مع محمد سامي اليوني ووصفه  
« يكتب المتلخصة » ، منشور الهدایة - ص ١٦١ وما يعلمه .
- ٧٣- العبارات التي بين قوسين كلها للفكون : منشور الهدایة - ص ١٦٤-١٦٥ .
- ٧٤- المصدر السابق - ص ١٤٧ .
- ٧٥- نزهة الانتظار في فضل علم التاريخ والاخبار .
- ٧٦- نحلة الليب يأخبار الرحللة الى العبيب .
- ٧٧- حققها ونشرها : د. ابو القاسم سعاده - المؤسسة الوطنية للفنون المطبوعة - الجزائر ١٩٨٣ .
- ٧٨- عبد الله العياشي - طبع حجري - فاس ١٣١٦ هـ (مفربن الأصل ، من تلاميذ الفكون) .
- ٧٩- تعريف الخلف ب الرجال السلف (سبقت الاشارة اليه) .
- ٨٠- انظر : منشور الهدایة - ص ١١٨ .
- ٨١- المصدر نفسه - ص ١٢٢ ، وانظر : الجزائر في التاريخ - ص ١٨٥-١٨٤ .
- ٨٢- منشور الهدایة - ص ١٢٢ .
- ٨٣- راجع آياتا في ذلك - منشور الهدایة - ص ١٤٤ وغيرها .
- ٨٤- المصدر السابق - ص ١٣٢ .
- ٨٥- انظر : تعريف الخلف ب الرجال السلف .
- ٨٦- مصطفى باش تارزي - الملح الربائية ، شرح المللومة الرحمانية - طبعة تونس ١٣٠٨ هـ .
- ٨٧- نحلة الليب يأخبار الرحللة الى العبيب .
- ٨٨- انظر : المنشور كاملاً في مذكرات الحاج احمد الزهار - ص ١٧٦ (وكان شاهد عيان) .

★ ★ ★

# رسائل عمر بن الخطاب في تدبير الجيش

د. إحسان هندي

المعروف أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان من أعدل الغلفاء وأجرأهم في نصرة الحق واغاثة المظلوم ، ولكن الشيء غير المعلوم عنه ، أو الذي لا يعلمه الا ندرة من الباحثين ، هو موهبته العسكرية ، بدل استراتيجية اذا صح التعبير ، لانه كان يسيّر جيوشه لتحقيق اهداف معينة ضمن خطة استراتيجية محكمة .

وإذا كانت الدولة العربية في زمانه تضاعفت مساحتها عمما كانت في زمن سلفه أبي بكر ، وإذا كانت المعارك التي خاضها العرب في عهده أغلبها – إذا لم نقل جميعها – معارك ظافرة ، فإن السبب في ذلك لا يرجع الى عبرية قادة جيوشه فقط ، وإنما الى خططه الرائعة ووصاياه العكيمة والشاملة أيضاً التي تنم عن ذهنية موسوعية ووقداده .

فالى جانب وصيته في (القضاء) التي ما زالت مبادئها صالحة للتطبيق حتى اليوم في مجال أصول المحاكمات والآثبات والبيانات ، هناك وصايا مشهورة له في مجال تدبير الجيش ، ويأتي على رأس هذه الوصايا ثلاثة :

- ١ - وصيته الى سعد بن أبي وقاص عن لما واجهه لفتح العراقين في أصول التعبئة والمسير باتجاه العدو .

- ٢ - وصيته الى أبي عبيدة بن البراح في قوانين العرب الواجب التقيد بها في مجال التعامل مع العدو .

٣ - وصيته الى قادة الفتوح عند تسليمهم الاعلام بخصوص اخلاقيات الجند .  
وها نحن نثبت نصوص هذه الوصايا الثلاث مع شرح ما غمض منها .

\* \* \*

### أولاً - وصية عمر الى سعد بن أبي وقاص في التعبئة :

يقول عمر بن الخطاب في رسالته الى سعد بن أبي وقاص لما وجهه الى فتح العراقيين سنة ١٣ هـ :

« وترفق بالسلفيين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يُتعيمهم ، ولا تُنصر  
بهم عن منزل يرافق بهم ، حتى يبلغوا دعوه والسفر لم ينقص من قوتهم ،  
فانهم سائرون الى عدو مقيم حامي الانفس والكراع<sup>(١)</sup> ، وأقم بينك في كل  
جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحه يُعيون فيها أنفسهم ويرثمون<sup>(\*)</sup> أسلحتهم  
وأمتعتهم<sup>(٢)</sup> . ونحو منازلهم عن قرى أهل الصلح والنذمة فلا يدخلها من  
 أصحابك إلا من ثق بدينه، ولا يَرِزَّ<sup>(\*\*)</sup> أحداً من أهلها شيئاً فان لهم حرمة وذمة  
ابتليتم باللوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً<sup>(٣)</sup> ،  
ولا تستنصروا على أهل المرب بظلم أهل الصلح<sup>(٤)</sup> .

وإذا وطئت أرض العدو فأذك<sup>(\*\*\*\*)</sup> العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك  
أمرهم<sup>(٥)</sup> . ول يكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن الى نصعه  
وصدقه ، فان الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقت في بعضه ، والفاش عين  
عليك وليس عيناً لك<sup>(٦)</sup> . ول يكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر  
الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أ Maddahem ومرافقهم ،  
وتتبع الطلائع عوراتهم<sup>(٧)</sup> وتنق للطلائع أهل الرأي والباس من أصحابك ، وتغير  
لهم سوابق الغيل فان لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك<sup>(٨)</sup> واجعل أمر  
السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، لا تخس بها أحداً يهوى فيضيئ  
من رأيك وأمرك أكثر مما حايت به أهل خاستك<sup>(٩)</sup> . ولا تبعثن طليعة  
ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أوضيع أو نكایة<sup>(١٠)</sup> . فإذا عاينت العدو

(\*) رمه : أصلعه . (\*\* رداء ماله : أصاب منه شيئاً . (\*\*\*) ذاكى عليه العيون : ارسل عليه الطلائع .

فاصضم إليك أقاصيك وطلائمه وسراياك واجمع اليك مكيدتك وقوتك<sup>(١١)</sup> ، ثم لا تعالجهم المناجزة ما لم يستدركه قتال حتى تُبصر عوره عدوك وتقاتله<sup>(١٢)</sup> وترى الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوه كصنعته به<sup>(١٣)</sup> ، ثم أذكِ أحراسك على عسكرك وتيقظ من البييات جهدهك<sup>(١٤)</sup> ، والله ولـي أمرك ومن معك ولـي النصر لكم على عدوكم وهو المستعان<sup>(١٥)</sup> .

### □ حواشـي الوصـيـة الأولى :

١ - يطلب عمر من سعد في بداية الوصية أن يترفق بال المسلمين في السير ، وذلك خيبة على جند المسلمين وعلى روحهم المعنوية حيث إن المسافة بين العجاز وال العراق طويلة ( نحو ١٥٠٠ كم ) والغاية من هذا هي وصول المسلمين إلى عدوهم وهم على أحسن حال من النشاط وموفور القوة ، لأن السفر الطويل دون راحة يجعلهم أقل قدرة على القتال من العدو المقيم في أرضه والذي غالباً ما يكون قوياً بجنده وعتاده « حامي النفس والكراء » .

٢ - ثم يوصي عمر سعداً بأن يعسكر بجنته مدة يوم وليلة والمقصود هنا نهار وليلة أي ٢٤ ساعة ) في كل أسبوع ، وذلك لكي يعتني الجندي بتنظيمهم وصيانة أسلحتهم ، وهذا نظر صائب فيما نعتقد ، ولاسيما إذا أخذنا في العسبان المشرقة التي كان يسببها السفر في تلك الأيام وتلك الظروف . وبالطبع ليس هناك ما يمكن من اختصار مدة الراحة هذه إذا دعت لذلك أسباب مهمة ، كما حصل لخالد بن الوليد عندما انتطلق بجنته من العراق إلى الشام ، فقطع المسافة بمدة أسبوع دون أي توقف .

٣ - ويوصي عمر قائده بأن يبعد أماكن عسكرة جنده عن قرى أهل الصلح ( وهو من ارتبطوا بهم صلح مع المسلمين يسمح بنشر الدعوة الإسلامية في بلادهم مقابل حماية المسلمين لهم وعدم المساس بعريتهم في عقيدتهم وتأديبهم مراسم عباداتهم ) . والغاية من ذلك تجنب اعتداء أحد أفراد جند المسلمين على واحد من أهالي دار الصلح في شخصه أو ماله أو عرضه . وإذا اضطرب قائد الجيش الإسلامي لارسال بعض جنده إلى بلدة من بلاد أهل الصلح فيجب أن يختار لذلك من يثق الثقة التامة في دينه ، لأن عقد الصلح ينشئ حقوقاً وواجبات

متبادلة ، وفي هذا يقول عمر : « فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوه خيراً » .

وهذه العبارة في وصية عمر مشتقة من الآية الكريمة : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا ، وَلَمْ يَظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ، فَاتَّمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمُ الَّتِي مَدَّتُهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَقْنِينَ » (سورة التوبة – الآية رقم ٥) .

٤ - وأما عبارة « ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح » فتحتوي مبدأ يشكل واحداً من أهم مبادئ القانون الدولي في هذا العصر ، إذ إنّه لا يجوز لقائد الجيش الإسلامي أن يضحي بأرواح سكان دار الصلح أو بأموالهم أو حتى بحقوقهم المعنوية في سبيل التمكن من الانتصار على سكان دار الحرب (دار الحرب هي الأقطار المتاخمة لدار الإسلام التي لم يرض أهلها الدخول في الإسلام ولا عقد صلح مع المسلمين ، فإذا عقدوا مثل هذا الصلح أصبحوا دار صلح ، وإذا لم يرضوا ذلك بقوا دار حرب ، وإذا فتحت دار الإسلام أراضيهم عنوة يصبحون جزءاً من دار الإسلام ) .

وهذا المطلب الأخلاقي يستند بلا ريب إلى الأحكام الأساسية في الإسلام ولا سيما إلى الآية الكريمة : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا » (سورة الأسراء – الآية رقم ٣٤) .

٥ - ثم يوصي عمر قائد جيشه بأن يعمل بمجرد دخوله أرض العدو إلى بث عناصر الاستخبارات (إذكاء العيون) وذلك لثلا يخفى عليه من أمر عدوه شيء . وينصح عمر في هذا المجال بالاستعانة بمدير استخبارات من المسلمين أو حتى من أبناء المنطقة المفتوحة « أهل الأرض » بشرط أن يكون من الموثوقين .

٦ - ولكي يكون عنصر الاستخبارات موثقاً يتبين أن يكون صادقاً ، فهو إذا كان كاذباً أو غاشاً فإن ضرره لا يدأكثراً من نفعه لأنّه قد يكون عندئذ عيناً للعدو أكثر من أن يكون عيناً للصديق ، أو كما يقول عمر نفسه : « الغاش عين عليك وليس عيناً لك » ، وبهذا يكون عمر قد فطن منذ ذلك الوقت إلى احتمال وجود عملاء الاستخبارات المزدوجين DOUBLE - AGENTS من يعملون لنا وللمعدو في الوقت نفسه .

٧ - ثم يوصي عمر سعداً بالاكتار من العذر عند الدنو من جيش العدو ، ونلك بالأكتار من الطلائع والسرايا وهي الوحدات المتقدمة من الجيش . ومهمة (الطلائع) تختلف جزئياً عن مهمة (السرايا) وذلك أن المهمة الرئيسية للطلائع هي الاستطلاع لمعرفة التغيرات الموجودة في جيش العدو « وتتبع الطلائع عوراتهم » .  
وأما السرايا فمهمتها الرئيسية هي الاشتباك مع العدو ، ولا سيما القضاء على « إمداداته ومرافقه » قبل وصولها إليه .

٨ - وبما أن لوحدات الطلائع مهام خاصة لذا يجب انتقاء « أهل الرأي والباس » لها ، وهذا يعني اختيار جند هامن الأقواء الشجعان ذوي التدبير والخيالة ، حتى إذا اصطدم بهم العدو كانت هذه العناصر الجيدة ، المتمرسة هي أول ما يصطدم به من القوات الصديقة ، وهذا نظر صائب وسلم ، وحكمة لا تزال حتى اليوم واجبة التنفيذ .

٩ - ويجب انتقاء عناصر السرايا بالعناية نفسها ، حيث ان هؤلاء يلزم أن يكونوا من « أهل الجهاد والصبر على الجبال » ، كما يجب أن تُسند قيادتهم إلى أحد الشجعان المليامين . وعلى أمير الجيش أن يتعاشى معهابة أحد أقاربه أو رجال خاصة فيعينه لهذه المهمة اذا لم يكن أهلاً لها ، وذلك لأن الضرر الذي سيسببه هذا التعيين يفوق بكثير المنفعة التي يمكن أن تتحققها المعهابة والمصلحة الخاصة للitanan دفعها لهذا التعيين .

١٠ - وإذا كان أفراد وحدات الطلائع والسرايا من المتمرّسين في شؤون الجهاد والجبل ، فهذا لا يعني أن يوسع الأمير أن يلقى بهم إلى التهلكة ، بل عليه أن يتجنّب إرسال طليعة أو سرية في مهمة تتعرض فيها إلى الهزيمة أو الضياع كما يقول عمر في وصيته :

« ولا تبعن طليعة ولا سرية في وجه تتغوف في غلبة أو ضيعة أو نكارة » .

١١ - وعند حدوث التّماّس مع العدو ينصح الخليفة عمر أمير جيشه بأن يعمل على تجميع قواته وتقليل جهة انتشارها ، وذلك لئلا يستفرد العدو بسرية منعزلة في المقدمة أو المجنبة فيقضى عليها بسهولة ، وكذلك للتمكن من حشد كامل القوى الصديقة وزجها في المكان المناسب من جهة أخرى .

١٢ - وينصح عمر سعداً بـألا يبدأه مُناجزة العدو - أي مقاتلته - وبأن يترك للعدو مهمة البدء بالخطوة الأولى . والغاية من ذلك ليس ترك المبادحة للعدو - كما قد يتبادر إلى الذهن - وإنما الكي يصرّ الأمير « عورة عدوه ومقاتله » - أي نقاط ضعفه - فيوجه قوتـه الضاربة بـاتجاهها .

ويبقى للأمير مع ذلك حق البدء بـمُناجزة العدو « اذا استكره قتال » ، أي اذا دعت لذلك ضرورة قتالية معينة ، كأن يستغل فرصة سانحة لـمُناجـة العدو وأخذـه على حين غـرة ، وقدـيـما قـيل « الهجوم خـير وسـائل الدـفاع » .

١٣ - ومن الطبيعي أن الهجوم على العدو يجب ألا يتم إلا حسب خطة حربية معينة ، وهذه الخطة يتم وضعـها دون مراعاة عدة عـناصر أهمـها عدد العدو وـتسليـحـه ، وـعدد الصـديـقـ وـتسليـحـه ، والـهدف من المـعرـكة ، والـوقـت الذي تـتمـ به ، وـطبيـعـة الأـرـض . وقدـركـز عمرـ في وصـيـته علىـ هـذا العـاملـ الآخـير فـنـصـحـ سـعـداً بـأن « يـعـرـفـ الأـرـضـ كـلـاـكـمـعـرـفـةـ أـهـلـهـاـ » ، وـذـلـكـ لـكـيـ تـأتـيـ خطـةـ الـعـربـيـةـ مـتـلـائـمـةـ معـ المـطـيـاتـ التـيـ تـكـفـلـ نـاجـحـاـ .

١٤ - وأخيراً يـنـصـحـ عمرـ قـائـهـ أـنـ يـأخذـ حـذـرهـ مـنـ المـناـجـاتـ اللـيلـيـةـ : « وـيـتـيقـظـ مـنـ الـبـيـاتـ جـهـدـكـ » ، وـيـكـونـ ذـلـكـ يـأخذـ الـعـيـطـةـ وـالـاـكـثـارـ مـنـ الـعـسـسـ ( العـرسـ اللـيلـيـ ) وـبـثـ الـكـمـائـنـ حـولـ مـعـسـكـ الرـسـلـيـنـ .

١٥ - وينهي العليةـ عمرـ وصـيـتهـ بـالـدـعـاءـ لـسـعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ بـأـنـ يـكـونـ اللهـ وـلـيـهـ - أيـ نـصـيـرـهـ - وـولـيـ جـنـدـ الـدـيـنـ مـعـهـ ، وـبـأـنـ يـقـودـهـ إـلـىـ النـصـرـ عـلـىـ الـعـدـوـ وـعـنـدـ لـقـائـهـ بـهـ ، وـقـدـ تـمـ هـذـ النـصـرـ بـالـفـعـلـ فـيـ مـعرـكـةـ الـقـادـسـيـةـ عـامـ ١ـ لـلـهـجـرـةـ .

\* \* \*

### ثانياً - وصية عمر في شريعة العرب وقوانيتها :

وفي هذا المجال نجد عمر بن الخطاب يوصي قائدـهـ أـبـاـ عـبـيـدةـ بـنـ الـجـراحـ لـمـاـ وجـهـهـ إـلـىـ فـتـحـ بـلـادـ الشـامـ بـمـاـ يـلـيـ :

« بـسـمـ اللهـ وـعـلـىـ عـوـنـ اللهـ (١) ، وـامـضـواـ بـتـأـيـيدـ اللهـ بـالـنـصـرـ وـبـلـزـومـ الـعـقـ وـالـصـبـرـ (٢) ، فـقـاتـلـواـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ مـنـ كـفـرـ بـالـلهـ (٣) وـلـاـ تـمـتـدـواـ أـنـ اللهـ لـاـ يـحـبـ

المعتدين<sup>(٤)</sup> ٠ لا تجبنوا عند اللقاء<sup>(٥)</sup> ، ولا تمثلوا عند القدرة<sup>(٦)</sup> ، ولا تسرفوا عند الظهور<sup>(٧)</sup> ، ولا تقتلوا هرّماً ولا امرأة ولا وليداً<sup>(٨)</sup> ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند حُمّة النهضات<sup>(٩)</sup> ، وفي شن الفارات<sup>(١٠)</sup> ، ولا تَغْلُوا عند الغنائم<sup>(١١)</sup> ، ونَزَّهُوا الجهاد عن غرض الدنيا<sup>(١٢)</sup> ، وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايَّعَتْ به<sup>(١٣)</sup> ، وذلك هو الفوز العظيم»<sup>(١٤)</sup> ٠

ـ هذا ومن الجدير بالذكر أن عُمراً فاه بوصيته تكاد تمثل هذه في الأحكام والألفاظ أمام الجيش المتوجه إلى العراق حين قال :

« بِسْمِ اللَّهِ وَبِعُونَهِ<sup>(١)</sup> ، انطَلَقُوا فِي رِعَايَةِ اللَّهِ فَانه لَا نَصْرَ إِلَّا مِنْهُ وَمِنْ التَّمْسِكِ بِالْعُقْدِ وَالصَّبْرِ<sup>(٢)</sup> ، قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَعْدَاءَ اللَّهِ<sup>(٣)</sup> ، وَلَا تَعْتَلُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِلِينَ<sup>(٤)</sup> ٠ لَا تَجْبَنُوا<sup>(٥)</sup> ، وَلَا تَمْثُلُوا<sup>(٦)</sup> ، وَإِذَا لَقِيتُمُ النَّصْرَ فَلَا تَتَعَلَّمُوا الْعَلُودَ<sup>(٧)</sup> ٠ لَا تَقْتَلُوا شَيْخًا وَلَا اُمَّةً وَلَا صَبِيًّا<sup>(٨)</sup> ٠

★ ★ \*

#### حواشى الوصية الثانية :

١ - يبدأ عمر وصيته لقائده الأمير على جيش الفتح بأن تكون عمليات الجهاز « بِسْمِ اللَّهِ وَعَلَى عَوْنَةِ اللَّهِ » لأن هذهالية بالذات هي التي تميز « الجهاد الإسلامي » عن العرب الأخرى، لأن العرب العاديين قد تستهدف المعدون أو التوسيع أو الانتقام أو كسب الشهرة ، في الوقت الذي لا يُسمى فيه الجهاد « جهاداً » إلا إذا كان في سبيل الله وباسمه .

٢ - فعندما يكون الجهاد في سبيل الله ونصرة كلمته ، يكون النصر محتملاً ، ولكن بشرط لزوم العق والصبر . وأهمية الصبر هنا تنبع من أن القتال كريهة ، والكريهة تحتاج إلى صبر وجلد حتى يتم النصر ( ليس من قبل المصادفة أن تكون كلمات الجلد والبلاد والتجدّد والمجالدة من اشتراق واحد في اللغة العربية ) ٠

٣ - وما كان القتال في سبيل الله فيجب أن يكون ضد من كفر بالله حسراً ، ولهذا لا يجوز قتال المسلم لل المسلم الا استثناء ، كعالة قمع العصيان وتأدبه قاطعي الطريق ، والقضاء على أعمال الرِّدَّة والفتنة .

٤ - ويوصي عمر قادة جنده بعدم الاعتداء ، لأن الله تعالى لا يحب المعتدين ( هناك عدة آيات في القرآن الكريم تمنع المذوأن وتأمر بدفعه وتنص على معاقبة المعتدين ) . وإذا طبقنا هذه المقاعدة على الحروب المعاصرة نستنتج منها ما يلي :

إنَّ القرآن يأمر بالدفاع عن النفس: «**وقاتلوا الذين يقاتلونكم**» ، ولكنَّه يربط ذلك بمنع الاعتداء : «**ولا تعذدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين**» ، ومن هنا يمكن الاستنتاج بأنَّ الإسلام يحث على القيام بالغرب الدفاعية وبالغرب الوقائية ( وهي الغرب التي نهاجم فيها العدو في عقر داره لكي نفشل هجومه قبل القيام به ) ولكنَّه لا يجيز الحرب الهجومية إلا إذا كان في ذلك مصلحة للدعوة الإسلامية ككل .

وأما بالنسبة للحروب المعدوانية **LES GUERRES AGRESSIVES** وهي التي يكون هدفها الوحيد هو التقتيل والتدمير، أو التوسيع وتحقيق المجد الشخصي ، أو السلب والنهب ، فقد منعها الإسلام بنصوص صحيحة في القرآن والسنة النبوية ، قبل أن تمنعها أحكام القانون الدولي المعاصر عبر القرار الصادر عن الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بخصوص تعريف العدوان في عام ١٩٧٤ .

٥ - ويوصي عمر بعد ذلك باظهار الشجاعة عند لقاء العدو : «**ولا تجبنا عند اللقاء لأن الشجاعة هي الطريق إلى النصر** ، وهي أمر معروف لدى العرب منذ الجاهلية ، وبعد الإسلام .

٦ - والمثلة - أي التمثيل بالعربي والقتلى - أمر يأبه الإسلام والأخلاق العربية ، ولنذا نجد أنَّ الرسول ﷺ قد نهى عنه قوله : «**إياكم والمثلة ولو بكلب عقور** » وهذا ما يؤكد عليه عمر في وصيته ، خيفة من أن تدفع شهوة الانتقام بعض المسلمين للتلمثيل بالعربي والموتي من أفراد العدو .

وهكذا يمكن القول ، بل التأكيد ، إنَّ الإسلام منع التمثيل بالقتلى والعربي (MUTILATION) وعدَّه جريمة ، قبل أن تمنعه اتفاقيات جنيف ولاهاري باثنين عشر قرناً على الأقل .

٧ - ويوصي عمر المسلمين «بألا يسرفوا عند الظهور»، ومعنى هذا ألا يتعدوا حدود التواضع بعد تحقيق النصر ، لأن هذا النصر من عند الله من جهة ، ولأنه ليس من المصلحة إيفاع صدور جند العدو بالتكبر والتعالي والزهو عليهم عند النصر ، من جهة ثانية .

٨ - إن العرب بين دولتين ليست الغاية منها أن تبييد إحداهما الأخرى إبادة كاملة ، وإنما النهاية منها قهر ها العسكرية فحسب ، لذا فإن مبادئه وقواعد القانون الدولي الإنساني المعاصر تميز بين (المعاربين LES BELLIGERANTS وهم جند العدو وقواته العسكرية وشبيه العسكرية و (غير المعارضين) .. وهم أفراد العدو غير المعارضين من كهول ونساء وأطفال .

وقد ميزت شريعة العرب الإسلامية بين المعارضين وغير المعارضين ، ودعت إلى التمسك بالروح الإنسانية ، حتى تجاه العدو .

ومن أقوال الرسول ﷺ في ذلك : «أنا نبي المرحمة وأننا نبي الملحمة» وهذا القول يلخص تلخيص بنية (القانون الدولي الإنساني) الذي يقوم على التوفيق بين الضرورات العسكرية (الملحمة) والروح الإنسانية (الرحمة) . وبما أن عنصر غير المعارضين يتمثل في المدنيين المسلمين ، ولا سيما الشيوخ والنساء والأطفال ، فقد نهى سيدنا عمر عن قتل هؤلاء صراحة بالقول: «ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا ولideaً» .

٩ - وإذا كان قتل الشيوخ والنساء والأطفال ممنوعاً صراحة في هذه الوصية ، فإن المقصود في ذلك هو «القتل المتعمد» بعد انتهاء المعركة ، وأما قتل هؤلاء عن غير قصد أثناء العمليات العسكرية فهو أمر لا يمكن العيلولة دونه ، حيث إن القذائف التي يرميها المسلمون على جيش العدو ومسكراته وأهدافه العسكرية لا يمكن التحكم فيها بشكل تصيب به المعارضين دون غيرهم ، ولهذا اكتفى عمر بالقول : «واتقروا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات» أي عند لقاء العدو واشتداد حدة القتال .

١٠ - والتوكى من قتل الشيوخ والنساء والأطفال يجب أن يتوخاه المسلمون ليس فقط «إذا التقى الزحفان» ، ولكن إذا قام المسلمون بتنفيذ إغارات على

معسكرات العدو وتجمعاته أو كما يقول عمر « وفي شن الفارات » ، ويقى  
« التوقي » هنا أخف من « النهي والمنع » الذي تحدثنا عنه في الفقرة (٨) .

١١ - يوصي عمر جنده بعد ذلك « بآلا يفلوا عند الفنائيم » ، ومعنى ذلك  
عدم ارتكاب جريمة « الفلو » ، والفلول هو الاحتفاظ بجانب من الفنمية وعدم  
تقديمه الى القسمة الشرعية والتي تكون عادة بمعدل الخمس لبيت المال  
وأربعة الأخماس الباقية لجملة المحاربين الذين شاركوا في المعركة .

هذا ومن الجدير بالذكر ، أن قانون العرب المعاصر لم يعد يجيزأخذ الفنائم  
الشخصية ، وبقى من الجائزأخذ الفنائم من الجيش المحارب باسم دولته ، إذا  
كانت هذه الفنائم ذات طابع عسكري (عتاد حربي ، خرائط ، خيول ... )  
أو يمكن أن تؤثر في المجهود العربي » .

١٢ - ويوصي عمر جنده بعد ذلك « بأن ينزل هوا الجهاد عن غرض الدنيا »  
وذلك لمنع التجاوزات التي يمكن أن تحدث عندما يكون الهدف من الجهاد  
غريضاً دنيوياً زائلاً . وهكذا إذا كان قانون العرب الإسلامي يبيح الفنائم فإنه  
لا يحل القيام بعرب في سبيل الحصون على هذه الفنائم فحسب ، لأن جميع  
الحروب التي لا يكون الهدف منها رفعة الدين والدفاع عن المقدسات تُعد ذات  
أغراض دنيوية زائلة ، ولهذا لا تكتسب طابع الجهاد ولا تأخذ حكمه .

١٣ - وإذا كان المسلمين يخسرون « فوائد مادية » معينة عندما ينزل هون الجهاد  
عن الأغراض الدنيوية الزائلة ، فإنهم يربعون بالمقابل فائدة دينية كبيرة ، هي  
الربع الحقيقي ، وفي هذا يقول عمر : « وابشروا بالربح في البيع الذي  
بايعتم به » .

١٤ - وأخيراً ينبه عمر رضي الله عنه الى القيام بفرضية الجهاد المكرس  
لخدمة الله تعالى ودعوته ، والمنزه عن أي هدف من الأهداف الدنيوية فيه الفوز  
العظيم للإنسان ، لأن الآيات القرآنية والستة النبوية قد أجمعـت على فضل  
الجهاد في سبيل الله ، والثواب الذي يحصل عليه الإنسان عند أداء هذه الفرضية على  
وجهها الشرعي .

## ● الوصية الثالثة :

وهي وصية كان عمر بن الخطاب يعرص على قراءتها على مسامع قادة الجندي عند تسلیمهم الأعلام ، وهي تنص خصوصاً على التمسك بالتقى و على أهمية هذه التقى في رفع المعركة ، ويقول فيها : « أما بعد ، فاني أمرك<sup>(١)</sup> ومن معك بتقوى الله على كل حال فان تقوى الله أفضلي العدة على العدو<sup>(٢)</sup> ، وأقوى المكيدة على العرب<sup>(٣)</sup> . وامرک ومن معك من الأجناد بأن تكونوا أشد احتراماً من العاصي منكم من عدوكم فان ذنوب الجندي أخوف عليهم من عدوهم<sup>(٤)</sup> ، وانا ينصر المسلمين بمعصية عدوهم الله ولو لا ذلك لم تكن لنا بهم قوة<sup>(٥)</sup> لأن عدتنا ليس كعدهم ولا عدتنا كعدهم<sup>(٦)</sup> ، فان استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة<sup>(٧)</sup> ، وألا ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا<sup>(٨)</sup> . واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم<sup>(٩)</sup> ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله<sup>(١٠)</sup> ، ولا تقولوا ان عدو نا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شر<sup>(١١)</sup> منهم كما سلط علىبني اسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفار المجروس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً<sup>(١٢)</sup> ، واسألاوا الله العزون على أنفسكم كما تسائلونه النصر على عدوكم<sup>(١٣)</sup> ، اسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم » .

### □ حواشی الوصية الثالثة :

- ١ - يخاطب عمر قائد الجيش باللهجة « الأمر » ، وليس بصيغة النصيحة أو الوصية فحسب ، فيقول : « اني أمرک ومن معك بتقوى الله » . وجاء الأمر بتقوى الله لأن تقوى الله عامة شاملة يمكن أن تتفرع عنها جميع قواعد قانون الحرب وأداب القتال في الاسلام ، وهكذا تشمل التقى فيما تشمل : العدالة ، منع الظلم ، منع الفساد والاعتداء على الأعراض ، معاملة العدو بروح انسانية ... الخ .
- ٢ - ليس عمر كبير العقيقة عندما رأى في تقوى الله آمنة الأسس التي يجب أن يتمسك بها المسلمون في حربهم ، لأنها « أفضلي العدة على العدو » وهي أساس التمسك والروح المعنوية في الجيش الاسلامي .

٣ - ويرفع عمر « التقوى » من حيث أهميتها في القيادة نحو النصر ، الى منزلة المكائد العربية التي يقوم بها كل جيش في سبيل الایقاع بالعدو .

٤ - بل ان عمر يأمر قائد الحملة والأجناد الذين معه بأن يكونوا أشد احتراساً من المعاصي من احتراسهم عند لقاء العدو ، لأن قلة الاحتراس عند لقاء العدو يمكن استدارتها لاحقاً ، وأما المعاصي فهي وباء يصعب اقتلاعه اذا استشرى في قلب الجندي .

٥ - ويتابع عمر وصيته فيبين لقائد الحملة وأفرادها أن ارتكاب العدو للمعاصي هو السلاح الأساسي الذي يمكن جند المسلمين من الانتصار عليه ، وأنه لو لا هذا الأمر لكانت الفيلة له ٠٠٠

٦ - لأن المسلمين لم يكونوا متساوين للعدو في القوة سواءً نظرنا الى الأمر من زاوية « العدد » أم من زاوية « العتاد » العدة ٠

٧ - وعلى هذا فان النصر لن يكون حليفاً لجيش المسلمين اذا تساوى مع جيوش الكفار في معصية الله ٠

٨ - وإذا كانت القوة الاسلامية ليست كافية للوقوف في وجه القوة المعادية ، فان تمسك المسلمين بالفضيلة هو السلاح الذي سيمكنهم من النصر عليهم ٠

٩ - يجب ألا يخامر المسلمين المقاتلين أى شك في وجود « رقابة علياً » عليهم وعلى تصرفاتهم ، فهناك « حفظة من الله يعلمون كل ما يفعلونه ويقومون به » ، ولهذا يجب أن يخجل هؤلاء المقاتلون من القيام بأى عمل لا يختلف مع التقوى الاسلامية والأخلاق الاسلامية ٠

١٠ - ويستخدم عمر هنا سلاح المنطق فيقول : لا يعقل في جند يحارب في سبيل الله أن يرتكب معصية تغضب الله لأن في هذا قضاء كاملاً على الثواب الذي يحطم به ٠

١١ - ولا يعفى المسلمون من التقيد بمبادئه الفضيلة والتقوى في حالة منازلتهم لعدو ظالم يرتكب المعاصي ، لأن الله سبحانه وتعالى قد ييلو الظالم بمن هو أشد ظلماً منه ، وذلك كما فعلبني إسرائيل لما ارتكبوا المعاصي فسلط عليهم من هو أظلم منهم وهو نبوخذنصر الذي فتك بهم ( من المعروف أن الكلدانيين كانوا يعبدون النار ولذلك يشير عمر اليهم باسم المجروس ) .

١٢ - ويربط عمر رضي الله عنه أخيراً في وصيته هذه بين نوعي الجهاد : الجهاد الأصغر بمنازلة العدو والانتصار عليه والجهاد الأكبر بالتلغلب على نزوات النفس وشهواتها فيقول : «اسألا الله العون على أنفسكم كما تسائلونه النصر على عدوكم » ، ولا يستثنى نفسه من هذا الدعاء حيث يتوجه إلى الله تعالى بقوله : « أسألا الله تعالى ذلك لنا ولكم » .



# جَلَالُ الدِّينِ السِّيُوطِيُّ \*

## إضاءات تحليلية في سيرته

د. عبد الله نبهان

وسمت هذا البعث بجلال الدين السيوطي : إضاءات تحليلية في سيرته ، وكانت النية متوجهة الى انشاء بعث يعنوان ( السيوطي في الميزان ) ولتكنى رأيت العنوان الثاني أجدر بكتاب ، فعدلت عنه الى العنوان الأول، لا لأنني أعتقدت عن سيرة السيوطي ، فهذا أمر نهض به السيوطي نفسه <sup>(١)</sup> ، وكتبه عنه غيره <sup>(٢)</sup> ، كما أنه سبق لي أن كتبت في الموضوع المذكور وحتم حوله في أكثر من موضع <sup>(٣)</sup> ، ولكن لا تحدث عن أهم العوامل الموجهة لمسيرة السيوطي في سيرة حياته ، بل بما من طفولته ووفاته أبيه ، وانتهاء بتصدره للتدريس والتصنيف وادعائه الاجتهاد وتعديل أمر الدين ، ولأضع اليدي على مفتاح هذه الشخصية التي شغلت وما زالت وستشغل باثارها عشرات الباحثين ، وقد نيل بتحقيق آثارها ودراستها عدد كبير من وسائل الماجستير والدكتوراه <sup>\*</sup> .

**كُفَّع** توفي والده كان له من العمر خمس سنين وسبعة أشهر ، وكان قد وصل في حفظه القرآن الكريم الى سورة التحرير <sup>(٤)</sup> ، وتولاه أصحاب أبيه ، وهو من علماء مصر - بعنياتهم ، فقد طلبه كمال الدين بن الهمام <sup>(٥)</sup> بعد وفاة أبيه وقرره في وظيفة أبيه بالشيخوخة <sup>(٦)</sup> ، وكان والد السيوطي مدرساً للفقه بالجامع الشيفونى ، وهكذا تحدد مسار الفتى قبل أن يملك ارادة التوجّه أو حرية الاختيار ، وأسعفته في هذه السبيل ذاكرة قوية وحافظة نادرة ،

•) قدم هذا البعث ابني ندوة السيوطي في جامعة مؤتة بالذكرى بالأردن ٦-١٠/١٩٩٦

وهما مما يقوّي الثقة ويعزّزها بالنفس ، وما يُمنح صاحبها شعوراً بالتفوق على الآخرين ، خاصة أن التحصيل آنذاك كان المعول فيه على الذاكرة ، زد على ذلك أن الفتى طبع على الدأب والثابرة ، وأوتى جلداً وصبراً ، فلم يتسلل الملل إلى نفسه ، ولم تصرفه صوارف الحياة وشواغلها عما هو فيه .

وكان ذكر والده الشيخ أبي بكر ، وما اتسم به من صلاح ، وما ناله من مكانة ، يتردد على أسماعه من شيوخه الذين هم أصدقاء أبيه أصلاً ، وأخذت نفسه تمتلىء اعتزازاً بأبيه ، وما عرف عن صلته الوثيقة بال الخليفة العباسى المستكفي بالله ، أبي الريبع سليمان بن الم توكل<sup>(١)</sup> ، وأنه - أي والده - كان أماماً لل الخليفة ، وهو الذي كتب له نسخة المهد<sup>(٢)</sup> ، وللخلفاء العباسين في القاهرة مكانة جليلة في نفس السيوطي<sup>(٣)</sup> ، فكانت مكانة والده التي ربما بالغ جلال الدين في تخيلها وتضخيمها واسباب الأهمية عليها هي القدوة المثلى للجلال ، فاجتمع له بذلك من الاستعدادات الطبيعية والعنائية التربوية والتسهيلات العلمية والاجتماعية والوظيفية مالا يجتمع لنفه إلا نادراً ، وهي كلها عوامل ولدت عنده رغبات جامحة إلى التفوق ، ولم يكن أماماً من مجال الا العلم ، تدريساً وتصنيفاً ، لذلك رأيناه بعد أن حصل أشياء من العلم ، كحفظ بعض المتنون الفقهية وما إليها ، قد بدأ يعبر بقلمه في التأليف<sup>(٤)</sup> ، واستواعت هذه التجربة حياته كلها وهو يصنف ويكتب ، بحيث يمكننا أن نعدد أسماء كتبه ونقول : هذه سيرة حياته ، لذلك نراه عندما كتب سيرته الموجزة في (حسن المعاشرة) ، وسيرته المبوسطة في (التعحدث بنعمة الله) يخصص الجزء الأكبر من السيرة لتعدد مؤلفاته ، ويدركها بتباهٍ وفخر ، ويقول: هذا عدا ما غسلته ورجعت عنه . فالحياة عنه هي التصنيف في ضروب المعرفة التي أحاط بها خبراً ، كالتفسير والحديث والفقه والتاريخ والنحو والمعاني والبديع وما إليها مما يدور في فلكها . وكان جلال الدين قد رَسَخَ العلوم الأساسية في ذهنه بحفظه للمتون التي تضبط أصول العلم على طريقتهم في ذلك العصر ، (احفظ المتون تجمع لك المتنون) ، وبعد أن ملا صدره بالقرآن الكريم قام بحفظ عدة متون ، فحفظ ( عمدة الأحكام)<sup>(٥)</sup> و ( منهاج النwoي)<sup>(٦)</sup> و ( الفية ابن مالك)<sup>(٧)</sup> و ( منهاج البيضاوي)<sup>(٨)</sup> ، وقال : انه عرض المتون الثلاثة الأولى عام ( ٨٦٤ هـ ) على شيخ الإسلام ،

علم الدين البُلْقيني<sup>(١٦)</sup> وعلى شيخ الاسلام شرف الدين المُنَّاوى<sup>(١٧)</sup> ، وعلى قاضي القضاة ، عز الدين العنبلي<sup>(١٨)</sup> ، وعلى شيخ الشيوخ ، أمين الدين الأنصارى<sup>(١٩)</sup> .

واني لا أستبعد أن يكون جلال الدين قد حفظ كل هذه المتنون ، فمن أتم حفظ القرآن في الثامنة كان على اتمام حفظ هذه المتنون في الخامسة عشرة أقدر ، ومن سار هذه السيرة المباركة في طلب العلم كان جديراً أن تتفتح أمامه سبله لا جهة ميسرة ، ولا سيما أن عيوننا ترعاه ، وقلوبنا تحنّه عليه ، وآخواننا لوالده ما زالوا على العهد ، يأخذون بيده ويقيلون عن رأته . وفي هذا العام نفسه (٨٦٤ هـ) أجيزة جلال الدين بحفظ الفية ابن مالك ، وفي العام التالي قرأها قراءة درائية من أولها إلى آخرها على الشيخ محمد بن موسى الحنفي<sup>(٢٠)</sup> ، وأجيزة بالافتاء والتدريس عام (٨٦٦ هـ)<sup>(٢١)</sup> ، وكان يحضر عدة مجالس علم في اليوم الواحد ، ويقرأ على عدة شيوخ<sup>(٢٢)</sup> ، حتى ليغيل إلى الناظر في سيرته أن الرجل لا يكاد ينام ، وخاصة أنه شرع يكتب سودات لبعض التصانيف ، فقد كتب شرحاً منشورةً للأجرمية ، أتبعه بشرح منظوم ، وشرح كتاب العمل للزجاجي ، ووضع شرحاً على الكافية الكبرى لابن مالك<sup>(٢٣)</sup> . الخ ، ثم غسل كل ذلك ، فربما كان يجرب مقدراته على التصنيف ويدرب قلمه على التأليف ، ولا شك أن همته كانت تدور بالطاحون ليكون مؤلفاً يذكره التاريخ في أعلام رجاله ، وليكون في المستقبل حديث الكتب ، كالشيخوخ الدين يقرأ كتبهم . وتدل أسماء مؤلفاته التي غسلها<sup>(٢٤)</sup> على توجهاته ، وعلى الطريقة التي سيعيها في التأليف ، وهذه المؤلفات أثبات أنه سيتجه اتجاهات علماء عصره ، إلى وضع العواشي ، وإلى وضع المتن وشرحه ، وإلى جمع الكتب وترتيب موادها ، وإلى اختصار الكتب الكبيرة ، وهكذا . . . . .

وتتابع جلال الدين قراءة الفقه من شوال عام (٨٦٥ هـ) ، ولزم دروس شيخه قاضي القضاة ، علم الدين صالح البُلْقيني ، وكان يقرأ من كل كتاب قسماً أو قطعة ، والفقه هو العلم الذي يؤهل صاحبه للافتاء والقضاء ، وينفعه امتيازاً في المجتمع ، ولم يثبت جلال الدين ، كما قدمنا ، أن أجيزة ، وهو في السنة الثامنة عشرة عمره ، وتأهباً لشغل منصبه مكان أبيه ، مدرساً للفقه بالجامع

الشيخوني ، ودعا شيخ الاسلام البُلْقِيني ليحضر عنده في أول يوم تشريفاً ، واحتفل جلال الدين بدرسه الأول احتفالاً كبيراً ، وأعدّ له عدته ، وكانت نفسه مفعمة بالرعب من جلال الموقف ، خاصة أن بعض الناس من حوله كذبوه لما أخبرهم بنية شيخ الاسلام حضور درسه ، قال ( فلم يصدق أكثر العسدة )<sup>(٢٥)</sup> .. وذهب الجلال وزار مقام الامام الشافعی<sup>(٢٦)</sup> ، وتسلّم به ودعا ربها أن يأخذ بيده.

وفي يوم الثلاثاء ، التاسع من ذي القعدة عام (١٤٦٧هـ) حضر شيخ الاسلام البُلْقِيني ، ومعه نفر من الشيوخ ، وجمهور من طلبة العلم ، وأضاف السيوطي أن فيهم جمهوراً من الحسنة ، ليشهدوا أول درس لجلال الدين ... ولم يك السيوطي لانشاد خطبة او تجهيز كلمة ، بل وجد ان من اصلاح الطرق وأراضها الشیخ الاسلام ومن معه ان يفتح درسه بخطبة الإمام الشافعی التي صدر بها كتابه العظيم «الرسالة»<sup>(٢٧)</sup> ، وهي خطبة اتممت نفس الكلام وبديع القول ، وصيغت بأسلوب رائع وعبارة معجبة بليغة ، فلا بدّع ان كانت تحفظ وتفتح بها الغطب والدروس ، لذلك سار السيوطي على سنن شيخ البُلْقِيني ، الذي سار بدوره على سنن أبيه وأخيه في الافتتاح بها ... ولم يعدثنا جلال الدين عن وقوع درسه في نفوس الحاضرين ، وبيدو انه كان راضياً عما قيله بين يدي شيخه، شيخ الاسلام .

ولم ينقطع جلال الدين عن نظامه الصارم في طلب العلم ، وحضور مجالس الشيوخ ، وكان درسه الأول كان مجرد إشعار بكونه مجازاً ، ثم تابع الطلب والاشتغال على نفر من علماء العصر ، كقاضي طرسوس علاء الدين<sup>(٢٨)</sup> ، وشيخ الاسلام شرف الدين أبي زكريا يحيى بن محمد المُنَاوِي<sup>(٢٩)</sup> ، قاضي القضاة ، وسيف الدين محمد الحنفي<sup>(٣٠)</sup> . ولزم دروس الشيخ معجبي الدين محمد بن سليمان ابن سعد بن مسعود الكافيجي<sup>(٣١)</sup> ، الحنفي الرومي ، ولازمه أربعة عشر عاماً ، أخذ عنه فيها الفنون قراءة وسماعاً من تفسير وحديث وأصول فقه وعربيّة ومعان ، وسمع عليه (الكشف) وحواشيه وكذلك المتنى لابن هشام ، واستفاد من شيخه كثيراً ، قال : ( ما دخلت إليه يوماً من الأيام إلا استفدت منه ما لم أسمعه قبل ذلك من نفائس التحقيقات الجليلة )<sup>(٣٢)</sup> ، وقد أجاز الكافيجي السيوطي بتدريس سائر الفنون وقرر مدرساً للحديث بالشيخوخة بعد وفاة الفخر المأقُسسي<sup>(٣٣)</sup> .

كان الكافيجي المذكور من كبار علماء عصره بالمعنى ، وحاول أن يدفع بمربيه السيوطي في طريق علوم المعقول ، فطلب منه أن يشرح له كتابه (أنوار السعادة في علوم الكلام) ، وحاول ذلك جلال الدين ، لكنه أحجم عن الغوص في

هذا العلم ، فاعتذر من شيخه ، وقيمة هذا الغير أنه يدل على انصرافه عن علوم المعمول ، هذا الانصراف الذي لم يثبت أن تحول إلى عداء من غير ما سبب مقنع ، وكانت ثمرته أن ألف كتابه (صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام )<sup>(٣٤)</sup> ، وكانني بالعلوم التقليدة من حديث وفقه وما إليها قد استغرقت السيوطى كلياً ، فلم يتقبل ذهنه ذلك الضرب من العلوم العقلية ، كالمنطق وعلم الكلام ، مع أن كبار الشافعية من يعدهم السيوطى ، وبهم يأتسى ، كانوا من علماء الكلام والمنطق إلى جانب الفقه وأصوله . ولا يذهب بننا الظن إلى أن السيوطى تفرغ للتلقي من شيخه الكافىجى ، لقد كان يطلب العلم موزعاً في كل اتجاه ، ويقرأ في علم الميقات والطب ، ويلازم الشمنى<sup>(٣٥)</sup> ، ويقرأ عليه الحديث والعربيـة والمعانـى ، كما أنه صنف شرحاً لألفـية ابن مالـك قـرظـه له شـيخـه ، واستـمر مـلازـماً شـيخـه الشـمنـى إـلـى وـفـاتـهـ عـامـ (٨٧٢ـهـ) ، وـرـثـاهـ بـأـرـبعـ قـصـائـدـ<sup>(٣٦)</sup> .

ولما كانت الرحلة ولقاء العلماء والرواية عنهم من الأمور العميدة عند السلف والخلف ، وفيها يجيز العلماء بعضهم بعضاً ، فقد قرر عزم السيوطى على الرحلة ، واتجه إلى مكة المكرمة عام (٨٦٩ـهـ) لأداء فريضة العج ، وألف كتاب (النحلة الزكية في الرحلة المكية) ، وبعد عودته قام برحـلة إـلـى دـمـياـطـ وـالـاسـكـنـدـرـيـةـ وـأـعـالـهـماـ ، وـصـنـفـ كـتـابـهـ (ـقطـفـ الزـهـرـ فـيـ رـحـلـةـ شـهـرـ)ـ ، وـجـلـالـ الدـينـ لـاـ يـهـتـمـ بـمـاـ يـهـتـمـ بـهـ الرـاحـلـةـ عـادـةـ ، وـلـاـ يـذـكـرـ مـشـاهـدـاتـهـ وـلـاـ يـسـجـلـ اـنـطـبـاعـاتـهـ ، فـالـرـحـلـةـ عـنـدـ كـلـهـاـ سـمـاعـ وـقـرـاءـةـ وـرـوـاـيـةـ وـاجـازـةـ ، وـقـدـ مدـحـهـ بـعـضـ مـنـ لـقـيـمـهـ فـيـ هـذـهـ الرـحـلـةـ ، وـشـبـهـ أـحـدـهـ بـشـيـخـ مـعـيـيـ الدـينـ النـوـوـيـ<sup>(٣٧)</sup>ـ ، وـبـاـبـنـ الصـلاحـ الشـهـرـزـوـرـيـ<sup>(٣٨)</sup>ـ ، وـرـوـيـ السـيـوطـىـ الأـبـيـاتـ فـيـ سـيـرـتـهـ مـعـجـباـ بـهـاـ<sup>(٣٩)</sup>ـ . فـرـحـاـ بـتـشـبـيـهـ بـهـذـينـ الـعـلـمـيـنـ<sup>(٤٠)</sup>ـ .

وعاد جلال الدين إلى القاهرة ، ونصب نفسه للتدريس في شوال عام (٨٧٠ـهـ)<sup>(٤١)</sup>ـ ، ويقول : أن الفضلاء قد توافدوا عليه وقرؤوا تصانيفه ، ومنهم من لزمه عشر سنوات ، واقام بالقاهرة حتى وفاته ، ولم تكن له رحلة إلى غير ما ذكرنا ، أي رحلة العج ثم رحلة دمياط والاسكندرية ، ولا صحة لما أولوه الدارسون المحدثون بذلكه من رحلات إلى الشام والمغرب والتكرور ، وليس لهم من دليل سوى عبارة تصفحت قراءتها وعثرت على يد محقق حسن المعاشرة ، فكانت سبب شيوخ وهم كبير ، لا لأدري متى سينقطع الدارسون عن تردیده<sup>(٤٢)</sup>ـ .

ومن بداية انصرافه للتدريس شرعت نفسه تحدثه أن يجدد أموراً يبرأ بها على معاصريه ويبيده بها أقرانه ، فماذا يفعل وهم يعملون جميعاً في مجال واحد ويطردون موضوعات مشابهات؟ ولم يلبث أن اكتشف درباً للامتياز والتفرد ، فعقد مجلساً لاملاء الحديث ، وكانت مجالس الاملاء<sup>(٤٢)</sup> قد انقطعت منذ عشرين سنة ، فبدأ السيوطي املاء الحديث عام (٨٧٢ هـ) ، ثم انقطع بسبب الطاعون ، وجدد الاملاء عام (٨٧٤ هـ) وأملى ثلاثين مجلساً ثم انقطع ، وفي هذه المرحلة كان يفتى ، وبداءً من عام (٨٧١ هـ) ، وستراكم هذه النتاوى ليجمعها بعد ذلك في مجلدات ثلاثة .

لم أرد الحديث عن مؤلفات الرجل ، ولكن ما من ذلك بدّ ، لأنني أمام رجل تكون مؤلفاته نسيج حياته ، وبها كان يحاول اثبات وجوده وابراز اسمه ، والا فبِهِ نفسَر عقده لمجلس املاء الحديث سوى أنه كان يريد أن يتشبه بابن عساكر<sup>(٤٤)</sup> ، وظن الأمر سهلاً ميسراً ، فعقد المجالس وتصدرها ، لكن هذه المجالس لم تلبث أن انقطعت ، وأظن أن السيوطي والناس الذين حضروا ، شعروا بعدم جدوى تلك المجالس التي انتهت أو أنها بعد أن كانوا أقبلوا عليها تقليداً للسلف الصالح ، كما أني لا أستبعد أن يكون كلام السخاوي صحيحاً في هذا المجال ، فقد زعم أن جلال الدين جمع حوله طائفة من العوام بجامع ابن طولون، وأنه صار يملئ على بعضهم من لا يحسن شيئاً<sup>(٤٥)</sup> ، فان صبح هذا ، فإنه لا بد قد زهد جلال الدين بمثل هؤلاء المستملين .

وإذا كانت شخصية أبيه قد ملأت نفسه في البدايات ، فإنه لم يلبث أن حدد على نحو واع المثل الذي يرنسونه ويموّل عليه ، فقد كانت أمنيته أن يصل إلى رتبة سراج الدين البلاطىني<sup>(٤٦)</sup> في الفقه ، وأن يصل في الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر ، فبالغ في قراءة هذين الفنين والاشتغال بهما ، وعندما ذهب للحج شرب ماء زمزم مستعيناً به لأمور منها أن يصل ببركة هذا الماء إلى رتبة هذين العلمين في الفقه والحديث<sup>(٤٧)</sup> .

وأخذ السيوطي يصدر الفتاوی ، يخالف بها الآخرين ، حتى انه خالف فتوی لوالده ، ليثبت أنه مجتهد ومنصف<sup>(٤٨)</sup> ، وأخذت الأمور تسوء بينه وبين بعض

علماء عصره ، الذين ساءهم كبره واستصغاره لهم ، فكانت الواقعة بينه وبين ابن الكركي<sup>(٤٩)</sup> ، وبين وبين الجوزي<sup>(٥٠)</sup> ، وغيرهم .

وكانت ذات جلال الدين تتضخم مع الزمن ، فلم يبق الأمر عنده مجرد اعتراف بوالد ينتمي إلى العلم ، أو كان أماماً للخلفية ، وإنما أصبح ينظر إلى الحكام الماليك على أنهم غرباء ، والى العلماء ، وهو على رأسهم ، أنهم هم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم ، وتحدث السيوطي على تأبيه على السلطان وعن رده رسنه ، ويؤكد هذا ما حدث به تلميذه عبدالقادر الشاذلي<sup>(٥١)</sup> ، أنه كان في جامع طولون عندما أتى إليه نقيب الجيش يونس الطويل ، وخطبه على لسان الملك الأشرف قانصوه<sup>(٥٢)</sup> بسبب شكوى أهل البيبرسية<sup>(٥٣)</sup> فيه ، وقال له : كلام السلطان ، فقال الشيخ في الجواب ، وهو متذكر ، يذراعه الأيمن على وسادته ، وهو في غاية الرياضة ، لم يتحرك ولم يختلج: مالي وللسلطان ، ان كان للسلطان عندي حاجة فليأت إلى عندي ، فقال له نقيب الجيش ثانية من باب الإغلاط عليه : أجبولي الأمر ، فقال الشيخ : اسكت ولا أنتي بفترك وضرب عنك ... من هم أولو الأمر ، أولو الأمر العلماء ... مثلك يخاطبني بهذا الكلام<sup>(٥٤)</sup> ؟ !

اعتزل السيوطي المناصب ، وتفرغ كلياً للتصنيف بعد هذه العادة ، وكانت نفسه قد امتلت احساساً بأنه سيكون مجدد القرن التاسع ، وأنه سيجدد للناس أمر دينهم ، وكان قوله يلهم بهذا بين حين وآخر ، وفكرة مجدد القرن تستند إلى حديث نبوى ، فஹواه أن الله سبحانه وتعالى يبعث لهنؤ الأمة كل مائة سنة بمجدد ، يجدد لها أمر دينها ، وهذا المجدد يجب أن يكون مجتهداً ، فكان من البديهي أن يبدأ السيوطي بدعوى الاجتهاد ، وهو ادعاء ليس بالسهل في تلك العصور الراكرة المتکورة على نفسها ، اجتماعياً وسياسياً ودينياً ، ومن ادعى الاجتهاد عليه أن يملك أدواته وينظر معامله ، فكيف تم للسيوطى ادعاء الاجتهاد ، وهل سلم له ذلك ؟

في عام ( ٨٨٨ هـ ) كان للسيوطى جدال مع الشيخ الجوزي ، شمس الدين محمد بن عبد المنعم المولود سنة ( ٨٢١ هـ ) ، وانتعرف الجدال ، وتحول إلى شجار أو ما يشبه الشجار ، وشرع العلامة الجوزي والسيوطى يطعن أحدهما في الآخر ، فلما استهل عام ( ٨٨٩ هـ ) والأقوال في السيوطي تكثرت ، والضجة حوله تكبر ، آثار خصوم السيوطي دعواي الاجتهاد ، ودعوه إلى المنازلة ، فرفض بعجة أنه

مجتهد وهم مقلدون ، والمجتهد لا ينافر الا مجتهداً<sup>(٥٥)</sup> ، فاشتدت المثائرة عليه ، حتى قدم الشيخ عبد القادر الطحطاوي<sup>(٥٦)</sup> وسعى بالصلح .

لم يكن جلال الدين حتى ذلك العين قد أعلن ادعاءه الاجتهاد ، وانما كان يذكره في ثنايا بعض رسائله وكتبه ، فلما أشهر خصوصه هذا الأمر عدَ ذلك نعمة من الله ينفي التحدث بها ، ورفع عقيرته بدعوى الاجتهاد في مواضع من كتبه ، وبدعوى التفرد في مقدمات كتب آخر ، وحدد تفرده وسبقه في سبعة علوم تبع فيها ، وهي : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبدىع ، وزعم أنه وصل في هذه العلوم – سوى الفقه – إلى مرتبة لم يصل إليها أحد من أشياخه<sup>(٥٧)</sup> . أما كيف حدد السيوطي ذلك ، وكيف قاس مستوى ومستوى شيوخه ، وبأي معيار حدد تفوقه عليهم؟ قاله وحده أعلم . ولكن يبدو لي أنه كان ينظر إلى كتبه التي يصنفها أو يسلخها ، فيراها أكثر من كتب شيوخه . ولا أظن أن له مقاييساً غير هذا ، ولا نملك مجاذلته فيما ادعاه ، ولم يقتصر ادعاء التبعـر والاتقان على تلك السبعة ، وإنما هناك علوم أخرى اتقانه لها أقل ، كأصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الفرائض والإنشاء والترسل<sup>(٥٨)</sup> ، . . . . الخ ، وزعم لنفسه أنه بلغ مرتبة الاجتـهاد المطلق في الأحكام الشرعية وفي الحديث النبوي وفي الغربية ، وقلَّ أن تجتمعـ كما يقول – صفة الاجـهاد المطلق في هذه الثلاثة لأحد<sup>(٥٩)</sup> . ويرى أن هناك من العلماء من وصف بالاجـهاد المطلق ولم يبلغ مرتبته في تلك العلوم التي اجتمعـ له الاتقان فيها ، فهو يرى أن أولئك المجـهدين ، كأبي اسحاق الشيرازي<sup>(٦٠)</sup> ، وأبي نصر بن الصباغ<sup>(٦١)</sup> ، وإمام العرمن<sup>(٦٢)</sup> ، وأبي حامد الغزالى<sup>(٦٣)</sup> ، كانوا دونه في اجتماعـ آلة الاجـهاد لهم ، ومع ذلك وسموا بالاجـهاد ، فلم لا يكون مجـهـد عصره وقد تجاوزـهم؟

وتسلطت فكرة الاجتهاد والتفرد على ذهن السيوطي ، ونبتت منها فكرة المبوعية ، وهي أمنية طالما رددتها ووجهها في موضع كثيرة ، وتمني أن يكون هو المبعوث على رأس المائة ، ليجدد للناس أمر دينهم ، واحتاج بما رواه أبو داود في سننه ، والحاكم في المستدرك ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، قال : ( إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها )<sup>(٦٤)</sup> ، وراح يعدد مجددي المئات ، فكان أولهم أمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز<sup>(٦٥)</sup> في رأس

المائة الأولى ، والامام محمد بن ادريس الشافعي<sup>(٦٦)</sup> في رأس المائة الثانية ، وأبو العباس بن سریج<sup>(٦٧)</sup> في الثالثة ، وأبی حامد الاسفراینی<sup>(٦٨)</sup> أو الأستاذ أبو سهل الصعلوکي<sup>(٦٩)</sup> في الرابعة ، وحجة الاسلام أبو حامد الفزالي<sup>(٧٠)</sup> في الخامسة والامام فخر الدين الرازي<sup>(٧١)</sup> في السادسة ، وتقى الدين بن دقیق العید<sup>(٧٢)</sup> في السابعة ، وسراج الدين البلاکنی<sup>(٧٣)</sup> أو ناصر الدين بن بنت المیلق الشاذلی<sup>(٧٤)</sup> ، أو زین الدین العراقي<sup>(٧٥)</sup> في الثامنة ، وذلك ( لأن تعین المجدد إنما هو بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه )<sup>(٧٦)</sup> ، ويعقب السیوطی على ما تقدم بقوله : ( ونحن الآن في سنة ست وتسعين وثمانمائة ، ولم يجيء المهدی ولا عیسی ولا أشراط ذلك ، وقد ترجی الفقیر من فضل الله أن ینعم عليه بكونه المجدد على رأس المائة ، وما ذلك على الله يعزیز )<sup>(٧٧)</sup> ، وأخذت هذه الفكرة تتردّد في كتبه ، حتى أنه ألف رسالة فيمن یبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، قال فيها : ( إني ترجیت من نعم الله وفضله كما ترجی الفزالي لنفسه أنی المبعوث على هذه المائة التاسعة ، لأنفادي عليها بالتلعث في أنواع المعلوم ، وقد اخترت علم أصول اللغة ووراثته ولم أسبق إليه ، وهو على نمط علم العدیث وأصول الفقه ، وصارت مصنفاتي وعلومی في سائر الأقطار ، ووصلت إلى الشام والروم والعمجم والعجاز والیمن والهند والعہشة والمغرب والتکرور ، وامتدت إلى البحر المحيط ، ولا مشاركة لي في مجموع ما ذكرته )<sup>(٧٨)</sup> ، وهذا النص مفید للاستدلال على أن الرجل أخذ یعتبر عن علوم الأمة الاسلامية بعبارة ( علومي ) ، وكأن هذه العلوم لم تكن قبله ، فکانات به ، وللاستدلال أيضاً على أن الرجل أخذ ينظر إلى کثرة مصنفاته وسيرورتها على أنها هي التي تؤهله للمبوعية ، وأخذ ادعاؤه يزداد شراسة ، ففي كتابه ( الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف )<sup>(٧٩)</sup> يقول : ( فان ثم من ينفع أشداقه ويدعى مناظرتی ، وينکر علي دعوى الاجتہاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه یعارضنی ویستجیش علیَّ بمن لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفحة صاروا هباء منثوراً )<sup>(٨٠)</sup> .

ولا شك أن مثل هذه الشخصية النرجسية المتورمة ذاتياً لم تكن لتلتقي من أقرانها القبول ، ولم يكن معاصروها یسلموا لها ما تدعيه ، وخاصة أن عصر السیوطی كان یتعج بالعلماء ، ومنهم من یفوقه علماً وعرفة ، والاعتراف بالمبوعية أمر یقرره الآخرون لا المبعوث نفسه ،

فما بالنا وجلال الدين يفرض مباعوثيته وكونه مجدد المائة فرضاً على أقرانه وعلى عصره ، وليس له الا ادعاء التبر وكثر المؤلفات ، والتبرع دعوى ادعاهما ولم يسلم له بها ، وكثرة مؤلفاته ليست مسلمة له ، لا في عصره ولا في عصرنا ، وان شكوك السخاوي لم تنشأ من فراغ ، ولم تكن من عبث ، وان البحث العادل كثيرون كتب السيوطى يؤيد شكوك السخاوي ويثبت صحتها ، ويؤكد ان السيوطى كان كثير التبعج والادعاء ، وساكتفي بضرب أمثلة قليلة .

لتأخذ كتاب ( الاقتراب في أصول النحو )<sup>(٨١)</sup> ، وهو من الكتب التي تباهى بها السيوطى وادعى فيها التفرد ، فمما نجد ؟ إننا نجد مقدمة طنانة ، فهو يزعم أن كتابه لم تسمح قرينته بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله ، في علم لم يسبقه أحد الى ترتيبه – يعني علم أصول النحو – فإذا تركنا المقدمة الى الكتاب فانتا لا نجد للسيوطى أثراً ولا رأياً ، وإنما نجد ثمانية عشر فصلاً قد نقلها بتصريره بذلك من « لمع الأدلة في أصول النحو » للكمال ابن الأنباري ، مضافاً إليها فصول نقلها من الخصائص لابن جنّي ، فما ينال تفرد وأين الاجتهد وأين ترتيب هذا العلم الذي لم يسبق إليه ؟

وخذ أيضاً رسالته ( البيان في رياضة الصبيان ووجه تأدبيهم وتحسين أخلاقهم) نجدها مأخوذة بقاضتها وقضيتها من كتاب إحياء علوم الدين للغزالى<sup>(٨٢)</sup> .

وخذ أيضاً كتابه ( الأرج في الفرج) تجده مأخوذاً بنصه تقريباً من كتاب ( الفرج بعد الشدة ) لابن أبي الدنيا<sup>(٨٣)</sup> .

فلا عجب إذن أن طعن بعض معاصرى السيوطى في علمه ، واتهموه بسرقة كتبه من كتب غيره . قال السخاوي ( واختلس حين كان يتربّد اليه ما عملته كثيراً ، كالخصال الموجبة للضلال ، والأسماء النبوية ، والصلة على النبي ، وموت الأبناء ، وما لا أحصره ، بل أخذ من كتب محمودية وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة ، التي لا عهد لكثير من العصرىين بها في فنون ، فغير فيها يسيراً ، وقدم وأخر ، ونسبها لنفسه ، وهو لـ في مقدماتها ، بما يتوهمن منه الجاهل شيئاً مما لا يوفي بيغضنه ، وأول ما أبرز جزء له في تحرير المنطق ، جرّده من مصنف لابن تيمية ، وفيها مما اختلسه من تصانيف شيخينا – يعني ابن حجر – : لباب النقول

في أسباب النزول ، وعین الاصابة في معرفة الصحابة ، والنكت البدعيات عن الم الموضوعات ، والمدرج الى المدرج ، وتذكرة المؤتسي بمن حدث ونسى ، وتعنة النابه بتلخيص المشابه ، وما رواه الوعاعون في أخبار الطاعون ، والأساس في مناقب بنى العباس ، وجزء في أسماء المسلمين ، وكشف النقاب عن الألقاب ، ونشر العبر في تغريب أحاديث الشرح الكبير ، ٠٠٠ ، كل هذه تصانيف شيخنا ، وليته إذا اختلس لم يمسنها ، ولو نسخها على وجهها لكان أفعى ، ٠ )٨٤( .

واتهامات السخاوي هذه يتبين أن يُنظر اليها بتدبر وتأمل ، وأن يعقبها الفحص والمقارنة ، لأنه لا يرسل اتهاماته على عواهنتها ، فلها ما يسوغها ، وقدرأينا نموذجات مما أتيح لنا فحصه وسبره ، زد على ذلك جرأة السيوطى على ادعاء التأليف في موضوعات نقلية ليس له فيها شيوخ ، فمن الذي أقرأه القراءات وأجازه حتى يصنف شرحاً للشاطبية والفنية في القراءات العشر ؟ .

لقد ملأت عليه فكرة مجدد المائة أقطار قلبه وعقله ، واستقر لديه أن سبيل التجديد إنما هو كثرة التصنيف ، وحجبته رغبته المتاجدة عن أن يرى الآخرين ، بل حجبته عن أن يرى عالماً غيره في عصره ، فأطلق لقلمه العنان ، يجمع طائفته من الأحاديث في التراويع ، فهي إذن كتاب ، ويأخذ مجالس العلماء ويضم بعضها إلى بعض ، فيتشكل منها نصف كتاب الأشباه والنظائر النحوية ، ويأخذ كتاب المعرب للجواليقي فيغتصره ، فهو إذن مصنف ، وقل مثل ذلك في النهاية في غريب الحديث والأثر ، ومثله في (اللباب في الأنساب) وفي غيرها .

ان مؤلفات السيوطى ، حتى تلك التي يدعى فيها التفرد والإبداع ، تحتاج إلى فحص وسبر وتدقيق ، وإن كثيراً من كتبه المهمة يغدو تاريخي القيمة عندما تحصل أصوله بين أيدي الباحثين ، ونكتفي بمثالين ، الأول : الاتقان في علوم القرآن ، والثاني : الاقتراح في علم أصول النحو .

ان الدراسة المعمقة نسبياً لنفسية السيوطى ومزاجه لا تكون من كتبه العلمية التي صنفها ، لأنها في جملتها نقول ضمّ بعضها إلى بعض لتصبح كتاباً ،

والباحث يعجز أحياناً ، وهو يراجع كتاباً في الفي صفحة ، أن يجد للسيوطى رأياً ، أو يلمع له شخصية . ان مثل هذه الدراسة اثما يجب أن تعتمد مقاماته التي أنشأها ، وظهرت فيها عداوته لأقرانه ، وصرح فيها ببعض مكونات نفسه ، وظهرت فيها طبيعة تواصله مع مجتمعه ، وأن تعتمد مقدمات كتبه التي ملأها بالادلال والادعاء ، ومن طرائفه أنه قطع سلسلة كلامه في الأشباء والنظائر التحوية ليطعن أحد معاصريه<sup>(٦)</sup> ، وهو يعني الامام القسطلاني<sup>(٨٦)</sup> ، متهمًا اياه بسرقة كتابه الخصائص الكبرى ، وهو كتاب في الخصائص النبوية ، ومصادره ومراجعه مبذولة آنذاك ، ولم يكن القسطلاني دون السيوطى في علم الحديث بحال ، حتى يتم لهم مثل هذا الاتهام .

ولا بد هنا – وقد أشرت الى القسطلاني – من أن اذكر حادثة لها شأنها من الدلالات على عجرفية السيوطى وطريقته في التعامل والسلوك مع علماء عصره ، فقد اتهم السيوطى القسطلاني بالأخذ من كتبه ، ووصل الأمر بـأن ادعى عليه السيوطى بذلك بين يدي شيخ الاسلام ذكريما<sup>(٨٧)</sup> ، وأراد القسطلاني إزالته ما في خاطر السيوطى عليه ، فمسى اليه من القاهرة الى الروضة ، وكان الجلال معتزل الناس بالروضة ، فوصل القسطلاني الى باب السيوطى ودق الباب ، فقال له : من انت؟ فقال : أنا القسطلاني ، جئت اليك حانيا ، مكتشف الرأس ، ليطيب خاطرك عليّ ، فقال له : قد طاب خاطري عليك ، ولم يفتح له الباب ولم يقابل له<sup>(٨٨)</sup> .

وهذه العادلة بليفة الدلالة على كِبْرِ السيوطي وزهوه ، وان هذا لعمري ليس من صفات مجدهي المثاث ، فأن تجديه أمور الدين ليس حبراً وورقاً وسرقة مصنفات الآخرين ، وان الاجتهادليس في مخالفـة آراء الآخرين وفتواهم والرد عليهم في جزئيات لا تقدم ولا تؤخر، انه ليس في تأريـث الخلاف وانما في تأليف القلوب ، والسيوطـي كان بعيداً من ذلك كله ، فقد كان من اليسير عليه أن يتطلـأ على أبناء عصره في أمور هي من التفاهـة بمـكان ، فمن ذلك أنه سـئـل عام ( ٨٨٨ هـ ) عن قولـهم في القنوت ( والـيك نسـعـي ونـحـقـد ) ، هل هو بالـدـالـ المـهـمـلـة ، أو بالـذـالـ المـعـجمـة ، فـكـتـبـ أنه بالـدـالـ المـهـمـلـة ، فـشـنـعـ عليهـ الجـاهـزـ حـسـبـ تعـبـيرـهـ – وأـتـابـاعـهـ زـاعـمـينـ أنـهـاـبـالـذـالـ المـعـجمـةـ ، فـكـتـبـ السـيـوطـيـ ( فـانـظـرـوـاـ بـالـهـ إـلـىـ هـؤـلـاءـ الـدـينـ عـاـشـوـاـ فـيـ بـلـادـ الـمـسـلـمـيـنـ سـتـيـنـ سـنـةـ ) ، وـهـمـ يـلـحـنـونـ فـيـ قـنـوـتـهـمـ وـصـلـاتـهـمـ ، وـلـاـ يـحـسـنـتوـنـ التـلـفـظـ فـيـهاـ ، وـمـعـ ذـلـكـ يـعـتـمـدـ بـعـمـائـمـ الـفـقـهـ ،

وي McDonon ألسنتهم للإنكار على أساطين العلماء<sup>(٨٩)</sup> ، يعني نفسه ، والأمر كله لا يحتاج إلى أساطين العلماء ولا إلى صفارهم ، انه قضية مبتدئين لا أكثر ولا أقل ، جعل منها السيوطى ذريعة لادعاء العلم والفضل ٠

ان قضية مجدد المائة والمدعوية هي المفتاح الذي تدرس من خلاله شخصية السيوطى ، وب بواسطتها نفسـر كثرة تصانيفه وحرصه على الاكتـار منها وعلى الـادلـال بـعلـمه ، وتكـثـرـه من الشـيوـخـ وـطـعـنـهـ فيـ عـلـمـاءـ عـصـرـهـ ، وـكـأنـهـ يـرـغـبـ فيـ حـدـفـهـ وـمـنـائـهـ جـمـيـعـاـ ليـغـلـوـ لـهـ فـيـ الـمـيدـانـ ، وـهـذـاـ ماـ آـثـارـهـ عـلـيـهـ ، وـكـانـتـ مشـاحـنـاتـ عـهـمـ باـعـثـاـ آـخـرـ مـنـ بـوـاعـثـ الاـكـثـارـ مـنـ التـالـيـفـ ، فـاـذـاـ كـانـتـ رـغـبـتـهـ فـيـ آـنـ يـظـهـرـ فـقـيـهـاـ تـحـدـوـهـ لـأـنـ يـشـرـحـ الرـوـضـةـ أوـ الـنـهـاـجـ ، فـنـ عـدـاـوـتـهـ لـلـسـخـاوـيـ دـفـعـتـهـ لـتـصـنـيـفـ (ـالـكـاوـيـ فـيـ تـارـيـخـ السـخـاوـيـ)<sup>(٩٠)</sup> ، وـكـذـلـكـ صـنـفـ (ـالـلـفـظـ الـجـوـهـرـيـ فـيـ رـدـ خـبـاطـ الـجـوـجـرـيـ)<sup>(٩١)</sup> ، وـ (ـالـكـرـ عـلـىـ عـبـدـ الـبـرـ)<sup>(٩٢)</sup> ، وـغـيرـهـ ٠

لقد كان جلال الدين ذا حظ عظيم في حياته وبعد وفاته ، وكان مصنفاتـهـ ذـيـوـعـ فـيـ الـعـالـمـ الـاسـلـامـيـ ، فـيـ أـيـامـ وـحـتـىـ أـيـامـاـ ، وـاهـتـمـ عـشـرـاتـ عـلـمـاءـ مـنـ الـمـعاـصـرـينـ بـكـتـبـ السـيـوطـىـ ، تـحـقـيقـاـ وـضـبـطـاـ وـشـرـحـاـ ، وـهـاـ نـحـنـ الـيـومـ فـيـ نـدوـةـ حـوـلـ السـيـوطـىـ ، وـمـنـذـ أـشـهـرـ كـانـتـ هـنـاكـ نـدوـةـ حـوـلـهـ فـيـ الـقـاهـرـةـ ، وـفـيـ دـمـشـقـ صـدرـ عـدـ خـاصـ مـنـ مـجـلـةـ التـرـاثـ الـعـرـبـيـ حـوـلـ السـيـوطـىـ<sup>(٩٣)</sup> ، وـأـيـضاـ صـدرـ عـدـ خـاصـ مـنـ مـجـلـةـ مـجـمـعـ الـلـفـظـ الـعـرـبـيـ بـدـمـشـقـ عـنـهـ<sup>(٩٤)</sup> ، وـلـوـ كـنـاـ مـنـصـفـينـ لـاـحتـفـلـنـاـ قـبـلـ تـسـعـ سـنـوـاتـ بـمـرـورـ نـسـمـائـةـ عـامـ عـلـىـ وـفـاةـ السـخـاوـيـ مـثـلاـ ، وـلـكـنـ السـيـوطـىـ رـزـقـ هـذـاـ الحـظـ الـعـظـيمـ مـنـ الـاـهـتـمـامـ الـذـيـ لـمـ يـتـعـ مـثـلـهـ لـلـامـ الشـافـعـيـ نـفـسـهـ وـلـاـ لأـبـيـ حـنـيفـةـ وـمـالـكـ وـابـنـ حـنـبلـ ، أـلـيـسـ هـذـاـ مـنـ الـعـجـبـ الـعـجـابـ ؟

ان ما قدمته ليس الا جولة تحليلية في سيرة السيوطى ، رمت الى تبيان مفتاح شخصيته ، تلك الشخصية التي هي لهامـنـ الـاستـعـدـادـ الـطـبـيـعـيـ وـالـتـرـبـيـةـ الـمـلـائـمةـ لـتـكـونـ عـلـىـ مـاـ كـانـتـ عـلـيـهـ ، وـفـيـ مـقـدـورـنـاـ الـيـوـمـ أـنـ نـنـظـرـ إـلـيـهـ وـالـيـ أـقـرـانـهـ بـعـدـ أـنـ فـصـلـتـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـهـمـ الـقـرـونـ بـعـيـنـ الـعـدـلـ وـالـاـنـصـافـ قـدـرـ الـمـسـطـاعـ ، لـنـعـطـيـ كـلـ ذـيـ حقـهـ ، وـغـيرـ بـعـيدـ أـنـ يـكـوـنـ طـعـنـ بـعـضـ عـلـمـاءـ عـصـرـهـ فـيـهـ لـيـسـ باـعـثـهـ الـحـسـدـ ، وـلـاـ يـسـقطـ طـعـنـهـمـ فـيـهـ كـوـنـهـمـ مـتـعـاـصـرـينـ ، بـلـ اـنـ فـيـ طـعـنـهـمـ مـنـ الـعـقـ شـيـئـاـ ، رـبـماـ كـانـ لـيـسـ بـالـيـسـرـ الـهـيـنـ ٠٠

ان كل ما ذكرته لا يلغى السيوطى ، ولا يحاول الازراء به ، وانما الهدف أن ننظر الى السيوطى نظرة واقعية أو أقرب ما تكون الى الواقع ، وأن نقدّره حق قدره ، وأن ننظر اليه كما ننظر الى الكثرين من أمثاله ممن نصادفهم في مجالات العلم والمعرفة في أيامنا ، ولا أريد أن أذكر أسماء ، وأن لا نجازف في اطلاق الألقاب عليه دون طائل ، وأن لا ننكر فضلـه مع ذلك ، فإذا كان السيوطى في معظم آثاره مصنفاً جماعـة ، سالـغاً كتبـغيره ، فإنه في الوقت نفسه حفظ لنا في هذه المكتـبـ كثيراً مما ضاع من تراثـنا ، أو كثيراً مما كان يصعب العثور عليه حتى وقت قرـيب .

ثم ان السيوطى كان شاهد عصر ، فمن كتبـه التـارـيخـية ، ومن التـراـجمـ التي كتبـها لـماـصـريـه ، ومن المـقامـاتـ التي دـبـجـهاـ نـسـتـطـيعـ أن نـسـتـشـفـ وـنـعـرـفـ الـكـثـيرـ عنـ عـصـرـ السـيـوطـيـ وـعـادـاتـهـ وـتـقـالـيدـهـ وـأـوضـاعـ الـاجـتمـاعـ وـالـعـمـرـانـ فيـهـ .

كما انـ السـيـوطـيـ يـعـدـ منـ كـتـابـ السـيـرـةـ الذـاتـيـةـ عـلـىـ نـحوـ ماـ(٩٥)ـ ،ـ صـحـيحـ أنهـ جـعـلـ منـ سـيـرـتـهـ الذـاتـيـةـ سـجـلاـ لـمـلـفـاتـهـ وـشـيوـخـهـ ،ـ الاـ أـنـ تـلـكـ السـيـرـةـ وـأـعـنـيـ بـهـاـ (ـ التـحدـثـ بـنـعـمـةـ اللهـ تـعـدـ سـيـرـةـ مـمـهـةـ ،ـ لـأـنـهـ تـفـصـحـ عـنـ نـفـسـهـ وـدـخـائـلـهـ ،ـ وـلـأـنـ دـارـسـ السـيـرـةـ لـاـ يـقـرـأـ السـطـورـ ،ـ وـأـنـمـاـيـقـرـأـ مـاـ وـرـاءـهـ ،ـ وـفـيـ ذـلـكـ (ـ الـمـاوـرـاءـ)ـ يـجـدـ الـبـاحـثـ مـتـسـعاـ لـلـقـوـلـ ،ـ فـهـوـ يـؤـيدـ أـوـيـشـكـ أـوـ يـلمـحـ أـوـ ٠٠٠ـ وـهـذـاـ مـاـ يـمـنـحـ سـيـرـتـهـ بـعـدـاـ اـضـافـيـاـ ،ـ وـلـاـ سـيـمـاـ أـنـ سـيـرـتـهـ كـتـبـتـ بـقـلـمـهـ ،ـ كـمـاـ أـنـ الـآخـرـينـ مـنـ تـلـمـيـدـهـ وـخـصـومـهـ تـرـجـمـواـ لـهـ ،ـ وـهـذـاـمـاـ يـجـعـلـ بـابـ الـمـقـارـنـةـ مـفـتوـحاـ عـلـىـ مـصـرـاعـيـهـ :ـ كـيـفـ رـأـيـ الرـجـلـ نـفـسـهـ ،ـ وـكـيـفـ رـأـيـ الـآخـرـونـ ،ـ أـوـ السـيـوطـيـ فـيـ مـرـأـهـ نـفـسـهـ ،ـ وـالـسـيـوطـيـ فـيـ مـرـأـهـ الـآخـرـينـ .

وـمـهـماـ يـكـنـ مـنـ أـمـرـ فـانـ صـفـائـرـ الـأـمـورـ بـلـدـتـهاـ دـوـرـةـ الـدـهـرـ ،ـ وـلـمـ يـقـ منـ كـبـرـ السـيـوطـيـ وزـهـوـهـ الـأـعـيـرـ وـالـورـقـ ،ـ وـعـلـاقـاتـهـ مـعـ خـصـومـهـ وـمـحـيـيـهـ غـيـرـ فـيـماـ غـيـرـ ،ـ وـلـمـ يـقـ مـنـهـ الـأـعـمـلـهـ وـأـثـارـهـ الـتـيـ عـمـ اـنـتـقـاعـ النـاسـ بـهـاـ إـلـىـ يـوـمـ النـاسـ هـذـاـ ،ـ وـلـاـ تـزـالـ كـتـبـ السـيـوطـيـ وـكـتـبـ اـقـرـانـهـ كـالـقـسـطـلـانـيـ وـالـسـغـاـويـ مـرـجـعـاـ رـحـباـ لـلـعـلـمـاءـ وـمـيـدانـاـ فـسـيـحـاـ لـلـبـاحـثـينـ ،ـ رـحـمـ اللهـ الجـمـيعـ .



## □ الحواشي والحالات :

- ١ - انظر حسن الماضرة ١ : ٣٣٥ والتتحدث بعنوانه آلة .
- ٢ - من ذلك ما كتبه عنه تلميذه ابن ايس في بداع الزهور ٨٣٤ وكتاب تلميذه عبدالقادر الشاذلي (بوجه العابدين بترجمة حافظ الصدر جلال الدين) وهو فيid التقيق ان شاء الله . وانظر ايضاً الضوء الالامع ٦٥٤ ، وشذرات الذهب ٥١٨ . والبدر الطالع : ٣٢٨ ، وتاريخ انور السافر للمغيروس : ٥١ .
- ٣ - انظر مقتطفنا لكتاب الاشباه والنظائر التحوية ، ط مجمع اللغة بدمشق ١٩٨٥ ، ومقالتنا في مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة : الامام جلال الدين السيوطي ، وفن اسيرة الذاتية - الجلد ٣٤ ١٩٩٠ . ومقالتنا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : الامام جلال الدين السيوطي : سيرة مختصرة ، المجلد ٢٧ ، العدد ٤ . ومقالتنا في مجلة عالم الكتب بباريس : فهرس مؤلفات السيوطي المطبوعة ، مجلد ١٢ ، العدد الاول ١٩٩١ .
- ٤ - حسن الماضرة ٣٣٩/١ .
- ٥ - كمال الدين بن الهمام : محمد بن عبد الواحد بن عبد العميد ٨٦١-٧٩٠ هـ ، كان علامة معقلاً جداً نظاراً ، حسن الماضرة ، ٤٧٤/١ .
- ٦ - الشيفونية : مدرسة انشاها الامير شيفو العمري سنة ٧٥٦ هـ وتعرف بجامع شيفو ، الغلط التوفيقية ٨/٦ .
- ٧ - هو ابو بكر الغضيري السيوطي ، كان من اهل العلم والمعرفة ، وولي قضاة اسيوط قبيل قيومه الى القاهرة ، فلما قدمها اخذ عن علمائها وقرأ عليهم ، ويبلغ في صناعة التوقع النهاية، انظر ترجمته في: حسن الماضرة ٤٤١/١ ونظم المقين ٦٥ .
- ٨ - سليمان بن التوكيل المستكفي بالله ، ترجم له السيوطي في تاريخ الفلافاء ، ٦١١ وما بعدها ، وقال فيه : وما اظن انه وجد على ظهر الارض خليقة بعد آل عمر بن عبد العزيز أبعد من آل بيت هذا الخليفة ، واى الخلافة عام ٨٤٥ هـ ، وتوفي عام ٨٥٤ هـ .
- ٩ - انظر نسخة المهد في تاريخ الخلقان المسيوطى ٦١١ .
- ١٠ - انظر ما كتبه عنهم في تاريخ الفلافاء ٤٧٧ وحسن الماضرة ٥٢:٢ وما بعدها وخاصة من ٩٤ .
- ١١ - في حسن الماضرة ٣٣٧/١ انه الف عام ٨٦٦ شرعاً للاستعادة والبسملة .
- ١٢ - هناك عدة كتب بهذا العنوان ، احدثها في الفروع لابن قطامة العتبلي ٦٦٠ هـ ، والثاني في الحديث لابن دقيق العيد ت ٧٠٢ هـ ، واظنه يريد هذا الاخير ، انظر كشف الظنون ١١٩٤/٢ .
- ١٣ - منهاج النwoي هو منهاج الطالبين في مفتصر المعر في فروع الفقه الشافعى للامام معين الدين يحيى بن شرف النwoي ت ٦٦٧ هـ ، انظر كشف الظنون ١٨٧٣/٢ .
- ١٤ - الفية ابن مالك هي الغلاصة الالفية التي اختصرها في الف بيت من موطنه الكافية الشافعية . وابن مالك هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله ، ولد ببيان بالأندلس ، وتوفي بدمشق عام ٦٧٢ هـ ، بفتح الواهـة ١٣٠/١ . وكتابه المشار اليهما منشوران .
- ١٥ - منهاج البيضاوى هو منهاج الوصول الى علم الاصول للقاضى عبidaش بن عمر البيضاوى ت ٦٨٥ هـ ، كشف الظنون ١٨٧٨/٢ .
- ١٦ - علم الدين البليقى صالح بن شيخ الاسلام سراج الدين ٨٦٨-٧٩١ هـ ، حاصل لواء مذهب الشافعية ، وله مصنفات ، وتولى القضاء الاكبر عام ٨٧٦ هـ ، انظر حسن الماضرة ٤٤٦/١ ، وشذرات الذهب ٣٠٧/٢ .
- ١٧ - شرف الدين المساوى يحيى بن محمد بن عاصي ٨٧١-٧٩٨ هـ ، شيخ الاسلام ، قاضى القضاة ، وله تصانيف ، حسن الماضرة ٤٤٥/١ ، وشذرات الذهب ٣١٢/٧ .

- ١٨- مزالدين الخطبلي : لأحمد بن إبراهيم بن نصر الله ، قاضي القضاة ٨٠٠-٨٧٦ هـ ، انظر حسن المعاشرة ٤٨٦/١
- ١٩- الأصرياني أمين الدين يعني بن محمد بن إبراهيم ٧٤٥-٨٨٠ هـ ، انتهت إليه رئاسة العنفية في عصره ، نظم العقيان ١٧٨ ، وحسن المعاشرة ٤٧٨/١
- ٢٠- شمس الدين محمد بن موسى ، إمام الشیغونیة ، ورد ذكره في التحدث بعنمة الله ٦٨ ، ٢٣٧
- ٢١- حسن المعاشرة ٣٣٧/١
- ٢٢- بهجة العابدين ، من ١٤-١٨ ، نسخة جستر بيتي ، وفيه : واستمررت بعد ذلك - بعد الاجازة - ملائماً للبروس شيئاً شیخ الاسلام (شرف الدين) ، فلم أتفق الى انبات ، وكانت الأذهب من الغير الى دروس البلقني فحضر مجلسه الى قرب الفهر ، ثم ارجع الى الشعنى فأحضر مجلسه الى قرب العصر ، هكذا ثلاثة أيام في الجمعة : السبیت والانین والغیس . وكانت احقر الاحد والثلاثاء عند الشیخ سیف الدین بكرة ، ومن بعد الفهر في هذین اليومین ویوم الاربعاء عند الشیخ معین الدین الكاظمی \*
- ٢٣- سبقت الاشارة اليها ، وتنصيف انها نشرت يشرح ابن مالك وتحقيق الدكتور عبدالمنعم احمد هریدی بجامعة أم القری سنة ١٩٨٢
- ٢٤- بهجة العابدين ، من ١٧ ، مخطوط جستر بيتي
- ٢٥- المرجع السابق ، من ١٨
- ٢٦- الشافعی محمد بن ادريس ١٥٤-٢٠٤ هـ ، أحد الائمة الاربعة ، اليه نسبة الشافعی کافہ ، ولد في غزة بفلسطين وحمل منها الى مكة وهو ابن ستین ، وزار بغداد مرتبان ، وقصد مصر عام ١٩٩ هـ ، وأقام بها حتى وفاته . انظر طبقات الشافعیة ١٨٥/١
- ٢٧- كتاب الرسالة للشافعی ، وهو أول كتاب الف في أصول الفقه ، قال الشیخ احمد محمد شاکر : بل هو أول كتاب الف في أصول الحديث ايضاً . انظر الرسالة ، المنشمة ١٣
- ٢٨- التحدث بعنمة الله ٢٤١
- ٢٩- سبقت ترجمته في العاشية ١٧
- ٣٠- سیف الدین الخطبی محمد بن عمر بن قططیفی البکمتری ٨٠٠-٨٨١ هـ ، انظر حسن المعاشرة ٤٧٨/١ ، وبقیة الوما ١/٧٧١ ، وشندرات الذهب ٢٣٢/٧
- ٣١- الكاظمی : محمد بن سليمان ، قال عنه السیوطی : استاذ الدنيا في المقولات ، ولد قبل سنة ٨٠٠ هـ ، وتوفي عام ٨٢٩ هـ . حسن المعاشرة ٥٤٩/١
- ٣٢- التحدث بعنمة الله ٢٤٤
- ٣٣- المفر المقصی : عثمان بن عبد الله ، من فقهاء الشافعیة ، ورد ذكره في مدة موضع في كتاب التحدث بعنمة الله : ١٠ ، ٩١ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤
- ٣٤- صون المنطق والكلام ، طبع بطبعية المساحة بمصر سنة ١٩٤٧ بعنایة على سامي النشار ، واعاد نشره سنة ١٩٧٠ في مجمع البحوث الإسلامية بالازهر \*
- ٣٥- الشعنى : تقى الدين ، أبو العباس ، أحمد بن محمد بن محمد بن حسن التميمي الداری . ١٠٠-٨٧٧ هـ . حسن المعاشرة ٤٧٤/١ ، وبقیة الوما ١/٢٧٧
- ٣٦- انظر التحدث بعنمة الله ٤٣ ، وبهجة العابدين ٢٢
- ٣٧- التسویی : سبق ذكره في العاشية ١٣

- ٣٨- الشهروزوري : ابن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن ٦٤٢-٥٧٧ هـ ، توفي بدمشق ، أحد الفضلاء المقتولين في الفتنة والتفصي والحديث ، وهو صاحب كتاب (معرفة أنواع الحديث) المعروف بمقتلة ابن الصلاح .
- ٣٩- الآيات المشار إليها هي للشيخ شمس الدين محمد بن علي الطاطي الذي سمع السيوطي وكتب مدحه بقوله:
- أرى شباباً ما أرى مثله  
في العلم والدين مما والصالح  
تبسم (النفر) به ضاحكاً  
وافتقرَ عن درٌّ وشهيرٌ وراح  
شبهت لثا بما قبلها  
بالشيخ عبي الدين وابن الصلاح
- انتظر التعليق بقلمة آلة ٨٤  
٤٠- التعليق بقلمة آلة ٨٨
- ٤١- كف معظم الذين ترجموا له من المغاربة وقعوا في هذا الوهم ، ولا يزالون كذلك ، انتظر على سبيل المثلث :
- المزher ٦٥٧/٢ ، الافتراج من ٨٣ بحقيقة الدكتور محمود فجالي ، معتزل القرآن ١/٣ ، ومقال عبداللطيف ارناؤوط في مجلة التراث العربي بدمشق ، العدد ٥١ ، من ٥٥-٥٦ ، وغير هؤلاء كثير .
- ٤٢- وكان ذلك بالجامع الطولوني ، وهو جامع كان يناءه احمد بن طولون ، يناءه عام ٢٦٣ هـ ، وفرغ منه عام ٣٦٥ ، وانتظر خطط المقريزي ١٤٢/٣ ، وحسن المعاشرة ٢٤٦/٢ ، والتعليق بقلمة آلة ٨٨
- ٤٣- ابن عساكر : علي بن الحسن بن هبة الله ، محدث الديار الشامية ، ومصنف تاريخ دمشق ، ٤٩٩-٥٧١ هـ ، انتظر طبقات الشافعية الكبرى ٢٢٣/٤
- ٤٤- ابن معن المستلاني احمد بن علي ٨٥٢-٧٧٣ هـ ، مولده ووفاته بالقاهرة ، كان حافظ الاسلام في عصره .
- ٤٥- البذر الطالع : ٧٩/١ ، نظم القيبان ٤٥
- ٤٦- الضوء الالمعم : ٦٦/٤ ، والشيخ شمس الدين السقاوي محمد بن عبد الرحمن ، ولد عام ٨٣١ ، وتوفي عام ٩٠٢ هـ ، وترجمته في تاريخ النور السافر ١٨
- ٤٧- سراج الدين البليقيني: عمر بن دسان ٨٠٥-٧٤٢ هـ ، أبو حفص سراج الدين مجتهد حافظ للحاديث ، ولد في بلقينية بمصر وتتعلم بالقاهرة ، ولقي قضاة الشام سنة ٧٩٩ هـ وتوفي بالقاهرة .
- ٤٨- بهجة العابدين ٢٢
- ٤٩- التعليق بقلمة آلة ٢٠ وما يتعلمه .
- ٥٠- ابراهيم بن عبد الرحمن الكركي الأصل ، القاهري المولد ، ولد سنة ٨٣٥ وتوفي ٩٢٢ هـ ، تاريخ النور السافر ١٠١
- ٥١- الجوجري شمس الدين محمد بن عبد المنعم ٨٨٩-٨٢١ هـ ، من فقهاء الشافعية بمصر ، الضوء الالمعم ١٢٣/٨ ، البذر الطالع ٢٠٠/٧ ، وانتظر مقامتات السيوطي ٣٩١/١
- ٥٢- عبد القادر بن محمد بن احمد الشاذلي ، تلميذ السيوطي ، ومصنف كتاب (بهجة العابدين) بترجمة الشيخ جلال الدين ، توفي بعد سنة ٩٥٥ هـ ، ففي كتابه بهجة العابدين ص ٩١ ، نسخة جستر بيته ذكر حدثة وفتى سنة ٩٤٦ ، وهذا اصح مما ذكره الزركلي في الأعلام ٤٣/٤٣ من ان وفاته كانت عام ٩٣٥ هـ
- ٥٣- قالصوه السلطان الفوري بن عبد الله الجركسي ، بويوع بالسلطة بقلعة الجبل بالقاهرة سنة ٩٠٥ هـ ، هزم امام السلطان سليم المشامي وقتل في مرج دابق قرب حلبي سنة ٩٢٢ هـ ، انتظر در العجيب - ج ٢ ، ق ٤٥/١
- ٥٤- والبذر الطالع ٥٤/٢ ، وشندرات التعب ١١٣/٨ ، والاعلام ١٨٧/٥
- ٥٥- البيررسية : بناها الملك المنصور ركن الدين بيبرس قبل ان يلي السلطنة سنة ٢٠٦ هـ ، انتظر خطط المقريزي ٤٠٤/٣ ، وحسن المعاشرة ٢٦٥/٢ ، والخطط التوفيقية ٩٨/٤

- ٦٤- الغير في بعجة العابدين ٦٢-٦١ .
- ٦٥- التحدث بعنصر الله ١٩٣ .
- ٦٦- التحدث بعنصر الله ١٩٤ .
- ٦٧- المراجع السابق ٢٠٣ وما يعلها ٥٩-٥٨ .
- ٦٠- أبو سعيد الشيرواني ابن علي العلامة ، المناظر ٤٧٦-٣٩٣ هـ ، انظر طبقات الشافعية الكبرى ٨٨/٣ .
- ومقتبسة الدكتور احسان عباس لكتاب الشيرواني - طبقات فقهاء الشافعية .
- ٦١- أبو نصر بن الصباغ : عبدالسيد بن محمد ٤٧٧-٤٠٠ هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٢٠/٣ ، ونكت الاهيمان ١٩٣ .
- ٦٢- إمام الغربين : عبدالملك بن هداة الجوني أبو المعلى ٤٧٨-٤١٩ هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٩٩/٣ .
- ٦٣- الفزالي أبو حامد محمد بن محمد ، جبة الاسلام ٥٠٥-٤٥٠ هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ، ١٠١/٤ .
- ٦٤- ذكر السيوطي في الجامع الصغير ١٢٥/١ أن هذا الحديث صحيح .
- ٦٥- عمر بن ميدالعزيز أمير المؤمنين ، من خلقه يعني أمية ١٠١-٦١ ، بويغ بالخلافة سنة ٩٩ هـ ، انظر تهذيب التهذيب ٤٧٥/٧ .
- ٦٦- سبق ذكره في العاشية ٣٦ .
- ٦٧- أبو العباس بن سريح : أحمد بن عمر ٣٠٦-٢٦٩ هـ ، فقيه الشافعية (في مصر) ، طبقات الشافعية الكبرى ٨٧/٢ .
- ٦٨- أبو حامد الاستقرائي : أحمد بن محمد ٤٠٦-٣٤٤ هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٤/٣ .
- ٦٩- الصنلوفي سهل بن محمد بن سليمان ت ٣٨٧ ، الأعلام ١٤٣/٣ .
- ٧٠- أبو حامد الفزالي ، انظر العاشية ٦٣ .
- ٧١- قفرالدين الرأزي : محمد بن عمر ٦٠٦-٥٤٤ هـ صاحب التفسير ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣/٥ .
- ٧٢- ابن دقيق العيد : محمد بن علي ٧٠٢-٦٢٥ ، الأعلام ٢٨٣/٦ .
- ٧٣- سراج الدين سبق ذكره في العاشية ٤٦ .
- ٧٤- ناصر الدين بن الميلق قاضي القضاة محمد بن عبد الدايم ٧٣١-٦٧٢ هـ ، حسن المعاشرة ٥٢٧/١ .
- ٧٥- زين الدين العراقي أبو الفضل عبدالرحيم بن العسین المعروف بالحافظ العراقي ٨٠٦-٧٢٥ هـ ، توفي بالقاهرة .
- الضوء الالامع ١٧١/٤ .
- ٧٦- التحدث بعنصر الله ٢٢٥ .
- ٧٧- المراجع السابق ٢٢٧ .
- ٧٨- من مقتنيه نظم المقطي التي كتبها الدكتور فيليب حتى .
- ٧٩- المراجع السابق .
- ٨٠- المراجع السابق .
- ٨١- الاقتراح في أصول النحو وجده ، طبع في الهند مرتين ١٣١٠ هـ و ١٣٥٩ هـ ، ونشر يحلب مصوراً عن طبعة الهند ، ثم نشر في القاهرة بتحقيق أحمد محمد قاسم ١٣٩٦ هـ ، وفي كلية الآداب ياستانبول بتحقيق أحمد صبيحي فرات ، ثم نشر بتحقيق الدكتور محمود جمال في السعودية ، وصدر عن مطبعة الثغر ١٤٠٩ هـ ، ونشر الدكتور جمال أيضاً الاصياغ في شرح الاقتراح من تاليفه بدار القلم بمشرق ١٤٠٩ هـ .
- ٨٢- لم الأدلة . حقته الاستاذ سعيد الافقاني ونشرته الجامعة السورية بعشرين ١٩٥٧ مع كتاب الاعراب في جدل الاعراب .
- ٨٣- انظر مقال الدكتور عدنان درويش (اتهام الجلال السيوطي) في مجلة التراث العربي - العدد ١٩٩٣-٥١ ، ص ٩٠ وما يعلها .

- ٤٦- تبين لنا هذا من مقارنة مخطوط كتاب السيوطي بكتاب ابن أبي الدنيا المطبع يدار البشائر بدمشق ١٩٩٢ بتحقيق ياسين محمد السواس ، وain ابن الدنيا هو الإمام أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي ٢٨١-٢٨٠ هـ .
- ٤٧- الضوء الالامع ٦٥/٤ وما يعلمه .
- ٤٨- الاشباه والظواهر النحوية ٦٥٥/١ باب الفروع هي المحتاجة الى العلامات ، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق مع زملائي ١٩٨٧-١٩٨٥ هـ .
- ٤٩- القسطلاني أحمد بن محمد ٩٣٥-٩٥١ هـ ، توفي بالقاهرة ، انظر تاريخ التور السافر ١٠٦ .
- ٥٠- هو شيخ الاسلام كيريا الانصاري ٩٢٥-٩٤٦ هـ ، انظر ترجمته في قلم العقيان ١١٣ ، وتاريخ التور السافر ١١١ ، والعادة المشار اليها في تاريخ التور السافر ١٠٧ .
- ٥١- تاريخ التور السافر ١٠٧ .
- ٥٢- التحدث ينفعه اهـ ١٨١ .
- ٥٣- انظر مقاتلات السيوطي : مقامة الكاوي في تاريخ السقاوي ٩٣٣/٢ .
- ٥٤- التحدث ينفعه اهـ ١٧٥ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ .
- ٥٥- التحدث ينفعه اهـ ١٧٥ ، ١٩٩ .
- ٥٦- التراث العربي - العدد ٥١ ، شوال ١٤١٣ ، نيسان ١٩٩٣ ، دمشق .
- ٥٧- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٦٧ ، العدد الرابع ١٩٩٢ .
- ٥٨- انظر بحثنا المنشور في مجلة مهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، المجلد ٣٤ ، عام ١٩٩٠ ، بعنوان (السيوطى وفن الصورة الذاتية) .

★ ★ ★

#### □ مراجع البحث :

- الارج في الفرج ، جلال الدين السيوطي ، مخطوط الظاهرية بدمشق ( ضمن مجموع )
- الاشباه والظواهر النحوية للسيوطى ، تصح : عبدالله نبهان ورفاقه ، ط بجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٥ .
- الاعلام ، خير الدين الزركلي ، ط ٤ ، بيروت .
- الاقتراح في أصول النحو ، تصح : د. أحمد محمد قاسم ، القاهرة ١٩٧٦ .
- البدر الطالع ، الإمام محمد بن علي الشوكاني ، مطبعة المسادة ١٣٤٨ هـ ، القاهرة .
- بقية الوعاء ، جلال الدين السيوطي ، تصح : محمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة .
- بهجة العابدين بترجمة حافظ المصر جلال الدين ، عبدالقادر الشاذلي ، مصورة عن مخطوطه جستر بيتي .
- تاريخ الخلقاء ، جلال الدين السيوطي تصح : محمد عزيز الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٩ ، ط ٤ .

- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، محبي الدين عبدالقادر العيدروسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥ .
- المتحدث بنعمة الله ، جلال الدين السيوطي ، تج : اليهابيث ماري سارتين ، القاهرة ١٩٧٢ .
- التراث العربي (مجلة) ، العدد ٥١ ، نيسان ١٩٩٣ .
- تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ، دار صادر ، بيروت .
- جلال الدين السيوطي ، بحوث القيت في ندوة القاهرة ١٩٧٦ ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٨ .
- حسن المحاضرة ، جلال الدين السيوطي ، تج : محمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ .
- خطط المقريزي ، المقريزي ، كتاب التحرير ، القاهرة .
- الرسالة ، الإمام الشافعي ، تج : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٤٠ .
- شرح مقامات جلال الدين السيوطي ، تج : سمير محمود الدربوبي ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٩ ، بيروت .
- شذرات الذهب ، ابن الصادق العنبل ، نشر القدس ، القاهرة ١٣٥١ .
- الضوء الالامع ، السخاوي ، منشورات مكتبة الحياة ، لبنان .
- طبقات الشافية الكبرى ، تاج الدين السبكي ، العسینية بالقاهرة ١٢٢٤ م .
- طبقات الفقهاء ، أبو اسحاق الشيرازي ، تج : د. احسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٩٨١ .
- عالم الكتب ، مجلة ، المجلد ١٢ ، العدد الأول ١٩٩١ ، الرياض .
- الفرج بعد الشدة ، ابن أبي الدنيا ، تج : ياسين محمد السواس ، دار البشائر ، دمشق ١٩٩٢ .
- كشف الظنون ، حاجي خليفة ، طبعة مصورة في مكتبة المشنفي ببغداد .
- لمع الأدلة في أصول النحو ، ابن الأنباري ، تج: سعيد الأفغاني ، الجامعة السورية ١٩٥٧ ، دمشق .
- مجلة جمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٦٧ ، العدد الرابع ١٩٩٢ .
- مجلة محمد المخطوطات العربية بالقاهرة ، المجلد ٢٤ - ١٩٩٠ .
- نظم القيان في أميال الأميال ، جلال الدين السيوطي ، تج : د. فليلب حتى ، نيويورك ١٩٢٧ .
- نكت الهيمان ، صلاح الدين الصفدي ، بمنaire احمد زكي ، المطبعة الجمالية بمصر ، ١٣٢٩ م - ١٩١١ م .

# فضل أطباء العرب على أوربا في القرون الوسطى

د. عبداللطيف ياسين

## تقديم لا بد منه :

يجب على القول منذ البداية أنه قد تكون ثمة معلومات في معاشرتي غير جديدة ، وبعض المثقفين ملمون بها ، بيد أن هذى من المعاشرة ليس تقديم معلومات بالدرجة الأولى ، انتهى أهداف من معاشرتي إلى أن تذكر كباراً وصفاراً ، خاصة جيل الشباب ، أنه لا داعي لأن يكون ثمة أي مركب نقش - من أي نوع - لدى المواطن العربي تجاه شعوب أوروبا وأمريكا . انهم - سواء اعترفوا أم لم يعترفوا - قد أقاموا تقديمهم العلمي والفكري والفلسفى على أساس الثقافة العربية الإسلامية ومن ثم فالفضل الأول للنهضة الأوروبية ، ومن ثم الأمريكية ، هو لنا بيد أن هذا لا يكفيانا فغرا . ذلك أنهم عادوا فجعلوا كل الفضل لهم لأنهم حين استيقظوا واستنفروا طاقاتهم للابداع في كل المعالات ، كنا - نحن العرب والمسلمين عامة - نخط في سبات عميق ، ومن المؤكد أنه حتى نهاية الأربعينيات كانا منومين أجبارياً تقريباً . بيد أنه بعد هذا التاريخ لم يعد لنا من عمر لتعلق بركتب العصارة العديدة وتكون من صناعها وليس من مستورديها أو مستهلكيها ، على الرغم من وجود عقبات كثيرة تضعها أيد أجنبية وبعض النقوس الصغيرة التي لا تخلو منها مأمة .

إن معاشرتي عن تاريخ أمتنا وماضيها في الطب وفضل الأطباء العرب على الطب في أوربا في القرون الوسطى من خلال ذكر مسيرة علماء وأطباء عظاماء لا لتمجيد

الفرد العربي ودوره البطل ، مع أنه من الصعب إلغاء هذا الدور ، ولكن بعد تشديبه وتهديبه حتى تواكب الفردية العربية مقتضيات العصر ، عصر الأمم الكبيرة ، والغاية العالمية السائدة التي تدعونا للالتحام والانصهار والتكافل لنفلت من قبضة الشر المحيق بنا .

لقد سيطر هؤلاء العباقرة العرب بمقولهم البيري ونفوسهم الطاهرة المخلصة على حضارة أوروبا فترة طويلة من الزمن ، فما الذي ميزهم عن مفكري المصور العربية الأخرى ، فالمادة السننجاوية والنخاعية البيضاء واحدة ، لكن كما يبدو النفوس المنية هي التي تغيرت .

إن استعادة ذكرىهم ليست بكاء على الأطلال ، فنحن كما قال أحدهم : لأنؤمن بالفتى الذي يقول كان أبي ، بل نؤمن بالذي يقول ها أنذا ، ييد أنه مع الأسف ، أصبحت ها أنذا مصهورة مغلوبة على أمرها مليئة بالعقد والابياءات المخارجية ، فاقدة شخصيتها تامة ولم تكن سيدة نفسها .

فها أنذا هذه بحاجة إلى دفع ، إلى إثارة جدية ، إلى تذكر بماض عريق كي تنهد ، وتذكّر وترفض التبعية . وتعيد شأتها وتتخلص من ماديتها وإنما ، وهو المذهب الدرائي .

فإذا أردت استعادة ذكرى تاريخنا وشخصيتنا فليسلكي نرتد إلى الماضي ، بل لنملك القدرة على التواصل ومواجهة المستقبل ، ومن هنا كانت العاجة إلى إعادة كتابة التاريخ على الرغم من تخوف بعضهم من أن هذه الاعادة نابعة من احياء خارجي ، هدفه أصابتنا برد فعل ينتهي بنا إلى احباط وتقوقع لا لا فالابياءات المادية لأمننا والحاقدة علينا ، موجودة منذ قدم التاريخ ، ولم تكن لتؤثر على تلك النفوس الجبرة الواثقة من نفسها ومن صدقها وتصميها ، لكن استطاعت هذه الابياءات ، للأسف الشديد ، أن تؤثر في بعض منها ، لا لأنها قوية وصعب صدتها بل لأن بعض النفوس ضعفت وهشت ، وأصبح لديها الاستعداد لتقبل وتنفيذ ما تحمله لهاتلك الابياءات .

إذا يجب أن نعيد كتابة التاريخ القديم لنسعو من كبوتنا واحتضارنا على الرغم من المظاهر المعاصرة والقشرة البراقة للحضارة التي نعيش فيها ، ولنتحرر

من كل التبعيات وخاصة التبعية الفكرية التي نجمت عن ضياع الذات والفراغ الفكري .

يجب أن نتخلص من التبعية الفكرية التي دخلت إلى الوطن العربي في العصر الحديث قبل دخول جنود الاستعمار ، وترسخت في بلدان العرب قبل ترسخ رجال السياسة والإدارة الاستعمارية .

ومما لا شك فيه ان التاريخ ينبئه العقل ويوقف الضمير ، ويحرر الذات ، ويعطي دفعة قوية الى الأمام . كما تعتبر كتابة تاريخ العرب وتراثهم شرطاً أساسياً للنهضة ، ولتكوين الإنسان العربي الجديد المتمسك بأصالته والتغرس من الأوهام ، والممالك المحس النقيدي . والذي لديه الاستعدادات للتطور والعطاء الحضاري وللتخلص من ربة التبعية بأنواعها .

ان كتابة التاريخ والرجوع الى التراث ضرورة بالمعنى الذي ذكرته ، لأن أسوأ ما تصيب به أمة أن تكون بلا ذاكرة ، وبلا أصلة ، حيث لا أصلة بلا تراث ، لأن الحضارات كلها لا تأتي فجأة . وإنما تتنامي طبقات متواлиات في البناء ، وروابط متراكمة في صدور الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم ، واتجاه ضمائرهم نحو الأفضل وصحة رؤاهم .

\* \* \*

### المقدمة :

تمتد القرون الوسطى حسب رأي أكثر المؤلفين من سقوط الإمبراطورية الرومانية ، في القرن الخامس ، إلى أواسط القرن الخامس عشر . تتناول هذه الفترة ألف سنة تقريباً ، ظهر فيها الإسلام وتأسست حضارة عربية تميز فيها الطلب بشكل خاص ، وقد عرفت هذه النهضة الطبية بطب العرب في القرون الوسطى . وأول ما قامت الدراسات العديدة حول تاريخ الإسلام وحضارته ، قامت في أوروبا الغربية في وقت تحكم فيه التفكير القومي العنصري لذلك عندما أقدم بعض أوائل المستشرقين على البحث في الفلسفة العربية مثلاً ، نفوا وجود شيء من هذا القبيل ، وقالوا بوجود فلسفة إسلامية ، أنتجهها فلاسفة مسلمون من أصل غير عربي ، وفي هذا مغالطة عنصرية كبيرة ، لأنه لا يجوز الفصل بين

العروبة والاسلام ، حيث لا يمكن فصل القلب عن الجسد . ثم ان نتاج الحضارة الفكرى وسواء ما دون بالمرتبة هو عربي اسلامي وليس غير ذلك ، هو نتاج بلا شك مرتکز الى ما أنتجه الأمم الأخرى ، ومستفيد منها ، إنما أخرج وفقاً لما يasis عربية ، وعالج قضياً ارتبطت بالمجتمعات العربية الاسلامية .

وقد حاول بعض المستشرقين أيضاً أن يطمس هذا التاريخ فقال : « ان العرب كانوا ناقلين ومتراجعين عن أبو قراط وجالينوس ، وان الطب العربي طب منقول عن اليونان والهند والفرس ومصر ، وليس فيه جهد ابداعي ، أي بمعنى آخر لم يكن العرب الا وسطاء وليس عندهم روح الانتاج الجديد ، والتالي夫 . وهو افتراء ، تكذبه في الطلب مثلاً مخطوطات الرازي وما جاء فيها تصويبات كثيرة لأبو قراط وجالينوس ، وكذلك تكذبه ابدايات ابن الهيثم في البصريات وليس العكس . »

وقد ظلت أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر لا تعرف الا الأقرباديين العربي ولا تعتمد في طبها الا على مخطوطات ابن سينا والرازي والزمراوي وابن النفيس ، وما زالت أوروبا تسمى بعض المركبات الكيميائية بأسمائها العربية فالطرطي هو Tartar والبورق هو Ac. Boric والشراب هو Alkohol . وغيرها من كلمات أخرى في مجالات متعددة ؛ كالسمّت Zenith والنظير Nadir والسمّت Azimut والجبر Chiffre . والخوارزمي Algorythme وأخيراً وليس آخرأ الصفر .

وكانت الحضارة العربية الاسلامية هي الجامعة التي أخذت عنها أوروبا علومها الطبية في عصورها الوسطى المظلمة . وقد لاحظ اسامي بن منقذ مؤرخ دمشق الفرق بين الطب العربي المتقدم وبين الطب الأوروبي البدائي فيقول :

« ومن عجيب طبهم أن صاحب المنطرة (في جبل لبنان) كتب إلى عمي (سلطان أمير شيزر) يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصراانياً يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له « ما أسرع ما داويت المرضى ! » قال : « أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيحة ففتحت الدملة وصلحت . »

وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرينجي فقال لهم « هنا ما يعرف شيئاً يداويم » ، وقال للفارس « أيماؤحب اليك : تعيش ب الرجل واحدة أو تموت ب الرجلين ؟ قال « أعيش ب الرجل واحدة » قال « أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً » فحضر الفارس والفالس وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس « اضرب رجله بالفالس ضربة واحدة واقطعهما » فضربه وأنما أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فصال من الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فلعلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم الشوم والمخردل فزاد بها التشناف . فقال « الشيطان قد دخل في رأسها » فأخذ الموسى وشق رأسها صلباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحکه بالملح ، فماتت في وقتها . فقلت لهم « بقي لكم إلى حاجة » قالوا « لا » ، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه » .

لقد أثبتت العرب منذ القرن التاسع للميلاد أنهم قد ملكوا الطريقة العلمية الصحيحة ، وليس بصحيح القول أنهم ما أتوا بشيء جديد ، حيث أجاب الفيلسوف الألماني هومبولت عن هذا بقوله :

« ان العرب لم يقتصروا على حراسة كنوز المعرفة الذي عثروا عليه بل أضافوا إليه ووسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة » . وكتاب المستشرقة الألمانية زيفريد هونتكه « شمس العرب تسطع على الغرب » ، من أوائل الكتب التي كذبت ادعاء الغربيين العاديين ، حتى أن دانتي ذكر في ملحمته الملهأة الالهية أبقراط وجالينوس وابن سينا . طرق انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب :

كان عالم الفرب في أوروبا قبل القرن الميلادي العاشر في جهل مطبق إلى أن احتك بالعالم العربي وأخذ عنه بنور النهضة فأشرق فيه نور العلم ، ولقد تم هذا الاحتكاك في ثلاثة جهات :

- ١ - العروب الصليبية .
- ٢ - صقلية .
- ٣ - إسبانيا .

## ١ - انشاء المكتبات والفالهارس :

فابن النديم ، على سبيل المثال ، نشر وحده ، في بغداد ، فهرساً للملون يضم أسماء جميع الكتب التي صدرت في الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعيات والكيمياء والطب . كما وجد في الأندلس ، زمن الخليفة الحكم الثاني نصف مليون كتاب قيم في العلوم ، وفي القاهرة أيضاً ملليون من المجلدات ، ويمكن قول ذلك في دمشق والقيروان ٠٠٠٠ وغيرها .

وهكذا اجتاحت موجة الثقافة العربية الفرب حاملة في ثناياها المعلوم اليونانية كلها ، والعلوم الشرقية . فكان فعلها على العالم عظيماً . ولهذا كان للعرب الفضل في تثبيت جذور الحضارة الأوروبية ، ليس فقط في الطب بل في جميع العلوم على اختلاف أنواعها .

وقد كان لبعض المدارس والجامعات الغربية التي تأثرت بالثقافة العربية شأن عظيم ، في النهضة الطبية في أوروبا ، ونخص من هذه المدارس بالذكر مدرسة سالرنو ومونبلييه وبولونيا وباداما وغيرها .

لقد كانت مؤلفات العرب الطبية هي المعتمدة عليها في المدارس الفرنسية والغربية ولم تزل الحالة هي هي حتى القرن السادس عشر ، حيث أخذت الغربية يترجمون أيقراط من اليونانية مباشرة ، ولم تحذف مؤلفات العرب من برامج التدريس إلا في أواخر القرن السادس عشر .

وكما كان الأطباء يذهبون من الغرب إلى الشرق طلباً للعلم والممارسة كان الأطباء يذهبون من الشرق إلى الغرب قاصدين علماء العرب في إسبانيا وقد اجتمع في خزانة قرطبة زهاء ستمائة ألف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعين مجلداً . وكان بين دوائر التدريب في هذه الجامعة (قرطبة) دوائر للطب والفلك والرياضيات ، والعلوم الدينية والشرعية ، وبلغ عدد الطلاب المتنسبين إليها بضعة آلاف ، وأصبحت شهاداتها سبيلاً للوصول إلى أعلى المراتب وأرفع المناصب وكانت النساء شقيقات الرجال في اقتحام المصنون العلمية فاشتهر منهن في الأدب والطب ، حتى في الفروسية ، عدد كثير .

## مصادر الطب العربي :

وفي الحقيقة بنى العرب هيأكل علومهم الطبية عن الطب الإغريقي ، فأخذوا كثيراً عن جاليتوس وجلموه أستاذهم ، وألموا ببعض الطب الفارسي والهندي لكنهم كيفوا الطب حسب حاجاتهم ، وأضافوا إليه كثيراً فأغنوه وتوسعوا به ، واتبعوا طرقمهم الخاصة ، وأساليبهم العلمية الرصينة ، وقاموا بالأبحاث ، وتطبيقاً لأمانتهم العلمية نسبوا للإغريق كل ما ترجموه عنهم أو أخذوا منهم . وهم الذين أغنوا التراث الإغريقي وخلدوه ، وقد نشروا علومهم وثقافاتهم التي كانت هي الأساس القوي للنهضة العلمية والحضارية في أوروبا ، لكن علماء الغرب لم يكونوا مثلهم متزمنين الأمانة العلمية فأنكر كثيرون منهم على العرب إنجازاتهم الطبية ، بل لقد حاول كثيرون منهم التعتمد على العضارة العربية الإسلامية ، بعد أن غرفوا من روائعها ونهلوا من فضلها . حيث وجد الكثير من الكتب الهامة التي ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأخرى لا تحمل اسم المؤلف الأصلي ، وكان يعذف هذا الاسم من غير ذكر جنسيته أو دينه فكتب البراج أبي القاسم الزهراوي المترجمة كانت تحمل اسم بال كازيز Bulcasis وكتب أبي بكر الرازي المترجمة كانت تحمل اسم ريزز Rizes لكن الأمانة والمنصفين من الكتاب الغربيين كانوا يتحرون الحقيقة ويقدمونها وينذرون الأثر الكبير المضيء الذي تركه العرب في تقديم الطب والعلوم الأخرى .

قال المؤرخ الكبير جرمان من مونيلية :

« اننا نشهد للكتاب العرب الذين كتبوا في المواضيع العلمية بمزيدة الايضاح التام ، والطريقة التعليمية ، لأن هؤلاء العرب الذين يرجعون إلى نتاج قديم من مدينة اليمن كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا ولم يكن فيهم شيء من البربرية » .

كما قال الأستاذ فورغ - الذي لمع اسمه في بداية القرن العشرين ، لا في فرنسا فحسب بل في العالم العربي كله - في خطاب تذكاري ألقاه في أحدى الجامعات الإسبانية :

« ان إسبانيا أرض قائمة بنفسها ، يتعلّى أهلها بسرعة الفكر والاستعداد

للنضال ، مما يجعل هذه الأمة فريدة في باليها ، ويرجع ذلك إلى استيلاء العرب على إسبانيا ، واحتلاطهم بشعبها الخلطاء دموياً أدى إلى السير بأوروبا في مضمار التقدم ، مما دعا ليبريري إلى القول : «احذف العرب من التاريخ يتاخر عصر التجدد في أوروبا عدة قرون » .

### **تأثير المرأة العربية في مزاولة الطب :**

ولم تتوان المرأة العربية عن المساهمة في الخدمات الاجتماعية ، وكان على رأس الخدمات الاجتماعية التي برزت فيها المرأة التمريض والاسعاف الصحي في السلم وال الحرب ، وقد أجاز الشرع هذا العمل وحبيبه إلى النفوس ، فقد نص الإمام أحمد على أنه يجوز للمرأة أن تخدم الرجل وتشاهد منه عورة في حال المرض . وقال مثل هذا القول الإمام المحدث الحافظ الذهبي .

ولقد ظهر الكثير من نساء الصحابة في صفوف القتال يضمدون الجرحى ويسقين العطاش ، ومنهن أم سليم رضي الله عنها .

وكان يطلق اسم الآسيات على النساء العربيات اللائي يعملن في تضييد الجراح، وجبر العظام والوقاية من النزف ، وكن يسرن إلى المعارك مع الرجال جنبًا إلى جنب ، حاملات أواني الماء وما يحتاج إليه الجريح من اللقائف والجبائر وغير ذلك وكن ينفذن بين الرجال مسعفات معالجات ، ومنهن من كن يشترين في القتال ، وكانت لهن موقع مشهورة .

وسأذكر بعضهن على سبيل المثال : رفيدة الإسلامية ، أمينة بنت قيس الففارية . أم سليم ، أم سنان الإسلامية ، أم عطية الانصارية ، نسيبة بنت كعب المازنية ، زينب طبيبة بني ناود ، والشفاء بنت عبد الله التي اشتهرت في معالجة الأكريما . . . وغيرهن .

### **إنشاء العرب للمشافي :**

وقد سبق – العرب العالم في ابتكار نظام المستشفيات والاهتمام بالمرضى ومعالجتهم . وقد تبارى الخلفاء ووزراوهم وسلطانين العرب وملوكهم وذويو الجاه والثروة والعلم في إقامة هذه المستشفيات وتحسينها ، فكانت فيها المشافي العامة

والمشافي الخاصة ، التي اشتهر من هذه الأخيرة المجازم والبيمارستان اضافة الى المشافي العربية المتنقلة ، ومشفى الاسعاف الأولى ، والمشافي العربية . وقد اعتمد الغرب بعدها هيكلية المشفى العربي بوصفه نموذجاً لبناء مستشفياته . وقد أدخل المقتدر طريقة المشافي المتجولة ، كما طور في عهده أيضاً سنان بن ثابت بن قره خدمات المشافي لتشمل الأحياء المجاورة والسجون والأماكن الشعبية ، وكان بذلك رائداً في تطبيق التأمين الصحي الطبيعي الشعبي الذي بدأ الغرب بتطبيقه حديثاً .

يقول الكاتب فستاب : « ان تصميم المشافي العربية كان في تلك الأيام تصميماً صحياً يراعي شروط التهوية والمياه حتى أن مدرسة ساليرنو كانت تعزى في شهرتها وسمعتها الى الأطباء العرب ، الذين كانوا يمارسون علاج مرضاهم بالطرق العلمية والبحث والدروس في حين كان المرضى في أوروبا يتلقون علاجاً بدائياً » .

وقد أشرف الطبيب العربي سنان بن ثابت بن قرة على بناء البيمارستان المقتدرى وبيمارستان السيدة . وكان يرأس امتحان أطباء وصيادلة بغداد ، ثم تحولت المستفيات الى مراكز طبية نشطة وكليات متخصصة تخرج أفسواج الأطباء الجدد من جراحين ومتخصصين ، وكانت الكليات مجهزة بقاعات للمحاضرات ومكتبة يتواجد اليها طلاب الطب من أقصى الدول الإسلامية . ومن المشافي المشهورة أيضاً مشفى النوري في دمشق ، والمشفى الناصري في القاهرة ، حيث تخرج معظم الجراحين العرب فيما .

ويؤكد ابن القلانيسي في « ذيل تاريخ دمشق » تفوق خيرة الجراحين العرب الكبيرة ومداواة الجراح ، حيث كانت الخدمات الطبية التي تقدمها دمشق آنذاك من خيرة الخدمات في العالم .

وكان في دمشق مارستانأً هاماً تلاه بناء مارستان آخر في عام ١١٥٤ م ويصف الرحالة ابن جبير الذي زارهما بعد بضع سنوات يصف سير العمل فيما يقول :

« وله [ أي المارستان ] قوَّمة بأيديهم الأزمة المحتوية أسماء المرضى ، وعلى الن نقفات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يبتكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلح لهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم » .

لقد استخدم الأطباء العرب الموسيقى بهدف الترويح عن المرضى والسرعة في شفائهم فكانوا في بيمارستان قلاوون مثلاً يرثفون عن المرضى بالموسيقى وتلاوة القرآن الكريم ، كما كانوا يعطون كل مريض منحة مالية عند خروجه حتى لا يمْجَد العودة إلى عمله في فترة النقاوة .

وفي الحقيقة كان لهم في ميدان التنظيم الصحي جولات تذهبنا حتى في هذه الأيام ، فالمشافي التي أنشؤوها ، والعناية التي كانت تبذل فيها أمر لا تجده عند أيَّة أمَّةٍ من الأمم ، في تلك المصوَّر ، وقد عبر ابن شاهين في النجوم الظاهرة عن روعة هذه المشافي بقوله :

« لا مثيل لها في الدنيا والمعالجة مجانية وكذلك تعليم الطب » .

لقد اشتهر من الأطباء العرب في فجر الإسلام العارث بن كلدة الثقفي من الطائف وقد تعلم الطب في مدرسة « جنديسابور بأرض فارس » . ورجع إلى الطائف واشتهر طبه بين العرب ، وكان رسول الله عليه يوصي بالتطبِّيب عندَه . ومن أجوبة العارث بن كلدة عن أسئلة كسرى ملك الفرس عندما طلب منه النصيحة للحافظة على صحته :

« لا تغشَّ أهلك سكران ، ولا تقم بالليل عريان ، ولا تتعقد على الطعام غضبان ، وقلل من طعامك يكن أهناً لِنومك » ولما سأله كسرى ملك الأندلس مداناً الدواء ، أجاب : « ما لزمتك الصحة فاجتنبه » ، وعن الفواكه قال : « كلها في اقبالها وحين أوانها » . وقد أوجد العرب في دمشق وبغداد ومصر والكوفة وقرطبة جامعات كبيرة ، حتى أنهم أنشؤوا في كثير من المدن العربية ولا سيما الأندلس مدنًا جامعية أشهرها مدينة طلمونكة الجامعية قرب مجريط (مدريد) وكانت الجامعات العربية امتداداً للجواجم وانتشاراً لها يقصدها الراغبون في النهل من مناهل العلم من كل عرق ولون ودين ومذهب . وتميزت جامعات الأندلس وخاصة جامعة قرطبة بتواجد رجال أوروبا عليها ، ومن بينهم اليابا سلفستر الثاني فتعلموا فيها وعادوا إلى بلادهم فأصبحوا أساتذة في جامعات باريز وأكسفورد وشمال إيطاليا ومونبلييه في جنوب فرنسا ، وغيرها من مدن أوروبا الكبرى حيث نشروا العلم

العربي فعم أوربا كلها . وكانت آراء ابن رشد وابن زهر والزهراوي وابن سينا في مقدمة الآراء التي تقبلها الغرب وتبناها .

### انجازات العرب والمسلمين في حقل الطب :

وازدهرت أيضاً في المدن الجامعية العربية ولا سيما في الاسكندرية ودمشق وبغداد صناعة نسخ الكتب فاشتعلت جذوة العلم وعم نوره أرجاء العالم . ونكتفي هنا بذكر ماله مساس بالطب حيث تعمق العرب في دراسة الفيزيولوجيا لي علم وظائف الأعضاء وعلم الصحة وفن الأدوية ، وما زال الكثير من أدويتهم مستعملما حتى الآن . وعرف العرب التغذير باستعمال البرودة الشديدة، والأعشاب المرقبدة ؛ كالعشيش والسكران والدافتونا والبلادونا ، كما أقدموا على اجراء عمليات جراحية واسعة ، ابتكروها وانجعوا فيها . وعرفوا طب الأسنان وخلعها وحشوها ، وذكر الرازي سبعة أنواع من المعاجين والمساحيق لعلاج الأسنان وهي لا تخرج في تركيبها عن المعاجين العالية ، من حيث احتواها على المواد العطرية ، والمواد المطهرة ، والمواد الحاكمة والمواد القابضة والمواد المزيلة للروائح . كما عرفوا فتح الضرس بالثاقب واماطة عصب الضرس باستخدام الزرنيخ .

وكان العرب أول من استحضر احماض الكبريتيك ، والنيرييك والماء الملكي وايدروكسيد الصوديوم والنشادر ، وتنرات الفضة وكلوريد الزئبق ويود الزئبق والانتموان ، كما اكتشف العرب في الكيمياء أيضاً الكحول والبوتاسي وحامض الليمون ، وكثير من المطور والأرواح والأشربة وغيرها . كما عرفوا صناعة استغراج السكر فيسروا بذلك عوامل الاغتداء . وعرف العرب بتحضير الأدوية ، ووسائل التقطير والتبييض والترشيح والتصنيف والتدويب والطبيخ والتبولر . ويعد العرب أول من عرف خطير التمادي في الفصد ، العرب أول من خاط العروج بخيوط مصنوعة من الامعاء (كاثوت) وأول من أقر سراية الأمراض وأحسن وصفها ، من ذلك وصف الجدري والحسبة ، وهم أول من قاوم بعمليات جراحية واسعة على الرقبة والصدر والمثانة ، والعرب هم أول من أسس المكتبات العلمية ، وجعلها سبيلاً لمن أراد أن يتعلم أو يستزيد . وهم أول من صنف

الكتب في علم الأدوية ، وهم أول من أرخ للطب وللأطباء ( عيون الأنبياء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبيعة ) ، والحضارة العربية الإسلامية قدّمت للعالم ، لأول مرة ، الكتب الطبية الموسوعية ذات الترتيب المنظم والمنهجي ، في حين اقتصرت المؤلفات الاغريقية على المختصرات والخلاصات وافتقرت إلى الشمولية والبحث المنظم والمنهجي ، وقد صنف المكتوب في الطب من العرب ذوو الخبرة والشهرة الواسعة والتبرّس والمران في الطب ، وخاصة في المواضيع التي صنفوا فيها الكتب ، في حين ألف المختصرات الطبية الاغريقية بعض الفلسفه ، والكهنة المعتزلين في صوامعهم الذين لم يمارسوا الطب . وقد ألف العرب في فترة ٨٥٠ - ١٢٥٠ م ما لم يستطع الاغريق تاليفه في ألف عام ( من عهد ابقراط حتى عهد بولص ) .

وكان ابن سينا أول من غلف العيوب بالذهب والفضة ، وأول من وصف التهاب السحايا وصفاً صحيحاً ووصف الأمراض التي تسبب البرقان وفرق بين شلل الوجه الناجم عن سبب عضوي أو غير عضوي كما فرق بين ذات المجنب والمأفعاب بين الأضلاع ، ووصف السكتة الدماغية . وكان الزهراوي أول من حضر الأقراد بالكسس في قوالب خاصة، وأول من اخترع الجراحة المصورة كما نراها اليوم في كتب الجراحة العملية ، فقد جاء في كتابه الجراحي الشهير نحو مائتي صورة عملية . كما أنه أول من عالج حصاة المثانة بالتفتيت وأول من ربط الشريانين وأول من استعمل السنار في استخراج الزوارى اللحمية من الأنف ، وأول من استأصل الرضفة وأول من وصف التناور ، كما أنه أول من عرّف بحسنات الوضعيّة المائلة في العمليات الجراحية التي تفرضها بجعل الرأس منخفضاً عن الأطراف ، وستعملها نحن في عملياتنا الجراحية دوماً ، وقد عزّيت معرفتها إلى ترانديلنبرغ الجراح الشهير الألماني ، مع أنها من توصيات جراحنا العربي الكبير ، وقد قال فيها قبله بزمن بعيد . كما كانت له محاولات متقدمة في علاج البواسير والنaso-ranial والفتق . وقد سبق الزهراوي الجراحين بالف عام إلى اكتشاف جراحة دوالي الساق بطريقة سل العروق ، وهو أسلوب لم يعرف إلا منذ أربعين عاماً تقريباً .

وفي القرن الثاني عشر عندما ترجم جيرارد الكريموني كتاب أبي القاسم

الزهراوي الى اللاتينية ، فصار كتابه هذا الكتاب المتساول في أيدي الناس ، وما يدل على قيمته العلمي أن الأستاذ القديم في دوشالياك من مدينة مونبليه استشهد بكتاب أبي القاسم أكثر من مائتي مرة . وحسبك شاهداً على رقي الجراحة العربية ما قاله لانفرانك في أواخر القرن الثالث عشر بعد أن ذهب الى ايطاليا واطلع على ترجمة مؤلفات أبي القاسم حيث قال عن جراحه باريسي بعد رجوعه اليها : « انهم جهلاء ، ولا يكاد يوجد فيهم جراح عالم بصنعته ، ولا غرو بعد ذلك أن ينعت أبو القاسم بأنه أبو الجراحة .

أما الرازى فكان أول من جرب الزئبق على القرود ليرى مفعوله وأول من استخدم الزئبق في المراهم . وللرازى رأى جيد في علاج الحروق بالماء البارد وذلك آخر ما توصل اليه العلم الآن في علاج الحروق ، حيث يوضع الدراج أو الساق المحرقة في الماء البارد مدة دققتين ، لتخفيف الألم وتقليل فقدان البلازم . وكان الرازى أول من تكلم عن التشخيص التفريقي حينما تغليط الأمراض وتشابه علاماتها وأعراضها ، وقد وصف الجهاز الهضمي بدقة . كما وصف تشريح المعدة وطبقات العضلات المختلفة فيها تماماً ، كما نصفها اليوم . وفرق بين النزيف المتسبيب من القرحة والنزيف المتسبيب من بواسير المري . ووصف أقسام الطباشير للعموسة وهو علاج نستعمله اليوم ، وقدم وصفاً دقيقاً لمرض الكزار .

أما ابن الهيثم الموسوعي الثقافة ، فقد عمل في الطب أيضاً واهتم بطبع العيون وقد قيل أنه أوصل علم البصريات في زمانه إلى أعلى درجة من التقدم . ويعد أول من كتب عن أقسام العين ورسمها بوضوح تام ووضع أسماء لبعض أقسامها وما تزال مستخدمة حتى الآن .

وهو من علماء البصريات المشهورين في العالم ، فهو لم يكتف بتشريح العين وتسمية أجزائها بل فسر آلية الرؤية ، وكان أول من بين أن ذلك يتم من انعكاس شعاع صادر عن الجسم المرئي الى العين وبذلك خالف متقدمييه وعارض النظريات التي كانت قائمة .

كما درس خواص المرايا بأنواعها وراقب شكل الضوء والأشعة أثناء و لو جها الى الأماكن المظلمة من ثقوب ضيقة ، وشاهد الصورة المقلوبة للظل ، فكان بهذا الرائد الأول لاختراع الكاميرا .

- أما الأسباب التي جعلت العرب متعطشين إلى الاطلاع على علوم من سبقهم من الأمم ، حفاظاً لها مبتكرين فيها عاملين على نشرها .
- ١ - طبيعة العربي فقد خلق العربي بحاجة محبة للاستطلاع فما أن جاء الإسلام ودان به أكثر العرب حتى رغبوا في اقتباس العلم .
  - ٢ - القرآن الكريم والحديث الشريف اللذان حبباً العرب والمسلمين بالعلم حباً جعله في نظرهم أثمن شيء بعد الإيمان .
  - ٣ - تشجيع الخلفاء الراشدين الناس على طلب العلم وتعلمه ، فقد روي عن علي رضي الله عنه قوله : « كن عالماً أو متعلمًا أو مستعملاً أو محبًا للعلم ولا تكن الخامس (أي جاهلاً) فتهلك .
  - ٤ - استعراضاً للأسم التي انفتح قلبها للإسلام فآمنت به وأعجبت باعجاز قرآنه وببلغة حديثه . فصدقت عن التأليف في لغاتها الأصلية ، وألفت فيما عدته لغة العلوم حينها ، لغة العرب وأصبحت تعدد نفسها عن بياً مستعربة ، تنافس العرب بالعربية .

وكان موجهها إلى هذا الاتجاه ما دعت إليه فتوحات العرب من أخاء ومساواة وعدالة ومعاملة بالحسنى وتسامح لا حد له . مما يصح معه أن يقال أن العرب والمسلمين فتحوا القلوب ، وفرجوا عن سكان البلاد التي افتتحوها الكروbs ، فدان بمعتقداتهم جلها ، ومن لم يؤمن بها قدرها فاحترمها ولم يتوان عن خدمتها وخدمة المؤمنين بها ، وهكذا استمرت في ذلك العين كل مسلم كما اعتز بالاستعراب غير المسلم وفخر بعروبه كل عربي ، وكان القرآن الكريم والحديث الشريف وجهاً الدنيا والعالم لقومية العرب فبرهان الإسلام فيهما وديانتهم أحيبطت بهما . وقد أخلص هؤلاء من عرب مسلمين وغير مسلمين أو مستعربين أو مفتونين بلغة العرب للعلم فأسهموا في نقله ونشره والتأليف فيه .

لقد تحققت حركة التأليف والنقل في الطب عند الأمويين أثناء حكمهم للملك امتد ما بين سمرقند وأقامي الأنجلوس ، وكانت دمشق منارة يشع نورها على أرجاء واسعة لا بل العالم كله حيث احتلت الثقافة العربية مركزاً لا مثيل له في

التاريخ . لقد وجد الأمويون في المدارس السورية ومدرسيها ، التي كان يرعاها السريان ، ما يحقق غاياتهم ، وان أول من أمر بالترجمة خالد بن يزيد بن معاوية ، كما يروي أكثر المؤلفين ، وفي زمن مروان بن الحكم فترجم « ماسرجويه » كتاب أهرن في الطب ، الذي تم نشره في عهد عمر بن عبد العزيز . وقد اقتبس العباسيون الطب عن الفرس والهنود ، ولا سيما اليونان والسريان منذ عهد المنصور . وكان عصر هارون الرشيد عصرأ ذهبياً فأصبحت فيه بغداد عاصمة العالم في الثقافة والسياسة والاقتصاد ، وأنشئت فيها دار الحكمة التي تحولت من خزانة للكتب الى مؤسسة للترجمة والنشر .

كما كانت بلاد الخلافة العباسية في عهده أغنى وأقوى دولة في الأرض ، ففي عاصمتها بغداد ألف طبيب مجاز ، ومستشفى كبير مجاني ، ومصلحة بريد منتظم ، وشبكة مياه ممتازة ، وأخرى متصلة بمنتفعات المنازل لتوصيف مياه الخدمة ، ومصنع للورق ، ولسوف يتعلم الفريبيون الذين لم يكونوا يستعملون غير الرق للكتابة قبل دخولهم بلاد الشام ، سوف يتململون فن صناعة الورق من تبن القمح ، لقد نشط الخليفة هارون الرشيد العلوم بجميع الوسائل ، وتبعه في ذلك وزراؤه بل زادوها تبسطاً في الأبحاث وتوسعاً في العلاج ومهارة في الجراحة والتثريج وخبرة في العقاقير وتركيبها ، ومعرفة في الكيمياء وتحليلها . وكان المأمون ذا ولع خاص بالطب ، هذا ولوع واسع في مجالات كثيرة ، واشتهر من خلفاء العباسيين المنصور والمأمون بجههما الواسع العلمي ورغبتهم في التطلع إلى آفاقه البعيدة . ولا بد من ذكر السريان واسهامهم الكبير في حركة النقل عند الأمويين والعباسيين ، الذين أنشأوا حضارة رفيعة ، تميزت بوضع علوم هامة أدت إلى رصد الكواكب واختراع المزاول . واللغة السريانية من اللغات السامية . ولقد شرفت بأنها كانت لغة السيد المسيح عليه السلام . لقد كان الرسول العربي الأمين أول من وجه إلى تعلم السريانية واقتباس العلوم من « السريان ». فقد جاء في الصفحة ١٦٥ من الجزء الأول من صبح الأعشى : « روى محمد بن عمر المدائني في كتاب العلم والدواء قول الرسول عليه السلام :

« أتحسن السريانية ؟ قال لا ، قال : تعلمها فتعلملها زيد » .

ولا بد من القول هنا بأنه لو لا صناعة الورق المحلية لما تمكن سوق الكتب من الرواج . حيث كانت هذه الصناعة من أجل "الخدمات التي أسدتها العرب والاسلام الى اوربا ، ولو لاها لما تم اختراع آلات الطباعة ذات العروض المترددة ، وكانت شاطبة مركز صناعة الورق في اسبانيا العربية الى فرنسا .

### أدب الطب :

إن من أهم ميزات الطب عند العرب في القرون الوسطى هو كونه صناعة نبيلة لا يسمح بتعاطيها الا من حصل على خبرة واسعة في الطب . وأعد لذلك إعداداً علمياً وخلقياً . وقد اشترط حكام العرب على محترف المهنة الطبية أن يكون عالماً بالتشريح ملماً بعلم وظائف الأعضاء محبيطاً بجميع العلم التي لها صلة قريبة أو بعيدة بالطب وأخصها التشريح . ويستدل على عنايتهم به ما ذكرته بعض المصادر ، وهو أن يوحنا ابن ماسويه كان يُشرح جثث القرود في قاعة تشريح خاصة بناتها له الخليفة المتخصص على ضفة دجلة ، وكان الخليفة نفسه يساعد في الحصول على تلك القردة من بلاد النوبة . وقد جاء في أقوال الرازى ما يدل على اعتبار العرب معرفة التشريح أساساً لكل عمل طبى ، فقد تقدم منه طبيب ليجري له عملية في عينيه فسأله الرازى عن طبقات العين وصفاتها فلم يحسن الاجابة فقال له : « لا حاجة لي بطبيب يقدح عيني ولا علم له بتشريح طبقات العين » .

ولا بد في هذه المناسبة من ذكر علي بن عمار الموصلي المولود في البصرة حيث تعلم فن الكحالة ومارسها في العراق . وفيها صمم واحتصر الآلة الشهيرة (المقدح الأجوف ) ثم سافر الى دمشق واجتذبه مصر فاستقر فيها . وقد استحدث عملية شفط الساد الطري بالمقدح الأجوف التي تعتبر نقلة نوعية كبيرة في جراحة العين . وهو أول من كتب التقارير الطبية المفصلة عن عملية الساد . وقد شاعت عملية شفط الساد الطري فذكرها أطباء المغرب والأندلس كالزهراوى والقصرى ، وكذلك الأطباء السوريون كسديد الدين بن رقيقة وخليفة بن أبي المعاسن الجلبي وصلاح الدين الحموي وقد نسبوها كلهم لعمار الموصلي .

أما عن اياتهم بعلم وظائف الأعضاء، فيلاحظ الباحث أثرها في أكثر كتبهم الطبية . أما عن اياتهم بالمعالجة فكانت عظيمة الشأن حيث كانوا يعالجون بالوسائل الطبيعية فيعتمدون على الحمية والغذاء . فإذا لم يتيسر الشفاء اعتمدوا المعالجة بالأدوية المفردة فإذا استعصى الداء عالجوه بالأدوية المركبة .

وقد وضع العرب في أنظمتهم تشريعًا ينظم صناعة الطب عرفوا فيه بما للأطباء وما عليهم وقد جعلوا الإشراف على هذا التنظيم من واجبات المحاسب . قال الشيزري في هذا الصدد : للمحاسب أن يمتحن الطبيب ليعرف علمه من جهله وأن يختبره ليعرف درجة اتقانه للصنعة ، وأن يأخذ على الأطباء عهد أقراط ويحلفهم ألا يعطوا أحداً دواء مضراً ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنحة ، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى ولا يفشوا الأسرار .

أما أطباء العيون ( الكحالون ) فأن المحاسب كان يشرف على امتحانهم بمعرفة طبقات العين فمن كان عارفاً بتشريح طبقات العين السبع وعدد رطوباتها الثلاث ، وعدد أمراضها وأنواعها وما يتفرع من ذلك وكان خبيراً بتركيب الأكمال وأمزجة العقاقير ، اذن له بالتصدي لطبيعة أعين الناس . وأما الأطباء المجبرون فلا يحل لأحد منهم أن يتصدى للجبر إلا بعد أن يحكم معرفة الصنعة أو أن يعلم عدد نظام الأدمي وصورة كل عظم منها وشكله وقدره حتى إذا انكسر منها شيء أو انخلع رده إلى موضعه على هيئته التي كان عليها .

ويقول ابن سينا في خلخ الفقرات : «إذا كانت الفقرة الأولى في العنق مات صاحبها في الحال لأن عصب التنفس ينضفط فلا يفعل فعله ، وإن كانت ، من الفقرات السفلية لم يتمتنع التنفس ولكن يتمتنع التبرز والتبول» وهذا كلام منطقي وعلمي ولافت للنظر في دقيقه .

وأما الأطباء المجرحون فيجب عليهم قراءة كتب الجراحة الباحثة في الجراحات والمراهم ، وأن يعرفوا أيضًا مقالة الزهراوي في الجراحة ، وأن يكونوا مطلعين على تشريح أعضاء الإنسان وما فيه من الفضل والعروق والشرايين والأعصاب . ويطلب المحاسب من الطبيب أن يكون لديه جميع آلات الطب ، وجميع ما تحتاج

اليه مهنة الطبابة من أدوات وغيرها . واضافة الى كل ذلك ، كان هناك مراقبة على الأطباء وكيفية فحصهم للناس ( الفحص السريري ) وكيفية مداواتهم وكيفية وصف الدواء والعلاج .

ولقد تعرض أدب الطب العربي الى صفات الطبيب فأوجزها علي بن رضوان بقوله : « يجب أن تجتمع في الطبيب بضع خصال وهي : أن يكون تام المخلق ، صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الروية ، عاقلاً ذكوراً خير الطبع ، وأن يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب . وأن يكون كثوماً لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم وأن تكون رغبته في ابراء المرضى أقوى من رغبته فيما يلتمسه من الأجر ورغبته في علاج الفقراء أقوى من رغبته في علاج الأغنياء ، وأن يكون حريراً على التعلم والبالفة في نفع الناس ، وأن يكون سليم القلب ، عفيف النظر ، صادق اللهجة لا يخطر بباله شيء من أمور النساء ، والأموال التي يشاهدها في منازل الأعلاف ، فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها ، وأن يكون مأموناً ثقة على الأرواح ، لا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه ، ولا دواء يسقط الجنين ، ويعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه » ويؤكد الطب العربي على ضرورة تشخيص المرض قبل اعطاء « العلاج » ، ويؤيد ذلك ما جاء في قول علي ابن رضوان الآنف ذكره فقد قال : « إذا دعيت إلى مريض فأعطيه ما لا يضره إلى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك » .

كما تميز أطباء العرب بالعزوة والكرامة وبمتابعة الدراسة مهما علت منزلتهم ، من ذلك ما روى عن ابن المطران فقد قيل عنه أن كان يغلب عليه الزهو بنفسه والتكبر حتى على الملوك ، ولم يكن على شيء من ذلك ، في أوقات طلبه للعلم ، فإذا اقترب من الجامع ترجل وأخذ الكتاب في يده أو تحت ابطه بكل تواضع ولا يتربك أحداً من الفلمان يصعبه ولا يزال مashiماً والكتاب معه ألى حلقة الشيخ الذي يقرأ عليه فيقعد بين الجماعة مستمعاً صامتاً ، إلى أن يفرغ الشيخ من القراءة ، ويعود إلى مكانه عليه . وقد زعم الطب العددي أن أول من عالج بالتخيل ( علاج نفسي ) هو الطبيب الشهير شاركو في القرن التاسع عشر . ويستشهد على ذلك بمعالجة فتاة جميلة أنيقة أصابها بكم نفساني عصي على المعالجة ولم يكن فيها مرض عضوي . وقد وضعها شاركو في مكان وجو مناسب

للاياء ، وبعد أن سيطر عليها نفسياً أو همها بضرورة قص شعرها الجميل الذي كانت تعزز به كثيراً فصرخت عند الوصول الى قص الشعر وشفيت من بكمها . لكن الواقع ان المعالجة بالتخيل وبالطرق النفسية المختلفة ، قد يرع فيها الأطباء العرب منذ قرون . ومن ذلك ما روى عن نوادر أبي البركات هبة الله ابن ملكان ابن أوحد الرمان قد عالج مريضاً في بغداد مصاباً بالسوداء ( المالنخوليا ) ونجح في علاجه النفسي نجاحاً ممتازاً ، كما ذكر الرازى شفاء عدة حالات نفسية عالجها بنفسه ، منها معالجة أمير بخارى الذى كان يشكو من آلام نفسية المنشأ أعددته عن الوقوف والمشي ، وقد استعمل معه الرازى خطة معالجة نفسية ممتازة شنى بعدها ولا مجال لذكر هذه الحالات بالتفصيل لضيق الوقت .

ومن أقوال الرازى : « يبني للطبيب أن يوهم المريض بالصحة ويرجيه بها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فما زال الجسم تابع لأخلاق النفس » ، وتلك نظرة نفسية عميقة جداً تصدر عن طبيب قد يرى .

كما يخطئ الرازى أبقراط في قوله ان ماء الاستسقاء ( Ascitis ) يصل الى الرئة بسبب السعال ويصف الرازى هذا الرأي بأنه سمع ، كما يخطئ أياضاً في أن هزال الجسم يزيد من رواسب البوالء ويقول : « هذا رأي خطأ لا يجوز » . كما نرى ابن النفيس يخطئ جالينوس فيزعمه أن هناك ثقباً بين البطين الأيمن والبطين الأيسر في القلب وأنهما متصلان ، ويقول ابن النفيس انه لا اتصال بين البطين الأيمن والأيسر ، وإن دم البطين الأيمن والأيسر لا يمتزجان إلا في الحالات المرضية . كما نرى البغدادي يصحح ما زعمه جالينوس من أن الفك السفلي عظمتان ، ويقول بل هو عظمة واحدة . كما صعح الجاحظ في كتاب العيون لأنرسطو ، وأوضح فيه كثيراً من المثالب والأوهام الواردة عنده ، وسارع على نهج ما أتى به القرآن الكريم من حيث الاعتماد على تحكيم العقل وتربيبة التصور وأحكام التعبير ، وأعمال العواص جميعاً لفهم حقائق الوجود ، لذلك عاش مع العيون الذي يريد الكتابة عنه ، ودرسه دراسة ميدانية مرئية مسموعة محسوسة .

ومعلوم أن ابن النفيس كان أول من اكتشف الدورة الدموية الرئوية الصغرى ، وقد نقلها عنه الانكليزي هارفي ثم عزّاها لنفسه ، وعمل سرافيتوس

الإيطالي ما عمله زميله الانكليزي في سرقة آراء ابن النفيس واحتالها لنفسه حتى أن العالم مايرهوف قال في هذا الصدد :

« إن ما أذهلني هو مشابهة لا بل مماثلة بعض الجمل الأساسية في أقوال سرفيتوس لأقوال ابن النفيس كأنها ترجمة حرافية ، ويدعم هذا الرأي (الدوميلي ) العالم المعاصر أيضاً ، وكذلك ليون بينه عميد كلية الطب في باريز . وقد وضع الطالب الباحث المصري محى الدين الطحاوي سنة ١٩٢٤ المقاييس عملية عندما عشر في مكتبة برلين على مخطوطات ابن النفيس ( شرح التشريح ) فصحح هذا الخطأ وعرف العالم عندها أسبقية ابن النفيس وفضله في هذا المجال . أما الراهب سرفيتوس الذي احتالها لنفسه ، بعد اكتشاف ابن النفيس لها بثلاثمائة سنة ، فقد نشر وصفاً لها في مجلته الدينية ، فلما بلغت هذه المجلة جون كالفنن في سويسرا استدعاه إلى جنيف وحاكمه واتهمه بالزندقة وحكم عليه بالعرق » .

أما معرفة السرطان ووصفه فقد ذكر أن العكيم البرجاني قام بوصف السرطان وتبعه بعد ذلك الطبيب المسلم ابن زهر في عام ١١٤٠ م حين وصف سرطان العنجرة والمعدة . ثم قام رسام مسلم برسم لوحة ملونة في عام ١٢٢٠ م تصور أعراض السرطان . وإن أول من رسم صورة تشريحية للجسم البشري هو المنصور بن محمد في عام ١٣٩٦ م وقد وضعت فيها أيضاً سرطان العنجرة والمعدة . ويعتقد على هذا الأساس أن أول من أطلق اسم السرطان على الأورام الخبيثة في العالم هم الأطباء المسلمين .

كما عثرت المستشارة الألمانية فريدررون ، مصادفة وضمن مجموعة من المخطوطات ، على رسالة للرازي ، وهي مقالة في العلة يذكر فيها الرازي تعرض أبي زيد البلجي للزكام والمعطاس في فصل الربيع عند شمه للورد والأزهير ، وبذلك انتبه العلماء إلى أن الرازي كان أول من وصف الرشح التحسسي الربيعي في التاريخ الطبي .

ومن الآراء العلمية التي قال بها العرب أيضاً ونماها فيما بعد علماء الغرب قول أحمد بن يعقوب (الملقب بابن مسكونية) في أصل الإنسان وتطور الحيوان قوله يشابه في بعض جوانبه ما قال به دارون وغيره من العلماء .

ما ذكرته هو غيض من فيض والشرح يطول ، لذا سأنهي بما قاله الكاتب المعاصر هوكونينغ في كتابه مبادئ السياسة العالمية عند بحثه عن مستقبل الحضارة العربية :

« إن الشفت العلمي الذي امتاز به العرب هو الجوع الباحث عن العلم وعما وراء الطبيعة التي تتنسب إليها كل الفلسفات ، هو الحضارة بعينها التي يتغذى منها هذا الجوع ويهضمها ويتمثلها، هو التعاون المثمر بين مختلف الذهنیات مع سمة المقل العربي وعشقه للحرية وللممثل العليا وتحرره من التعصب والتزمت » .



#### أهم المراجع العربية :

- |                                      |                                       |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| ٥ - العروب الصليبية كما رأها المرء - | ١ - القرآن الكريم .                   |
| أمين ملوف .                          | ٢ - الأحاديث النبوية .                |
| ٦ - رحلة ابن جبير .                  | ٣ - المرء والطب - الاستاذ المرحوم     |
| ٧ - ذيل تاريخ دمشق .                 | أحمد شوكت الشطبي .                    |
|                                      | ٤ - مائة أوائل - الدكتور سهيل ذكّار . |



# شعراء عُمانيون

مُدْرِجٌ فَالْخُودِي

الى أيام حمل بها شعبنا العربي في عمان هموم العرب جهاداً وعقيدة وتضحيات ، وحافظاً وما ثر ومحركات .. وإصراراً على أن تظل أرضه الطيبة أبداً خضراء مبرأة بالخير والغزة والأصالة ، ندية بالمكان وسط سوافي الكثبان والرمال ..

الى أيام ٢٠٠٠ جاحد فيها الشعب العربي الأصيل ماجاهد ، وكابد ماكابد ، في وجه استعمار نذل عتيّ ، يصول بهمجية الفادر العبان ٢٠٠٠ لا عهد ولا ذمة ، بل اعتسas تحت جنح الظلام ، وخشة تفتقد المثيل على مر الأيام ٢٠٠٠ وروح عدوانية أذاقت أهل البلد الصابر المرا بطمن ضروب البطش والقتل والمذاب ما تعجز عن وصفه خيالات الأساطير والروايات ، كان أقله التدمير والحرق ، وبعض فنونه سفح الزيت الملغى على أجساد العزل الأربعاء ، وتقييد حجاج

<sup>(٤)</sup> من تاليف الباحث العماني المهندس الاستاذ : سعيد الصقلاوي .

بيت الله بالأغلال ، وتهديدهم بالحرق أحياء ، وتمني قائدتهم على شيطان الاثم والضفينة ، أن لو يقدر على قتلهم مئة مرة !

أيام كان فيها « فاسكو دي غاما »<sup>(١)</sup> البرتغالي المتواحسن، المقنع بوجهه البشري ولبوسه الأدمي ، ودعوى « الكشف » المزعوم ، يمتع الطرف بمنظر سفينته أحقرها ثم أسلمها إلى قاع اليم ، « بلا أي مبرر - كما يقول ( وندل فيليبس ) - صاحب كتاب « تاريخ عمان » - بكل من تحمل من بشر أبرياء لا حول لهم ولا قوة ، وهم يصرخون وينوحون » بينما كان دي غاما ، رسول الشر ، « يمتع نفسه بهذا المشهد من خلال كوة السفينة دون أن يbedo عليه أي تأثر » .

ويقول « وندل فيليبس » :

« إن روايات المعاصرین وشهاد العیان ، عن معاملة البرتغالیین للمرب والوطنیین الآخرين ، سواء في افریقیة ، أو الهند ، أو عمان ذاتها ، هي سجل طویل یشير التقرز لجرائم وحشیة ارتكبت بلا مبرر » .

إی والله .. والكلام لوندل الغربي، لا المؤرخ عربي أو هندي ..

ويمضي « الوحش الغامى » شوطاً أبعد في « فنه » الوحشي هنا ، وفي وسائل فتكه وتنكيله ، فیأمر - في كلكوتا - بعدنهب ست عشرة سفينة صغيرة وسفينتين للأهالی بقطع أيدي البحارة وأنوفهم وأذانهم ، وبوضع راهب بوذی بمعبوث من بلده ( وكان قد منح جواز أمان ) في سفينة صغيرة بعد قطع أذنيه وأنفه ويديه - كما داته دائمًا مع أسراه - ووضعها على هیئة سلسلة حول عنق الراهب المسكين ..

أمر بتقييد أقدام البحارة ، بعد قطع أيديهم .. ومنعاً لاستخدام أسنانهم لفك القيود « أمر بتحطيم أسنانهم بالهراوات ، وأسقطت أسنانهم في حلقهم .. ثم وضعوا على ظهر السفينة ، وقد تکدّس بعضهم فوق بعض واختلطت دمائهم المتدافعه بزيارة » .

« ثم - والكلام ، دائمًا ، لوندل الغربي ، لا المؤرخ عربي أو هندي - أمر بمد حصائر وأوراق شجر جافة فوقهم ، وأن تفرد القلوع کي تحملهم السفينة

إلى الشاطئ . . . وأشعلت النيران فيها بعد ذلك . . وكان في السفينة — والكلام ما يزال لوندل — ما لا يقل عن ثمانين مسلم . وكذلك أرسلوا السفينة الصغيرة نحو الشاطئ بدون حرق ، وهي تحمل الراهن ، ومعه كل الآذان والأيدي المقطوعة » .

ومثال آخر من أمثلة وحشية المقتنة بوجه بشري ولباس آدمي ، — والحدث لوندل أيضا — وهو أمره بقطع شفتي شخص من البراهمة ، مبعوث من كلوكوتا « حتى تبدو كل أسنانه . ثم أمر بقطع أذني كلب كان في السفينة ، وربطهما وحاشهما بفرز عديدة في وجه البراهمي بدلاً من أذنيه » .

هذه أمثلة من «مآثر» هذا «المكتشف» الملطخ بالاثم والدم ، والمقنع بوجه بشري على لباس آدمي . . . يمضي ليغسله «الفنوسو دو البوكرك» صاحب الأحلام الإمبراطورية الخرقاء . وكان من أولى «مآثره» إحراق السفن الراسية ، وأسر الرجال والنساء ، ثم . . . إطلاقهم بعد جدع أنوفهم وصلم آذانهم ، وتسلیط جنوده للنهب والسلب . . . ثم ، إحراق المدينة بكل من فيها وما فيها ، والتتمثيل بأهلها شر تمثيل . . .

ويجيء «الدوم فرنسيسكو داميادا» نائب ملك البرتغال ، عام ١٥٠٥ م ليكمل مسلسل الجريمة الشنعاء ، فيبتكر فناً جديداً في وحشية القتل ، يفوق فن دي غاما ، متطرف الوحش والأدغال ، فيأمر بطلاق أسراء من فوهات المدافع . . .

### مقارقة عجيبة !

ابن ماجد ، وبحارته العمانيون العرب الشجعان ، يركبون مُتون البحار والأمواج ، ليكتشفوا ما أمر الله به أن يكشف من آلائه وعجبائب خلقه ليسعّر للإنسان وخير الإنسان ، ومكتشفون آدميو الوجه واللسان يأتون للكشف عن وسائل استعمار الإنسان ، وقتل الإنسان . . .

أمثلة قليلة سقناها لا نزيد عليها ، فهي كالعنوان المصارخ ، فيه أبلغ الدلالة ، خصوصاً إذا قارنا بين وحشيتهم المقرفة القدرة هذه ، وبين معاملة العرب العمانيين الشرفاء ، بشهادة من «الكنسندر هاملتون» إذ يقول :

« إن العمانيين لم يقتلوا أي رجل - منهم - عمداً وكانوا يستخدمون الأسرى بآدب » .

وبحسبنا بها شهادة لنا ولهم ٠٠ وللتاريخ ٠٠ في كل زمان ومكان ٠٠

\* \* \*

شعب عريق كهذا ٠٠ جاحد وجالد ٠٠ وكابد ما كابد ٠٠ قليل أن يُزف له كتاب قيم كهذا ، في جانب من جوانب حياته وثقافته وتفكيره ، ولا بد أن يشفع بالكثير الكثير من أمثاله ، في هذا الجانب، وفي جانب آخرى جمة ٠٠ ويتحدث عن حياته كلها ، وعن مواقعه كلها ، وعن جهاده الطويل كله الذي خلده التاريخ ذكرأ ، وصاغه شرعاً ، وحلّى به جبين ماضينا فيما كتب وألف ، وفيما روی وصنفت ، وفيما نرجو أن يؤلف أياضاو يصنف على يد مؤلفنا « الباحث الأستاذ سعيد الصقلاوي » وأيدي أمثاله من الأدباء والمتقين النجباء ، عن هؤلاء المرابطين البسلاء ، الذين صبروا وصابروا ، وحملوا هموم العرب جميعاً ٠٠ ولم يتركوا معركة من معارك العزة والفتداء إلا خاضوها، تجمعهم دائماً وتؤلف بينهم ، أفراداً وجماعات وقبائل متراصة متواصية على الصبر والحق ، وحدة الجهد والمصير ، وشهامة العربي الأبي الذي لا يسكت عن ضيمهما طال ، ولا عن استعمارهما أقام ٠٠ فلما حان العين ، ودققت ساعة الحساب والعرب ، هبوا جميعاً كالسيل ، يعطّلون للطغاة كل قيد ، ويدكون لهم كل صرح ، ويجرفون أمامهم كل سد منيع ٠٠٠ حتى إذا اندحرت أمامهم طواغيت الشر ، وطُهرت من أرجاسها الأرض ، رفعوا وجوههم للسماء فعشيت عيونهم بالنور بعد ظلام ، وتعركت دماؤهم بالحياة بعد موت ٠٠

لهذا ، ولغيره ٠٠ كان استقبال هذا الكتاب حاراً كاستقبال الظاميء للغيث ٠٠ ولن ينتقص من حرارة هذا الاستقبال ما قد نستدرك عليه من يسير الهنات ونحن نشدّ على يد صاحبه مهللين فرحين ، وشاكيرين مستبشرین بأن يلي جهده الغير هذا جهود أخرى خيرة من مثله ؛ خطتنا في ذلك عرض محتوى الكتاب وبعض الملاحظات حوله ٠

ومما يزيد اعجابنا بهذا الجهد وتقديرنا لصاحبها أن المؤلف يجمع بين الأدب وشيء آخر لا نستطيع أن نقول أنه بعيد كل البعد عن الأدب ، أو أنه من غرمايه ؛ فهو مهندس حائز شهادة ماجستير في الهندسة المعمارية ، وقد غلب عليه ميله الأدبي وتعشّته للأدب وناظمه في الهندسة ، أو حاول أن يشغلها عنها بعض الوقت ؛ ثم لم يجد خيراً من أن يتعدد معايير توعّم فني لا يفصل بينهما في حقيقة الأمر فاصل ؛ فكلاهما فن أولاً ، وكلاهما بناء فني يأخذ هذا من هنا في طبيعته وجوهره ، فيخرج عملاً متقدماً جائماً لخواصتين اثنتين بدلًا من واحدة . وغير بعيدة عنا أخبار من جمعوا أطرافاً من العلوم والفنون في تاريخنا الأدبي القديم والحديث . وأخر من نذكر من أدباء عصرنا الحديث وشعرائه توفيق الحكيم القانوني ، وعلى محمود طه المهندس ، وأبراهيم ناجي الطبيب .

يقع الكتاب في نحو ٣٧٠ صفحة تعرّض لمجموعة من الشعراء العرب العmanyin من عصور مختلفة متباينة تنتهي بالعصر الحديث ، عند الشاعر عبدالله بن محمد الطائي – المتوفى سنة ١٩٧٣ م .

فمن العصر الأموي يختار ثلاثة هم على التوالي :

- ثابت بن عبد الرحمن بن كعب ( ثابت قلندة التمكى ) ( عصر عبد الملك ابن مروان ) .
- كعب بن معدان الأشقرى ( عصر عبد الملك بن مروان والعباج ) .
- ويذكر من العصر العباسي :
- أبو عienne بن محمد المهلبي ( عصر المؤمن ) .
- ابراهيم بن محمد بن عرفة ( نبطويه ) ( نحو ٢٤٤ - ٣٢٣ هـ ) .
- أحمد بن سليمان بن عبدالله ( ابن النظر ) ( ت ق ٥ هـ ) .
- المحسن بن هارون بن عبدالله ( الوزير المهلبي ) ( ٢٩١ - ٣٥٢ هـ ) .
- عصربني بويء .
- عبدالله بن محمد بن أبي عينية ( عصر أبي جعفر المنصور ) .

- محمد بن المحسن بن دريد الأزدي (ابن دريد) صاحب «المقصورة وجمهرة اللغة» (البصرة نحو ٢٢٣ – بغداد ٢٢١ هـ) .
- محمد بن يزيد بن عبدالله الأكبير (المبرد) صاحب «ال الكامل» لم يثبت تاريخ مولده ومكانه على التحديد لتدخل الآراء فيهما .
- يزيد بن محمد المهلبي (عصر المتوكل – ت ٢٥٩ هـ) .
- ويكتب بعد ذلك عن شعراء ينتهي آخرهم عند أوائل السبعينيات وهم ، على الترتيب : ترتيب الكتاب (بحسب حروف الهجاء لا الترتيب الزمني) :
- أحمد بن حمدون العارشي (نحو ١٣٢٣ – ١٣٨٧ هـ – عهد السلطان تيمور) .
- أحمد بن سعيد الخروصي (الستالي – ت ٦٧٧ هـ (عصر النباة) – بنبي نبهان) .
- حميد بن محمد رزيق (ابن رزيق) (أواخر ق ٢ هـ – ١٢٩٢ هـ) (عصر البوسعيديين) .
- خميس بن سليم الأذكي (أواخر ق ١٩ وأوائل ق ٢٠ م) .
- راشد بن خميس العبسى (المولود في ١٠٨٩ هـ) .
- سعيد بن مسلم بن سالم (ابن الصوفى) (سمايل ١٢٨١ هـ – عهد البوسعيديين) .
- سالم بن غسان بن راشد الخروصي (اللواح) (٨٦٢ – ٩٨١ هـ – عهد النباة) .
- سليمان بن سعيد بن ناصر الكندي (أبو سلام) (نزوی ١٢٩٢ – نحو ١٣٧٩ هـ) .
- سليمان بن سليمان النبهاني (ت ٩١٥ هـ) .
- عامر بن خميس المالكي (أبو مالك) (نحو ١٢٨٠ – نزوی ١٣٤٦ هـ – عهد البوسعيديين) .

- عبدالله بن سعيد المخليلي ( وادي سمائل ١٢٨٠ - ١٣٢٤ هـ ) .
- عبدالله بن عامر العزري ( قرية الأخشبة ؟ هـ - نزوى ١٣٥٨ هـ ) .
- عبدالله بن محمد الطائي ( مسقط نحو ١٩٢٦ - ١٩٧٣ ؟ م ) .
- موسى بن حسين بن شوال ( الكيداوي ) ق ٩ هـ - عهد النباة ) .
- ماجد بن خميس العبري ( الحمراء نحو ١٢٥٢ - ١٣٤٦ ؟ هـ ) .
- محمد بن شيخان السالمين ( ابن شيخان ) ( الموقين ١٢٨٤ - ١٣٤٦ هـ ) .
- محمد بن عبدالله المعولي ( ق ١١ و ١٢ هـ ) ( عهد اليماربة ) .
- ناصر بن سالم بن عديم الرواحي ( أبو مسلم البهلاوي ) ( محرم ؟ هـ - زنجبار ١٣٠٨ هـ ) .
- هلال بن بدر البوسعدي ( مسقط ١٢١٤ - ١٣٨٥ هـ ) .
- هلال بن سعيد بن ثانى ( ابن عراة ) ( وادي الطائين ق ١٩ م ) .

### شعراء حُصوا بالنصيب الأوفي

يلاحظ أولاً أن المؤلف لم يسلك في ترتيب شعرائه تسلسل أزمانهم ( وهي خطة قد تكون موضع نظر بين مؤرخي الأدب ) .

ويلاحظ أيضاً افاضته في الحديث عن بعض كاللواح ( سالم بن غسان بن راشد الخروصي ) ، وابن دريد ، والمبرد ، خلافاً لغيرهم من كان حظهم دون ذلك قليلاً أو كثيراً ( كما سيأتي ذكره في حينه ) ، وهو أمر طبيعي يعود تقديره للمؤلف أولاً ، وتقضيه أسباب منها شهرة الشاعر وتعدد أغراض شعره وجوانب ثقافته وعلمه . وقد يكون منها أيضاً توافق المراجع والتصنائف التي تتناول سيرته وأدبها وشعره . « فاللواح » مثلاً ، وقد تعدى في السن ١١٩ عاماً ، شهد عصرأً زاخراً بالأحداث الجسام أهمها الاحتلال البرتغالي لعمان سنة ٩١٣ هـ . فطول عمر الشاعر ، وصلاته بالنابهين من أعلام عصره ، وجسامته للأحداث التي عاصرها ، واضطراب حبل الأمن ، وارتفاع التنافس والصراع بين سلطة

النباهنة وخصوصها في الداخل . أضف الى ذلك وجود من سماهم المؤلف بـ «المرموز الأدبية » التي عاصرها الشاعر في العجاز حيث كان قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني المكي ( ٩١٧ - ٩٩٠ هـ ) ، وفي البحرين حيث الشاعر أبو البحرين الخطبي ( ت ١٠٢٨ هـ ) ، وغير هذين كعبد الرحيم البرعي في اليمن ( ت ٨٠٣ هـ ) ، وجعفر الخطبي في الاحساء ( ت ١٠٢٨ هـ ) ، وعبدالصمد بن عبد الله الكثيري في حضرموت ( ت ١٠٢٥ ) ، والكثير من شعراء المقرب وعلمائه وأدبائه من كانت تقوم بينه وبينهم صلات قوية ومساجلات ومن اسلات علمية وأدبية غنية ضاعت كما ضاع كثير غيرها وأصبحت في ذمة التاريخ - كل ذلك جعله بين المقدمين ٠٠

و « ابن دريد » صاحب المقصورة والجمهرة ، لم تقتصر عبقريته على الشعر ، وخصوصاً مقصورته الشهيرة التي مطلعها :

يا غلبية اشبه شيء بالهـا      ترعى الغزامي بين اشجار النقا

وانما تعدّت ذلك ، بل سبقته الى تصانيفه اللغوية الكثيرة ، ومنها جمهرة اللغة ، والاشتقاق ، وأدب الكاتب ، وأدب غريب القرآن . فضلاً عن ديوانه وشعره الكبير الذي قال فيه « المسعودي » في مروجـه :

« كان يذهب بالشعر كل مذهب ، فطوراً يجزل وطوراً يرق » وما قيل فيه أيضاً « انه أشعر الشعراء ، وأعلم الشعراء » .

وشهد عصره أحـداثـ جسـاماً أـهمـاً اـقـتـحـامـ الرـنـجـ لـلـبـرـةـ ، فـضـلاـ عن رـحـلـاتـ الكـثـيرـ بعد ذلك بين عـمـانـ وـفـارـسـ وـبـغـادـ ، وـحلـقاتـ الـدـرـسـ التي أـقـامـها طـلـابـ الـعـلـمـ ، وـصـلـاتـهـ القـوـيـةـ بـفـضـلـاءـ عـصـرـهـ منـ لـغـويـنـ وـأـدـبـاءـ وـعـلـمـاءـ .

فليس يكثير على من كان هذا شأنه، وتلك جوانب علمه وأدبـهـ ، أن يـزـادـ له في صفحـاتـ الـكـتـابـ وـيـفـسـحـ لهـ فـيهـ .

و « المبرد » ( صاحب كتاب الكامل ، واللغوي النعوي المشهور ) ، وصاحب المجالس العلمية المقرونة دائمـاً بـمـجاـلسـ « ثـلـبـ » ) ، قامت شهرته أـصـلاـ على اللغة والنحو ، ولا يذكر عادة الا معـ اللـغـويـنـ وـالـنـعـوـاـ . وـمعـ أـنـ شـعـرـهـ لمـ يـكـنـ

موسوماً بالفرازرة والتنوع اللذين يكونان عادة سمة الشعراء البارزين ، فقد توافر له من الجمالية والقوّة ما لم فرغ له دون اللغة والنحو ، أو سوّى بينهما وبينه عناية واستغفالاً لكان في الطليعة من شعراء عصره . ولكن اللغة والنحو استأثرَا بجهده ووقته ، وكان لهما النصيب الأوفى من اهتمامه ووُكده .

على أتنا لم نجد مثل هذه الافاضة في تعريفه بعيري اللغة والنحو ، الخлиз الفراهيدى ، صاحب كتاب «العين» وواضع النقط والشكل وعلم العروض وموسيقى الشعر . ولو تقصيَنا الأسباب لما أعزنا أكثر من سبب في تسويع ذلك : فلئن كان من الحق أن من هذه الأسباب زهده وعزوفه عن عرض الدنيا وزخرفها المزائل ، وبعده عن التزلف والتكتس ، واستغفاله بما هو أجدى وأكثر لصوقاً بتقواه وعلمه وفكرة – إن من الحق أيضاً أن مجال البحث في الجوانب الأخرى من حياته وعلمه جديرة أن يستفيض فيها القول ، وتتشعب سبل الكلام ، فهو يمثل عبرية عمان وسائر العرب والمسلمين كما تقول المصادر في شرق من الأرض وغرب ..

ولكن .. وقبل أن نذهب بعيداً في تعليل ما ذكر ، أرانا مدفوعين إلى أن نستدرك ونعيش أنفسنا والقارئ معاً على ملاحظة انقطاع ملعوظ من أثر الطباعة والتنسيق في آخر الصفحة / ١٢٢ أشبه بالكلام المبتور الذي قد يكون وراءه كلام كثير ، يفيد في انصاف الخليل ، فلا يُجتزأ له بهذا القليل !

### وآخرون عادوا بالقليل

أما بقية الشعراء في الكتاب ، ونخص بالذكر منهم شعراء العقبة الزمنية المصuba ، في تاريخ عُمان ، فنجد أن المؤلف أولاهم قدْ رأ وسطاً من صفحات كتابه وبعضهم ، كميسي بن صالح الطائي ، لم يفز بأكثر من صفحتين . ولعل مرد ذلك إلى ضيق مجاله وإقلاله ، وإلى انتصاره على أغراض لا تملك أن تمده من المعاني بأكثر من طاقتها المستنفدة على مر العصور !

ومثله آخرون ، كعامر بن خميس المالكي ، وعبد الله بن سعيد الغليلي ، لم يحظوا بأكثر مما حظي به الشعر منهم من قطرات لا تبل " صدى" ، ولا تبلغ مدى

لضيق مجالهم المفني والابداعي ، أو – ونقولها للانصاف – لضيق مضطرب بحياتهم وأسلوب عيشهم الذي اختاروه لأنفسهم ، أو فرضته عليهم الظروف والأحوال .

فالشاعر «عامر بن خميس المالكي»، وهو أحد تلامذة الشيخ السالمي ، تلقى عنه علومًا كالفقه واللغة والأصول وغيرها – كان علامة في عصره ، فلم يُجلّ في الشعر بقدر ما جلّ في علومه، إذ كان جلّ همه واشتغاله بالفقه والقضاء خاصة .

و «عبدالله بن سعيد الخليلي» نعم يكن أوف حظاً من سابقيه فيما خُص به أو خُصص له من صفحات لم تعد الثلاث (أو تزيد قليلاً)، مع أنه أقرب منهما إلى روح الشعر وطبع الشاعر، وأندخل في فردوس الأدب أو جحيمه، كما سيدلنا عليه ديوانه .

ومثله ، في قلة ما حظي به من صفحات ، « أبو الصوفي » الشيخ سعيد بن مسلم بن سالم الملقب بـ « الميجيزي » . فمع ما يتمتع به من إجاده وموهبة كان تقليدياً في أغراضه - وتكاد تنحصر في المدح - وكذلك في عباراته وصوره ، فلم ينأ فيها عن أسلوب القدماء قيد أنملة . واقرأ له :

فحيوه اجلالا وسكن روعهم  
تحلت بك الدنيا لأنك عقدها  
بنطق يفوق البر ان نثر البر  
وانسان عن الدهر انت فلا تذكر

فإذا انتقلنا إلى الشاعر «ماجد بن خميس العبري» - وحظه من الصفحات ثلاثة - وجدنا أن الشعر عنده لم يكن أكثر من هواية تَعْرِض له في بعض أحواله، أو وسيلة له في بعض أعماله . وإنما كان شغله الشاغل ما أخذ به نفسه من ميل إلى الزهد ومن مشاركة في المناضرات الفقهية والمسائل العلمية . وقد حدا به زهذه إلى تمزيق ما كتبه من أشعار كما يذكر المؤلف .

فاما الشاعر « هلال بن سعيد بن ثانى - ابن عربا - » ، فمع تعدد أغراض شعره من مدح وغزل ورثاء وهجاء ووصف وغيرها ٠٠ لم يستطع أن يخلع عنه رداء التقليد ؛ فلم يختلف شعره عن شعر سابقه شكلاً ومضموناً - كما يقوى

المؤلف - بل كان « نسخة مكررة منهم . ويبدو أنه لم ينظم الشعر للشعر » كما يستدل من بعض أقواله في تقديم ديوانه الذي سمّاه « جواهر السلوك في مداعب الملوك وتسليمة حزن العاشق الملهوك » .

★ ★ ★

نستطيع بعد هذا العرض الوجيز لهؤلاء الشعراء أن نقول إن المؤلف كان منصفاً في تضييق الحيز الذي أولاه إياه من كتابه ، وفي فسحه جناباً أوسع لمن سواهم من أمثال المبرد والخليل ونقطويه وغيرهم من هم مفترغ عُمان .. وإن كنت لا أجد مناصاً من التماس العذر لبعضهم أو لأكثريهم بقلة ما كانت تتبع لهم طبيعة العصر وضيق مضطرب العيش من أسباب الخلق والإبتكار والإبداع ، مع أن الموهبة لدى أكثرهم موجودة ، ولكن وسائل ريها وتعهدها شيعية أو مفودة !

### وغيرهم .. بالقدر الوسط

أما الآخرون الذين خصوا بقدر وسط من صفحات الكتاب ، فنذكر منهم الشاعر الكفيف « راشد بن خميس العبسي » و « ابن شيخان » و « محمد بن عبد الله المولى » و « ناصر بن سالم » .

فاما الشاعر العبسي ( المولود سنة ١٠٨٩ هـ ) ، فهو من عاصروا أحذاثاً كثيرة مرّ بها بلده ، واصطنع أسلوبه طريقاً في معالجة بعض مشكلات عصره وبجتمعيه ، بالافادة من القصص والحكايات الشعبية السائدة ، واستلهام التراث الشعبي عامه . وهو نوع من التجديد - بالقياس إلى عصره خاصة ، وإلى امكانات ذاك المصر - لا بد أن يلفت انتباه الدارس والمقارئ . وقد أحسن المؤلف إذ رأى « أن ينبثق من هذه القصص عمل درامي قيم نابع من التراث العماني » في مسرح أو تلفرزة ، أو في قصة أو رواية .

ويلاحظ المؤلف ، في هذا السياق ، أن الشاعر لم يمض قدماً مع روح التجديد في بقية أغراض شعره وأساليبه ، اذ لم يستطع أن يعاجب التكلف البديعي والتقرن اللغوي في نظمه ، كما لم يستطع أن يخالف عن الطريقة الغالية في اختيار

الأغراض الشعرية وفنونها ، فلزم منها كل ما هو تقليدي من مدح وغزل وهجاء .. على الرغم مما حفل به عصره من أحداث ، وما ألم بالبلد وأهله من صروف عاتية ، لم يكن انعكاس آثاره سافر شعره يدعو التشاوُم والانزواء عن هذه الصروف والأحداث . وما نشَّك أن لاقف البصر عنده ولا نصرافه إلى المدح أثراً لها في صرفه عن الاهتمام بما حوله ، فلم يتغير ذلك في شعره قولاً جهاراً ، ولا سخطاً وانكاراً ، كما تفجر بين هنايا شاعر المرة المكفوّف والمتشارم ..

نظرة سريعة ، بعد هذا ، إلى ما بين أيدينا من شعر « ابن شيخان » (« والمولى ») لا نعود منها إلا بمجموعة من قصائد المدح أيضاً ، يعتذر عنها الأول - ابن شيخان - بما أصابه من عسر ومائقل عليه من دين أفضى به إلى سلوك هذا النهج ، فيقول :

لما نبت بي أحوال الزمان ولم يكن يكفي ما يبتل انملها  
كساني الله رأيا ان أجسمه مصعب الأمر كي ارتاد أسهلها

هذا ، إلى بعض القصائد الفزلية التي لا تجد سبيلاً ممهدأً إلى قلب الشاعر وشعره إلا عن طريق القدامى باستخدام أساليبهم وألفاظهم . وقد تسقط المؤلف مشكوراً بعض هذه الألفاظ ، في مناجتها المصغرية ، فوقع على الفاظ مثل : « قفا ، الرابع ، الظباء ، خليلي ، ساحتها وعراضها ، أقدام الظباء ، بارق ، لامع .. »؛ فهو يقول مثلاً (ص ٢٨٨) :

قفَا سَاعَةً نَقْضِيْ حَقْوَى الْمَارِبِ  
بَاحْمَرْ قَانْ مِنْ كَنْوَزِ الْمَدَامِعِ  
وَنَلَمْ مِنْ سَاحَاتِهَا وَعِرَاصَهَا  
مَوَاطِئِ أَقْدَامِ الْقَبَائِيْلَةِ الرَّوَاتِعِ  
إِلَى أَنْ يَقُولْ :

أَصَاحِ تَرَى صَبَرَاً عَلَى ضَوْءِ بَارِقِ  
بَثَرَ الثَّنَائِيَا وَالثَّنَيَاتِ لَامِعِ  
وَصَدِرِهِ يَذَكَّرْ بِقُولِ اَمْرِيَّهِ الْقَيْسِ :

أَصَاحِ تَرَى بَرْقًا أَرْيَكِ وَمِيسِهِ (الْبَيْتِ) .

ومثله (المولى) الذي نظم ، إلى جانب المدح ، في الهجاء والرثاء . ولكنه لا يقصر مدحه ورثاءه على الآئمة ، بل يمدح أيضاً أصدقاءه ، ويرثي العلماء

والشعراء والأصدقاء . وله رثاء عاطفي لابنه فيه تجلّد وتسليم ، نختار منه هذين البيتين يوضحان جانبياً من طبيعته وأخلاقه وقناعته :

سأصرف نفسي عن مطامع جمة      وان لم أجد لي قطف في الكف درهما  
الابكي على غيري ، واني لعالم      يقينا باني لاحق من تقلما

على أن الشاعر لم يقتصر في نظمه على هذه الأغراض ، بل تعداها إلى الوصف والفن ، والى نمط من الشعر الأخواني الذي يتبادله الأخوان والأصدقاء ، ونظم أيضاً في الزهد ، بيد أنه في أغراضه كلها لم يخرج ، كنظيره ابن شيخان ، عن أغراض المتقدمين وأساليبهم ، وتلك كانت سمة المعرفي عمان وفي غيرها من أقطار المروبة آنذاك فهل نكلفه من أمره ما لم يكلف الآخرون أنفسهم هجره أو الإقلال منه في أهون تقدير ! ٠٠٠

ومع ذلك نقول : ان خلو بعض شعرهم أو أكثره – كما يبدو لنا مما بين أيدينا الآن من هذا الشعر – من الاشارات التاريخية والسياسية والوطنية قد لا يعني – بالضرورة كما يقولون – اغفالهم لأحداث عصرهم وعدم انفاسهم فيها ، بل وكفاحهم مع من كافعوا ٠٠ وما نعبأ خيراً أن ننيئ ونخلد الى راحة القنوط من أن تكتحل عيوننا وأفكارنا بقراءة الكثير مما افتقدناه حتى الآن من شعر هؤلاء ، في أجزاء وطبعات أخرى ؛ فقد يكون من الظلم الفادح أن تدفعنا النظرة العجلية – في هذا الجزء من الكتاب – الى الحكم عليهم بالقصير في حق بلدتهم وأمتهم عليهم ، وبأنزواتهم في ركن قصي عن مشكلات هذا البلد وأحداثه ، وباكتفائهم بهذه الأغراض الشعرية التي لا تعكس من عصرهم الا جانباً محدوداً ليس لدارسه والتأمل فيه غناه ٠٠

فإذا مضينا في قراءة الشاعر ، أو فيما اختير لنا من شعره ، لم نجد إلا مداياح وألفاظاً مثل « كرام ، وأشداء بناء ، يسعد الزمان بقربهم » ، وهم تاج الملك ، وبيت المعالي وايوانه ، وحلم الكماة واقتامهم ٠٠ الخ ٠٠ » مما لا يقبل غليلاً ولا يشفي من ظمأ ٠

فإذا مضيت في قراءة أغراضه الأخرى ، كالفنل مثلاً ، طالعتك أبيات مثل :  
وستقبل بارداً تنسوه بها – في المشي مخطفة الكشعين هيفاء'

وكالغمر فتقراً :

### هات اسكنى الراح في را وو قها عَلَّا      واعانى في الحديث اللهو والغزا

والارض من حوله تضجّ وتفسور ، والصدور تضطرم بنار الثورة لتنقض على المستعمرين الطناة .. ومن حشكها هنا أن تتساءل : ما قيمة شعر لا تلقى به أثراً لعصره وبيئته ، وما يضطرب به هذا العصر وهذه البيئة من أحداث كتلك التي اكتوى بها الشعب العربي العماني البطل ، وكلفته غالياً من دماء أبنائه ، ومن أرواح شبابه وشيوخه وأطفاله .. لقد كان بحاجة إلى صيحة تريلزل الأرض تحت أقدام وحوش الاستعمار ، صيحة من شاعر ثائر توجع نار الثورة حتى يكون لها لهب واضطراـم ، من شاعر ثائر كذلك الذي قال :

اذا الشعب يوما اراد الحياة      فلا بد ان يستجيب القسر  
ولا بد لليل ان ينجلب      ولا بد للقياد ان ينكسر

ونقلب الصفحة الى شاعر آخر ، فنلمس احتفاء من المؤلف بالشاعر ( ابن رزيق ) حميد بن محمد بن رزيق ) ( أواخر ق ٢ هـ - ١٢٩٢ هـ - عصر البوسعيديين ) اذ ينوه باشتراكه في معارك عديدة ، وبمطولات له شعرية ، حاول في بعضها كتابة ملحمة شعرية تضمنت جانباً من تاريخ عمان عنوانها :

« الشاعر الشائع بالللمعان أو الشاعر الساطع بالللمعان في ذكر أئمة عمان » ..

ثم يقول :

« وهو ان لم يكن السباق الى ذلك الا أن هذه القصيدة تظل حدثاً هاماً ،  
وأثراً يمكن الالتفات اليه من الناحية الأدبية » ..

\* \* \*

ولكننا لا نكاد نمضي في قراءة الأبيات المختارة له في الكتاب حتى نجد مثل هذا القول :

جالى العنا ملك البسيطة كاشف الـ  
الناشر العدل القويوم بسيفه  
لتسين اذا املى لسمع كاتب  
غناء بالآراء والنعماء  
وعلهم الرؤجا من الأهباء  
منتش بغير تكلف الانشاء

ومثل قوله :

يرضيك ان ركب السلاهب للوфи      يرضيك ان ضرب العدى واذا طعن  
هو فيلق في العرب فرداً ان رات      عيناه جيشاً للعدا به اطمأن

فنتمنى لو تجد بين هذه المختارات ذكرأً لموقعة كنفل أبي تسام والمنبي في  
وقائع عصرهم ، والشعراء الذين عاصروا صلاح الدين وغيره من الأبطال ..  
وتجرى وتجري وراء بقية أمثلة الكتاب فلا تقع الا على مسان تنزيد منك بمدأ  
كلما ازددت منها قرباً ، ولا تجد ما ينفع غلة ، أو ينفع في علة ..

وتقرأ عن « راشد بن خميس العبسي » أنه « عاصر » هو الآخر - أحداثاً  
كثيرة - ما هي ؟ - مرت بها عُمان وأئمة عدة تولوا مقاليد الأمور »، فتروح تلتمس  
آثار ذلك فيما يطالعك من مختاراته ، فتعود بالخيبة نفسها ، وتقرأ بدلاً من  
ذلك مثل قوله :

**هذا الكريم الذي تشفيك روئيته      من كل داء، ومن هم، ومن حزنٍ**

إني لأකاد أشک في أن هذه المختارات تمثل كل شعر هؤلاء ، وأن شعرهم كذلك  
من هذا النحو ، وأذكر في الوقت نفسه أن المؤلف لم يفتئ ذلك طبعاً ، ولم يسمعه  
أيضاً إلا أن يشير إلى انشغال بعضهم عن أحداث عصرهم الجليلة بالوان من المدائج  
والآهالي والغزليات التقليدية التي لا تکاد تبر عن شيء ، ولا تکاد تتضمن  
بقطرة من شعور .. على أن أمثال هؤلاء قد يكونون قلة قليلة لا يخلو منها عصر :  
فلو رجعنا إلى شعر بعضهم من تيسر لنا الحصول على دواوينهم المطبوعة ، كعبد  
الله الخليلي - وقد سبق ذكره - ، وهلال بن يدر البوسعدي (الشاعر الفطيفي كما  
يطلقون عليه في عُمان) لوجدناه يضم فنوناً تربط بينهم وبين عصورهم وأحداث  
هذه العصور برباط يختلف قوة ووثقاً بحسب قوة اهتمام الشاعر بهذه الأحداث ،  
وصلته بها أو بمن عانوها أو كان لهم شأن فيها .. ولكنه ارتبط على كل  
حال ، يتجاوز م الواقع السلطة وما يتصل بها من مدح أو رثاء على الشخصوص ،  
إلى أمور عامة تتصل بالوطن والأحداث التاريخية والمجتمع ، بأقدار متفاوتة  
- كما قلنا - بين شاعر وشاعر ..

## بين معايشة العصر .. والاغتراب !

فالشاعر الخليلي ، مثلاً ، له «تاريجية » جرب فيها أسلوب «الملحمة » ، أو كان له فيها نفس الملحمة . بدأها بـ «عُمان في الجاهلية » ، وقسّمها فصولاً منها : «عُمان في بدء الاسلام » ، و «بدء الامامة في عُمان» ، وأئمة القرنون ٣ و ٤ و ٥ و ٦ ، و «ملوك النباهة » ، ثم آئمة القرنون ٩ و ١٠ و ١١ ، واليعاربة وفتحاتهم في الشرق والغرب ، والأسطول البحري ، ودولة البوسعيد ، وإمامية عزان ابن قيس ، ثم بقية الأئمة ، والسلطانين . وفيها اشارات تاريخية هامة منها إشارته الى قدوم البرتغاليين ، ثم طردتهم صاغرين :

أوغلوا حتى « صحار » معتدين  
فأتهنّم يعربيات الشبا  
قطاعات منهم كل وتين  
عاركتهم بعمان برهة  
ثم أجلنتهم ضعافا صاغرين  
ويسير الى سيطرة أسطولهم البحري - أيام اليعاربة خاصة - :  
يوم لا أسطول للفرب ولا عزة الا له راحت تدين  
والى إمامية عزان بن قيس :  
طهر الأرض من الرجس ولم يبق فيها من دخيل او أبين  
وضم ديوانه كثيراً من القصائد الوطنية والمقومية .

ولعل أهم ما يجذب انتباها في « وطنياته » دعوته الى الحفاظ على الوحدة الوطنية :

يا لقومي ، والله يحفظ قومي أنتوني الام هذا المراء'

ويكثّر فيها من الدعوة الى الأخذ بأسباب العلم والتomas حلية الأخلاق الفاضلة لبناء جيل قوي يحمل أمانة شعبه ووطنه .

وفي « قومياته » نقرأ قصائده : « العدوان الثلاثي على مصر » ، و « لسان فلسطين » ، و « أخي الفدائى » ، و « مصر » ، و « الى إخواننا في الجزائر » ،

و « الجرائم الشناء » . وما يقول في قصيدة له عنوانها « كليوبترا » مخاطباً  
« سادة الفصحى » :

الغرب يشحد فيكم سكينة  
والشرق مدبرة لكل أحوالٍ  
فعلم لا تضامنون وانتم  
أهل الوفاء وأمة التنزيل  
ولله يحفظ منكم قومية  
عربية بزغت لغير أهول

للشاعر، فوق هذا ، نزعة صميمية الى اختراق جدار التقليد ، يحاول فيها  
أن يخطو خطوة واسعة نحو التجديد ، فينحو منحى «الشعر التصصي» المستلهم ،  
في معظمه ، من التراث :

« الخيزران والرشيد » ، و « عند الموصلي » ، و « من ملح الرشيد » ،  
و « على بيتي المأمون » ، و « المأمون والجارية » ، و « جذيمة والأحداث » .  
و هي كما قلت « خطوة » كانت بالقياس الى عصره ، والى المناخ السائد في شعر  
و شعر غيره ، دفعه قوية الى التجديد ؛ فمع كل ما يلاحظ فيها من اعتماد الابعد  
الطويلة التي لا تطاوئ العوار والسرد ، واللغة الجزلة المنحوة من صغر ، والاكتثار  
من الوصف ، ووحدة الوزن والقافية لا ينكر لصاحبها اتقاعده مجالات في  
الشعر ، وفي تنوع الأغراض والفنون الشعرية لا يمكن جحدها وإنكاره فضله  
فيها وجرأته في اتقاعدها . . على أننا نستثنى بعض قصائده التي اختار لها  
أوزانًا قصيرة أو لينة ، مثل : « البدوي والوهم » (ص ٤٦٩) من مجموع الوافر ،  
و « على بيتي المأمون » (ص ٤٨٠) من المتقارب ، و « نزار وبنوه » (ص ٤٨١)  
من الخفيف ، و « المأمون والجارية » (ص ٥٣٠) من المجث .

و قد لا تفوتنا ملاحظة أخرى - وليرفتفر لنا بعض التفصيل هنا ،  
والأخلاق بالتوازن المفروض في عرض محتويات الكتاب : فنحن تجاه أدب أصيل  
جهدت في قطع الصلة بيننا وبينه ، وفي فرض الغربة عليه يد الغرب الآثمة ،  
كما جهدت في ذلك في مغربنا العربي الحبيب - والملاحظة : هي ابتداء قصصه  
بما يسميه « مقدمة » وانتهاؤها بـ « خاتمة » ؛ فهو يبدأ مثلاً قصته « نزار  
و بنوه » بمقدمة تحت هذا العنوان : « براعة استهلال » وينقلب عليها الغرب  
بالعروبة ، كقوله :

نحن قوم في قمة الوعي والفكر ، وأسمى صفاتنا الأخلاق'

تعد اثنين وعشرين بيتاً ، ليصل بعدها الى ما يسميه «تهيد» في أربعة أبيات منها:  
**فاليك البيان في قصص حلو دليلًا لما عليه المساق**

فهو يريد أن يسبق الى تعريف القارئ بفكرة النصمة ومغزاها قبل أن يعرض له أحداها . . . حتى إذا استوفى خَتَمَ بما يسميه «حسن اختتام» !  
وقصة «جدية والأحداث» (من ٤٥٤) تشتمل على عشرين مشهداً ، لا يعدوا الواحد منها (٣ - ١٠) أبيات ، وكل منها عنوانه الخاص ؛ وفيها أيضاً «تقديم» و «توطئة» .

إنها كما قلت «خطوة» نشكرها له على كل حال ، ولا نكلّف صاحبها المعال؛  
فلكل «عصر» مقال !

وملاحظة أخرى نرجو ألا تفوت القارئ ، وهي نهجه «العمري» – نسبة الى «عمر بن أبي ربيعة» – في بعض قصصه هذه ، كقصة «عند الموصل» (ص ٤٧١) .

هذا ، ومع حرص الشاعر على نهجه التقليدي هذا ، في ألفاظه وفي عباراته الشعرية – في معظم أغراضه ومواضيعاته – نجده يخالف عن ذلك في بعض غزله ، بطبيعة الشاعري الذي يأبى أن يظل دائمًا مختزنًا في صدره ، فنراه يُعمل في قصائده الغزلية شيئاً من لمسات الفنان المصور ، ورقّة لحن المغني – جرياً مع طبعه الأصيل – ، ولا ينفصل في الأوصاف الحسية شأن معظم التقليديين «الناسين» . . . من هذا النحو قصيده «مرفا العاشقين» (ص ٣٩٠) ، فهي من أجمل الشعر الغزلي – فناً و موضوعاً – ، وفيها ملامح تجديد ظاهر ، لم تقهّره جلاميد العصر .. مطلعها :

**فِينِي عَلَى ذَهْرَةِ الزَّنْبِقِ وَهَزَّيْ كِيَانِي ، وَلَا تَشْفَقِي**  
ومنها (ولوَدِدْنَا لَوْ نُورِدُهَا كُلُّهَا) :

ويكفي على مرافقها الجما ل شوقا الى ذلك الرونق  
أسمراء ان كنت انت العمال ، فماذا لهنئي العذاري بقى ؟  
وان رمقتك عيسون الهوى فمن يعذل الهر ان يرمق ؟!

وفيها يقول :

وكانَ تعايرني جبها  
وكنت أعايرها منطقى  
أقول لها والهوى يبتنا ومن يكتم العب لا يعشق !

ويقول في غزليه أخرى (ص ٢٨١)، وفيها الجديد الى جانب القديم ، وفيها الرقة التي لا تتأتى على الاثنين . . . تحت عنوان تقليدي : «كؤوس العب» ، وانظر فيها الى التكرار اللغظي الجميل :

فما هي الا لذة الوصول من بعدِ  
فما هو الا كانتناظار على وعدِ  
ولكنه خدَّ يطل على خدَّ  
وقلب على قلب ، وقدَّ على قدَّ  
فاني اخشى ان تصاب على عمد  
فسشكوا اليه ما نعانيه من جهد  
من الصد ما يشكوا المشوق من الصد  
اباح بما يخفيه من لذعة الوجد

احبَّة قلبي ان تعل ببنتنا النوى  
احبَّة قلبي ان يك الهجر كلفة  
هو العب في كل اشتياق ولوامة  
وعين على عين ، ودمع بدمعة  
شقيق الهوى ان كنت لاتتقى الهوى  
نداجي الهوى حتى يلين قياده  
اذا نحن طارحنا الغرام شكا لنا  
وان نعن قاسمنا الهوى لله الهوى

اليس مثل هذا الشعر العذب الطليق جديراً بأن تغنى لهاته «تضم صوتها»  
إلى صوت الشاعر ؟!

نعم . . . وللأنصاف نقول : إن للشاعر من رقة الشعر مالديه من رقة  
الاحساس . . . لو أمكن الشاعر أن يصدر قلبه دائماً عن رقة الاحساس .

والثاني - « هلال بن بدر البوسيدي » ( ١٢١٤ - ١٢٨٥ هـ ) - لم يتنا ،  
هو الآخر ، عن أحداث عصره ، ولم يضمّ أذنيه عنها . . . وعالج التاريخ في شعره ،  
كالخليلي ، في مطولته الشعرية « النَّزُوفية » ، وفيها روح الملحمه ؛ وهي في نحو  
٢٠٧ من الأبيات ، ويبعد ملائمه ليَّن هو « الخفيف » ، يروي فيها تاريخ عُمان ،  
منذ أقدم المصور حتى عصره ، مطليها :

حَسَى نَزَوْيِ تَحْيَة الْغَلَاصَاءِ وَاهِدِ قَوْمِي مُودَتِي وَاخْنَائِي  
وَاتَّل تَارِيَخَهَا الْقَدِيمَ وَهَدَّتْ عَنْ فَعَالِ الْأَنْمَاءِ الْفَضَلَاءِ

وفيها يأتي على ذكر «الجلندي» ، وملوك آل نيهان ، واليعاربة ، والبوسعيديين ، بدءاً من أحمد بن سعيد (مؤسس الدولة البوسعيدية) . وفيها يعرض لطرد البرتغاليين أيضاً ، وينتهي بالأسطول العربي العثماني :

طردوا البرتغال واستأصلوهم  
من عُمان بقوّة ومضاءٍ  
وبنوا جاهدين اسطول حرب  
شق في سيره أديم الماء  
ومضى يقطع البحار الى ان  
بلغ العزم منه «رأس الرجاء»  
ثم طردتهم للفرس :

عاثت الفرس في عُمان فساداً  
يا لقومي من شر هذا البلاءِ  
وهن العزم منهم واستكانوا  
رحلوا عن «صغار» رحلة واهٍ  
وكسيّر يجرّ فضل رداءٍ  
بعد ذاك القتال في النباءِ  
.. هزمت فارس ، وماذا عليها

ومع تعدد أغراض شعره وفنونه الشعرية ، وهو في أكثرها تقليدي ، نجد أنه - كسابقه الغيلي - لا ينوي في محاولات التجديد ، في شعر ذي طبيعة تجديدية واضحة ، منه الاجتماعي ، والوطني ، والقومي ، والأنساني ، والتأملي ..  
وكسابقه الغيلي أيضاً ، يدعو في «وطنياته» الى نبذ الفرقـة والشقـاق ، والتمسـك بأسباب الوحدـة الوطنية :

ان الاخوة ان تعا نـت فهي من شـر العـداء

وفي شعره القومي يدعو في أكثر من قصيدة الى الوحدة العربية والى نبذ  
الفرقـة والتجزـئـة :

من لي بها من وحدـة وتسـانـد في المـضـلات

وفي نكبة فلسطين يقول :  
بني العروبة هل طـاب المـقام لكم  
وفي فـلـسـطـين أـشـلاء عـلـى لـهـب ؟

ويقول في تفرق العرب وانقسامهم :

٠٠ لما طفى ذعماها  
استاثروا بالطيبات  
عصفت بهم أهواهم فتفرقوا في النائبات  
فاندك صرهم المتب من وكان فوق الكائنات  
رقصت على انقاضه صهيون رقص الفانيات

وفي « اجتماعيةاته » يناصر تعريب المرأة ، ويدعوها الى التحرر من قيود الجهل ، والى نشدان الملم والتعليق بالأخلاق الفاضلة :

وصرحي بلسان العلم طالبة حقا يعلتك في عال من الرتب  
للبيت انت وللطفل العزيز وللزوج الأليف وللأخلاق والأدب

وللشاعر غزل كانت تسعفه الكلمات فيه لو أسفته العاطفة ، وأغنته المعاناة والتجربة ؛ فهو يجيد التعبير ولكن المادة عن تعبيره نائية ، تنتظر نار العب التي تسعمّرها ، والأمة التي تفجرها ..

★ ★ \*

ويتأدي اليها من وراء حجب التاريخ صوت قريب بعيد ٠٠ قريب لأن صاحبه - سليمان النبهاني - من رجال القرن العاشر الهجري ( ١٥١٠ م ) ، وبعيد لأنّه مفارق في ارتياح القراءون السعيقة في القدم ، المصر الجاهلي وشعره ، لا يكتفي بأن ينهل من معينه الشر ، وينبوعه الصافي ، ولكنه ينهج نهجه ، وكأنه لا يرى شمراً غيره ، لولا يرى ما يجاريه ويقفوا أثره سواه ٠٠ تروعه جزالته وتستهويه فخامته ، ويستأثر هواء بلبه ؛ فصحّ فيه قول الأديب اللغوي المدقق « عز الدين التنوخي » رحمة الله ، بأنه « استطالة للشعر الجاهلي » ، طوى به صاحبه المصري الأموي والملايسي إلى العصر الجاهلي ، « وليس في شعراء عصرنا من يحاكيه في أسلوبه الشعري الذي يذكرنا بالمصر الجاهلي » .

أما معاصره ودارسو شعره فيحكمون بأنه من كبار الشعراء ، يكثر في شعره الفخر ، وذكر الخيل ووصفها ، والعرب وحقوتها ، ورماحها وسيوفها ٠٠ وله

رأية يقول «السالمي» في «تحفة الأعيان» أنها «تزاحم المعلقات السبع بлагة ، وتزيد عليها عن دوابة ورشاقة » . وله «المقصورة النبهانية » يعارض فيها – هو أيضاً – مقصورة «ابن دريد » .

ومن قصائد المشهورة قصيدته «الخيالية » في وصف الخيل ، يصفها – كما يقول مقدم ديوانه ، الأديب اللغوي الباحث سليمان خلف الغرّ وهي – وصف الناقد الغبير .

ويبدد هنا سؤال :

هل كان في استغراق الشاعر في معايشة الشعر الجاهلي والتلذذ بمحاكاته ، وربما المبالغة بها لفظاً ومعنى ، ما زواه عن أحداث عصره ، وحجبَها عن احساسه وفكرة ، لتكتمل له الصورة الجاهلية كما يهواها ، وكما يجب أن يراها ويتملاها ؟ !

في الجواب عن هذا التساؤل ، الذي لا يبدو أنه في غير محله لا نشأع تماماً الرأي القائل باتباعه عن أحداث عصره ، وارتداده روحًا وخيالًا ، أشبه عنده بالواقع ، إلى عصر رها وجد فيه نفسه وروحه وراحته ، ولكنه إن ذكرها – هذه الأحداث – فمن خلال نفسه ، وفي ثنيات قصائد اعتزازه وفخره . . . انظر إلى قوله (ص ٢٤١) :

ملكتنا البلاد ، وسُدنا العباد  
ودُسنا الأعادي بالصليم  
فسائل بنا العرب والأعمى

وقوله (ص ١٣٠) ، ويقصد نفسه :

سليل ملوك من عرانيين يعرب  
بهاليلَ كسرى قد اذكروا وقيروا  
منازل لا يرضى بها الضَّبْ مَجْنَرَا

هو المنزل الأعداء من بعد عزهم

وقوله (ص ١٧٦) :

ولقد اُسر نيران الوشي  
دَرَكَنْ («رسوى») انهَدَ منه ما شهد  
نبيو العزم وضنْ بالورق

في الوف سبعة لو زاحمت  
اذ ملوك العجم اكبَا ذندها

وقد يبدر لها هنا سؤال آخر : أي أعاد يعني ؟ وأي أعادج ؟ أعادج عصره أم أعادج عصور خلت ( بدليل ذكر كسرى وقيصر ) ؟ فهل حجب العصر الجاهلي عنه حتى أعادج عصره ، وما ارتكبته أيدي أعادج عصره ؟ وهل هو - اذا ينتم بجو غربته الجاهلية وأحلام يقظته الجاهلية - لا يرى تاريخاً غير ما تردد شطره أيامه ، وتنتشي به ذكرياته وأحلامه ؟

وفي مجال النزل ، يجذب انتباها في احدى قصائده - وبعض أبياتها يذكر بأمرئ المقيس - حوار يسوقه الشاعر أشبه بالغوار الذي يديره عمر بن أبي ربيعة في بعض قصصه الشعري ، ولكنه - هو الآخر - يجيء في معرض فخر لا يخرج في طبيعته وفحواه ، بل وأسلوبه اللفظي و « غريبه » المعهود عما لفناه في سائر شعره . ولكن التفريغ يقل في موضوع الغوار . . . أما غريبه ( الحقيقي ) فدونك مثلاً عليه ( ص ١٩٩ ) :

وَدِيمُومَةٌ تُحْكِي السَّمَاءَ قَطْعَتْهَا  
أَمْوَانٌ ذَقْوَنْ عَنْتَرِيسْ عَنَّرَنْدِسْ  
عُثُوجَةٌ غَلْبَاءٌ وَجَنَاءٌ مِنْ قَالْ  
خِدَابَ الشَّوَى جَابَ رِبَاعَ مَلْدَمْ

وغزله حسي مادي لا يفارق الغريب ( ص ٢٢٠ ) :

غَرَاءٌ نَاهِدَةٌ الثَّدِينَ بِهَكْنَةٍ  
عَجَزَاءٌ لَا قَصْرٌ فِيهَا وَلَا طُولٌ  
لَيَامٌ وَاضْعَةٌ الْأَطْرَافُ خَرْبَعَةٌ  
خَرِيدَةٌ غَضَّةٌ الْغَدِينُ عَطْبُولٌ

ولكنه يرق شيئاً حين يريد له أن يرق ( ص ٢٧٤ ) :

أَيْتَ مَسْهَدًا قَلْقاً حَزِينًا  
أَشِيمَ الْبَارَقَ المُتَنْعِيَ وَهُنَا  
وَانْ حَقْقَ النَّسِيمِ أَطْارَ قَلْبِي  
تَقُولُ إِلَّا رَثِيتَ لَطْوِلَ لِيلِي

وَفِيهَا يَقُولُ وَيَحْسُنُ :

يَصْبِحُ الصَّبَرُ بِي فَارُوغُ عَنْهُ  
بِكَيْتَهُ صَبَابَتِي فَاسْتَجَهَلُونِي  
إِذَا أَنَا لِمَ الْمَكِ وَانْتَ جَبِي

والشاعر ، كما أسلفنا ، جاهلي للفظ ، جاهلي الصورة ، ملتزم حتى  
تعابير الجاهليين ، ولا سيما امرأة القيس :

فقالت أبيت اللعن إنك قاتلي      فرقا فاعمامي شهود وأخواسي

وقد يقلد المتنبي والمعربي وغيرهما .. فمن تقليده للمعربي مثلاً (ص ١٥٤) :

الا في سبيل المجد ما أنا صانع  
نَفْوَهُ وضراره ومنعطفه وممانع  
أعتني وقد أحرزت كل جميلة  
يُذْعَرْ جار أو يُذْعَرْ وادع ؟

ومعربي يقول :

الا في سبيل المجد ما أنا فاعل  
عفاف واقدام وحزن ونائل  
يصدق واثق أو يغيب سائل  
أعتني وقد أحرزت كل فضيلة

فالشاعر ، فوق حبه للشعر القديم ، وهيا به ، ولا سيما الجاهلي منه ،  
يريد أن يضاهي هذا الشعر ، وأن يباريه ويزاحمه ، فخاض في أغراضه وصوره  
و معانيه ، ولم يدع حتى لفظه وعبارته ، وهام بالغرير هياماً قد لا تجده أحياناً  
عند الجاهليين أنفسهم ..

ولا ينكر عليه منكر أنه كان يملك من الموهبة والقدرة على الإجاده والإبداع  
ما كان خليقاً أن يضنه في طبيعة الشعراء المبدعين ، ويبوأه مكانة تتجاوز عصره  
وقطره ، لو لا أنه اختار طريقاً واختار غيره طريقاً آخر .. فكان لكل منهم  
ما اختار ..

ولكلِّ ما اختاره نصيب !

\* \* \*

ولا أنهي كلامي هذه قبل أن أشير إلى بعض الهنات البسيطة في الكتاب ،  
لا على سبيل العصر . ومعظمها كما يبدو من أغاليط الطباعة ، وأمر تصحيحها  
هيئ في طبعة قريبة إن شاء الله ، أكتفي بالإشارة إليها :

	ص	ص
ونلاحظ أن في هذه الأبيات استنصر وتعريف للامام	١	٢٩
لا تنسى ما قلت من فيها الى أذني	١٨	٣٦
سطى عليها الموصى	١٧	٥٦
ولكته راضيا بما قدر له ٠٠ معدوا نفسه على تقى الله ( والمرجح	٢٥	٥٧
سقوط « كان » قبل « راضيا » )		
كان احمد ٠٠ متوجدا هناك ( فالتوارد خاص بالصوفية )	١٥	٦٥
حيث انه ٠٠ ( وتتكرر غير مرة في الكتاب )	٩	٦٥
لم يتوفى منه شيء	١٣	٦٩
يعطينا مؤشرا الى وجود تنافس	١٤	٦٩
بحيث انها لم تبوء	٢١	٦٩
عيسي بن عمر الثقفي المتوفي سنة ١٤٩	٢٢	١١٥
من الآثار الغير معروفة	١٢	١٢٢
وغار الشاعر على معانى السابقين ٠٠	٧	١٣٩
وي يمكن أن يتبين عن هذه القصص عملا دراميا ٠٠	٢٠١	١٤٠
لا بد وأن تكون له بعض القصائد	١٧_١٦	١٥٥
في تلك الحقبة الزمنية حيث كانت تقرع الطبول ٠٠	١٥	١٦٧
واستصحبى الصارم الفضىبا ( تصحيف من « العضبا » )	٩	١٧٤
ولا شك أن لعلاقته بنور الدين السالمي لها الأثر الكبير في شخصيته .	الأخير	١٩١
اني امرا لا ارتضي بمعجلة	١١	٢٠٠
وظل بها طيلة حياته مدرسا	٨	٢٨٦
علاوة على ما الم به من ضائقة	٧	٢٩٢
وكان يبحث أبناء عمان الى نبذ خلافاتهم	١٣	٣٣٤
يمتاز عن غيره من شعراء عمان	١٥	٣٤٠

## كلمة أخيرة ..

وبعد فان سعادتنا بهذا الكتاب لا يعدلها الا سعادتنا بأن يعقبه المزيد من مثله في مادته وموضوعه وفي هذا الجهد الذي أخذ المؤلف به نفسه ليخرج لنا عملاً أدبياً وقومياً في آن معاً ، نحن في أمس الحاجة اليه والعرض عليه ، وبأن يُعد المؤلف لاستكمال بعض التواقصات اليسيرة في تواريخ الولادات والوفيات وأمكنتها ، لعدد من شعراء الكتاب ، وفي شكل أسماء الأعلام ، وكتابه المقابل الهجري للعام الميلادي ، أو العكس ، والانتقاء من كل أغراض الشاعر وفنونه الشعرية وعدم الاقتصر على أغراض محدودة ، لتکتمل صورته لدى قارئه ، وذلك ليخرج الكتاب مليباً لحاجة قرائه فيسائر أقطارعروبة ، سواء في الطبعة الثانية القريبة ان شاء الله ، أو فيما سيتلو من أجزاء ؛ فنعن حريصون ، حرص المؤلف نفسه ، على هذا التراث العزيز أن يُرفع ركام السنين عنه ، وأن يخرج لنا خالصاً في صورته الزاهية التي خرج بها للناس في أيامه تلك ، لا تشوبه شائبة من نقص أو اجتراء باليسير في نماذجه ومخاراته ، ولا انقطاع قد يشبه البتر في مادته كما وقع لموضوع الخليل الفراهيدي ، فتظل الصلة معقودة كأقوى ما تكون بينه وبين العصور التي سُطّر فيها ، والأحداث التي واكبها وواكبته ، وأثر فيها بقدر ما أثّرت هي فيه وأثرته ! ويكون في ذلك أيضاً راحة للقارئ وتوفير لوقته يكفيانه مؤونة البحث والتنقيب عن ميلاد هذا الشاعر أو ذاك ، أو عن وفاته ، والجري وراء مراجع قد تكون يده صَفِرَة منها ..

هذا ، مع تفهمنا التام لاعتذار المؤلف في مقدمته بأنه «لم يقصد من وضع الكتاب أن يكون خروجه وفق الأطوار الأكاديمي ، وإنما أريد منه أن يقدم المعلومة في ثوبها البسيط ونهجها الموصوف بالسهولة ، لتكون في متناول الجميع». ثم يشفع ذلك بأن «الكتاب خطاب لكل الفئات وليس للغاية منها فقط» .

وأقول إن هذا أدعى إلى أن نعمن في تسهيل الطريق على القارئ فلا نكلفه من أمره عسراً ، ونوفر عليه الكثير من وقته .. وما له ! اذا نجنبه جهد التنقيب في المراجع ان وجدت ، أو السعي إليها ان أعزوه ادراكها ، وضاقت العجيب عن امتلاكها ..

ان للشعر العماني ، ولتراث عمان ، ولعمان المجاهدة وجبلها الأخضر الأشم ، من المنزلة في قلوبنا ، وفي قلب كل عربي ، ما يجعلنا نتوق ونتعطش ، بل نحنَّ الى كل ما يُعمل علينا من كنوز هذا التراث خالصاً نقياً ٠٠ فهو ترااثنا جميعاً ؛ ليس ملكاً لأحد ، وليس خاصاً بقطر دون قطر ، ولا بجبل دون جبل ، وإنما هو ملك الأمة كلها ، وملك المصور والأجيال جميعها ٠

من هذا المنطلق - قبل غيره - كان تقديرنا للمؤلف الكريم وشكرنا لما تكلّف من جهد ، وقدّم لأمتنا من عمل ، وأولاً هامن صنيع ، واطمئنانا الى أن هذا التراث في خير ، لن تنام عنه عين ما دامت القلوب عليه ساهرة ، ولن تتطفىء له جذوة ما دامت القلوب بعبه عامرة ٠٠ ومن هنا أيضاً كان شكرنا للمؤلف ، لأنَّه عرَّفنا بشعراء عمانين حديثين ابتهجنا بالاطلاع على انتاجهم الذي يؤلِّف مع انتاج اخوانهم الشعراء ، في سائر أقطار العربوبة ، باقة شعرية زاهية الألوان ، بعضها معطر بأريج هذا العاضر المتلون بكل لون ، وبعضها الآخر يترسم آثار القدماء بدافع من ولوعه بالتراث ، ولكن لا يبعد صلة له بالحدث ، ان لم يكن بلغفه وصورته ومعناه ، فبموضوعه وشعوره وهواء ٠٠

والله الموفق ، ومنه العون والسداد ٠



# \* في مهرجان الجنادرية النسخة العاشرة

عبداللطيف الأزناوط

قرية شعبية أنموجية ، تبعد عن مدينة «الرياض» بما يقارب ٤٠ كم ، وعلى أرضها يتعدد اللقاء السنوي في أضخم تظاهرة لمهرجانات تراثية تشهدها المملكة العربية السعودية . و تستمر مدة أسبوعين تقريباً . والنشاط في مهرجان «الجنادرية» كبير ومتين . فمن خلال عروضه تشعر أنك تقلب صفحات التاريخ القديم ، لترأها مجدداً على الطبيعة وعبر الوجوه العاملة والمشاركة فيه .

الفنون الشعبية تتضح بمعالمها المتراثة . . . واللقاءات الأدبية اليومية تشذب المثقفين والمفكرين الوفاردين من أنحاء العالم العربي . ويقوم العرس الوطني بتنظيم أمور هذا المهرجان المميز والاشراف على الفعاليات التراثية المتنوعة ، حتى غداً مناسبة وطنية للتراث والثقافة ، ووجهها حضارياً متيناً ، تتجلّى في خطوطه المرسومة ، وقسماته الموضوعة جهود الإنسان العربي المعاصر .

ومهرجان الجنادرية يستلهم فناته من تراث الأمة المجيد الضارب في أعماق التاريخ ، وتتلاقى فيه ابداعات الإنسان العربي الماضية والعاصرة المعاصرة .

(\*) ملخص المحاضرة التي ألقاها في المركز الثقافي العربي بدمشق - بتاريخ ١٢/٥/١٩٩٤ ، بدعوة من وزارة الثقافة السورية واتحاد الكتاب العرب .

وقد حددت اللجنة الثقافية للعرس الوطني المشرف على المهرجان أهدافه على الوجه الآتي :

- ١ - التأكيد على القيم السامية والاجتماعية التي تمتد جذورها في أعماق التاريخ ، لتصوير البطولات القومية ، واسترجاع العادات والتقاليد العيدة .
- ٢ - ايجاد صيغة للتلامم بين الموروث الشعبي بجميع جوانبه والانجازات الحضارية المعاصرة في البلاد العربية . والعمل على ازالة العواجز الوهمية بين الابداع الادبي والفنى والموروث الشعبي .
- ٣ - تشجيع اكتشاف التراث الشعبي وبلورته صوغاً وتوظيفها في أعمالن أدبية وفنية ناجحة .
- ٤ - الحث على الاهتمام بالتراث الشعبي ورعايته وصقله والتمهد بحفظه من الضياع وحمايته من الاهمال .
- ٥ - العمل على سقل قيم الموروث الشعبي ليكون حافزاً يرموزه لاثارة المخيلة الابداعية ، ويسير ايصاله الى المبدعين في مجالات الموسيقا والفناء والرقص والأدب .
- ٦ - تشجيع دراسة التراث للاستفادة من كنوزه الابداعية والانطلاق منه في ابداعات أصلية ، تطلق من الذات ، والبحث عن وسائل الاستفلال الأمثل لمصادر البيئة المختلفة .
- ٧ - رصد المتغيرات السريعة التي واكبـت التقدم العلمي عالمياً وعليـاً وأثرـها في الحياة الاجتماعية والثقافية للمنطقة العربية من خلال المارض العامة والعرف المحليـة التي توفر أسلوباً مميزاً للمقارنة الموضوعـية .
- ٨ - التعريف بالموروث الشعبي بوساطـة تمثـيل الأدوار والاعتماد على المحسـوس حتى تكون الصورة أوضـع وأعمـق ، واعطـاء صورة حـية عن الماضي بكل معانـيه الثقـافية والفنـية .

- ٩ - تجديد التراث الثقافي والفكري الأصيل الممتد في أعماق المنطقة العربية ، من حيث وفرة عطائه وخصوصية منبته وعمقه العنصري . فقد كانت هذه المنطقة زاخرة بالأدب والأدباء ورواد الفكر والعلم وكانت مجالس الأجداد والأباء عامرة بالشعر والشعراء والعلماء في شتى المجالات .
- ١٠ - تسلیط الضوء على دور الفن التشكيلي للحفاظ على الثقافة الفنية في المجتمعات العربية .
- ١١ - استعراض بعض جوانب التراث من خلال معارض الكتاب والدوريات والصناعات التقليدية ورسوم الأطفال .

★ ★

اضافة الى هذه الأهداف ، ثمة نشاطات مختلفة ، وبرامج ثقافية ، ومحاضرات فكرية ، ولقاءات أدبية يومية ، وندوات شعبية ، وعروض فنية ، وأمسيات متميزة يشارك فيها الأدباء العرب من مختلف البلدان .

وتأتي السهرات الممتعة التي تجسد العلاقة الدافئة بين المثقفين العرب ، اذ يجتمعون كل ليلة على امتداد أيام المهرجان لاحياء الندوات القصصية والشعرية داخل «الخيمة» المدورة في الفندق مقراً لإقامة الوفود العربية ، وكانوا جميعاً يعرضون على الحضور للمشاركة في ابداء الرأي والمناقشة ، وتحري مناقشات أدبية راقية ، ومحاورات جادة حول مسيرة الشعر بين الأصالة والحداثة من خلال نماذج من نتاج الشعراء المعاصرین.

ويمكن القول إن مهرجان الجنادرية السنوي هو مظهر من مظاهر التطور الحضاري لتوثيق ملامح التقاليد ، والعادات المتعددة من حياة مجتمع البداوة منذ آلاف السنين . ورمز من الرموز الشعبية يعبر عن الموروث الثقافي الذي للمنطقة ، ويشمل جميع أنماط التفكير والقيم والعادات التي توارثها الأجيال منذ أقدم الزمان ..

ومن الملحوظ أن الموروث الشعبي في المهرجان ، لم يقتصر على العكایات والأساطير والأمثال والشعر ، بل يشمل أيضاً الأغاني والموسيقا والرقصات

الاحتفالية والأزياء الشعبية ، وأنماط العمارة البسيطة التي كانت سائدة في المجتمعات البدوية الصافية أو الريفية البعيدة عن حياة المدينة والتجمعات الحضرية التي شملها التطور ، وتبديل معالمها بسبب تأثير المنطقة بمعطيات الحضارات الواقفة ، الا أن التراث الشعبي على الرغم من هذا التحول ما يزال يطبع انسان المنطقة سلوكاً ونمطاً تفكير وقيماً أصيلة .

\* \* \*

كان مهرجان الجنادرية التاسع الذي أقيم في العام العالمي ١٩٩٤ متألقاً بعرضه وتنظيمه المذهل ، مما أشاد به شهادة الوافد المشاركة التي أعجبها إحياء الماضي الذي أعاد إلى الأذهان ذكريات سوق عكاظ وأسواق العرب . بالإضافة إلى كونه ملتقى فكرياً وثقافياً لتقريب البعيد ، وفك طوق العزلة الفكرية التي يعاني منها الفكر العربي ، ومدرسة للحوار في شتى مجالات الأدب والثقافة .

وستجاوز في حدثي بعض الفعاليات الانتاجية والنشاطات الشعبية التي تواكب الابداع وتطور النهضة الثقافية لضيق الوقت . ولن أتحدث عن العِرَف الشعبي من صناعة القوارب ، أو صناعة الأواني الفخارية أو بناء بيوت الطين . ولن أتحدث عن الجولات في المزارع الشعبية التي تشتمل على وسائل الزراعة والري والحساب بالأساليب التقليدية القديمة ، وعن عروض «السواني» التي يتم بواسطتها استخراج الماء من الآبار بالاعتماد على الإبل .

وبالاضافة إلى معارض العِرَف اليدوية والآثار والصور والفن التشكيلي ورسوم الأطفال . . . ومعارض المقتنيات الأثرية .

ولو اتسع الوقت لفصّلت في الكلام على الفرق الشعبية المشاركة والتي قدمت لواناً من الفنون المتواشرة والرقصات البطولية ، والألعاب الشعبية التي تحافظ بالحنين إلى أصالتها العريقة . . . وعروض المسرحيات الشائقة التي تعالج الأوضاع الاجتماعية السائدة ، وهي عروض نالت إعجاب الحضور .

وأكتفي بالإشارة إلى روعة سباق «الهِجْن» السنوي الذي يبعث في المخيلة مشاهد الطعن في أدبنا ، ومواقف الرحيل والوداع في مطالع قصائد الشعر

التقليديي ، فتقف العين على قوة سفن الصحراء وتحمّلها العطش والحر ، وقدرتها على اجتياز مسافة السباق القصير التي كانت بحدود تسعه عشر كيلو متراً أو سباق التحمل ، ومسافته ستون كيلو متراً ٠٠٠ ومشاهد سباق الخيول العربية الأصيلة التي اشتهرت أن تخضع للفحص الطبي مثلما تخضع لشروط لجنة التحكيم لاثبات سلامتها وأصالتها ٠

سأتجاوز كل هذه الفعاليات والنشاطات ، وسأقتصر في الحديث عن النواحي الثقافية والفكرية والتراثية التي اتسمت بها المحاضرات ٠٠ والتي قدمها الباحثون المختصون والمثقفون المتميزون في أنحاء الوطن العربي ٠

وقد قدمت هذه المحاضرات وما أعقبها من حوارات ومداخلات عليها في قاعة الملك فيصل الرئيسة ٠

\* \* \*

### ● الوطن العربي في خضم التحولات السياسية الجديدة :

#### للدكتور : عثمان الرواف

عرض المحاضر في محاضرته الوضع السياسي الدولي والعربي الراهن ، وهو وضع لم يزل يتسم بالتحولات السريعة ، وعدم الاستقرار والتوازن ، ولم تتضح معالجه الأساسية بشكل كامل ٠

وأكّد أن استقرار السياسة العربية يعتمد كثيراً على استقرار السياسة العالمية ٠ كما تعرّض في أثناء تناوله التحولات السياسية الجديدة التي يعيش في خضمها الوطن العربي اليوم ٠٠٠٠ لتأثيره بالمتغيرات السياسية الدولية التي أعقبت انتهاء الحرب الباردة ، وانهيار النظام العالمي عقب التغييرات السياسية التي حدثت في الدول الشرقية ثم تناول خصائص المرحلة الانتقالية ٠٠ ومنها :

- ١ - ازدهار الليبرالية الغربية ٠
- ٢ - السيطرة الأمريكية المنفردة ، وظهور بعض التعديات في وجه هذه السيطرة ٠
- ٣ - ظهور قوميات وكيانات جديدة ٠
- ٤ - المأزق الجديد الذي وقفت فيه الدول النامية والتمثل في نقص الاعانة الدولية ٠

واستعرض المحاضر بعض النماذج المطروحة من المفكرين والباحثين الاستراتيجيين حول النموذج الذي سيحدد ظروف السياسة الدولية وتفاعلاتها .  
ومن هذه النماذج :

- ١ - الصدام الحضاري بين الغرب والشرق .
- ٢ - نشوء الدول القومية والتكتلات الدولية .

ثم تناول بالتفصيل أزمة الفكر العربي والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها المجتمع العربي . وأوضح أن بعض مظاهر التحول الواقعي يعود إلى الثمانينات . إلا أن أزمة الخليج قد ساعدت الفكر العربي على الانطلاق ، وختم المحاضر الدكتور « عثمان الرواف » محاضرته بالحديث عن التحولات السياسية الجديدة في الوطن العربي ، والتصورات المستقبلية على الصعيدين العربي والدولي ، فكان من بين الاحتمالات التي أوردها استغلال الفرص لمعالجة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية في الوطن العربي .  
والتكييف مع النظام الدولي الجديد .

\* \* \*

وعلّق الباحث - مؤلف ١٠٠ كتاب في التاريخ العربي والاسلامي والاستراتيجية العسكرية الأستاذ بسام العسلي من سوريا - على المحاضرة .  
فقال : من المناسب التوقف عند نقطتين هامتين ٠٠٠ هما :

- ١ - التحولات العربية واحتمالات تطورها .
- ٢ - التكيف مع السلام والنظام الدولي .

ورأى أن أسباب تدهور الوضع في الوطن العربي :

- ١ - التجزئة الأقليمية الناجمة من التقسيمات الاستعمارية السابقة .
- ٢ - سياسة الاستقطاب في النصف الأخير من القرن العشرين .

وأضاف :

« ليست ثمة حاجة إلى القول إن مشكلات العدود بين بعض الدول العربية ليست لها حلول وأنها مستعصية . ونحن العرب نحتاج إلى استراتيجية واحدة ومنظمة . وذلك لتجاوز الخطوط الأقليمية ، وحلّ المشكلات الاقتصادية التي يواجهها العرب في العصر الحديث . »

## ● مسؤولية الاعلام في تأكيد الهوية الثقافية :

للدكتور : ساعد العربي العارضي

بدأ المحاضر حديثه عن الاعلام الذي هو مرآة الشعوب يعكس ضعفها وقوتها ، وما تقدم من ثقافة في مصر العاضر ، ذلك أن قوة الأمة تقاد بقوة اعلامها ، وقدرة العاملين في مجاله .

والاعلام مسؤولة ووعي ما دام يتوجه الى تأكيد الهوية الثقافية للأمة : ولأمانتنا هويتها الثقافية المخصوصة التي يجب أن يرسّخها الاعلام ، ويعمل على ثبيت شخصيتها في مواجهة الثقافات والقيم الواحدة التي تجتاحنا بقوة واندفاع تحت غمرة الانبهار بعلوم الغرب ومختبراته ، وفي عصر الأقمار الصناعية والبث المباشر وكمبيوتر الاتصال .

وأشار المحاضر الى الصعوبات التي تواجهه وسائل الاعلام في دول العالم الثالث . ومنها قوة وسائل الثقافات الوافدة وأدوات نشرها وتبليلها . والتدفق المرعب للمعلومات ، والأفكار والاتجاهات المستوردة ، والتي تؤثر في مستقبلنا وقناعاتنا ومبادئنا ، وتسسل الى نفوسنا فتفصلها دون محاكمة واعية ، وليس سوى اعلامنا العربي وتراثنا ليتصديا لدفع انسياقاتنا الى تقبل كل جديد عنى علاته .. ومن لا يملك قوته لا يملك صوته ..

فالمواجهة اليوم بين العالم النامي والعالم الثالث مواجهة اقتصادية وثقافية . ولعلَّ المواجهة الثقافية أشد قوة ، وأبعد أثراً في فكرنا وقيمنا الروحية والاجتماعية .

\* \* \*

○ وفي محاضرة الدكتور يوسف القرضاوي بعنوان :

« الفقه الاسلامي والمشكلات الانسانية المعاصرة »

عرف المحاضر الفقه الاسلامي بأنه علم يضبط سلوك الانسان أو الأمة وفق مبادئ العقيدة والشريعة الاسلامية ، ويستمد أحکامه من مصادره الأساسية وهي : القرآن الكريم والسنّة والاجماع والقياس والاستحسان وغيرها من مصادر التشريع .

وذهب المعاشر الى أن الفقه الاسلامي واكب الحضارات المختلفة ، فلم يضق بها ذرعاً ، وكان له مع كل حادث حديث ، ومع كل مشكلة علاج ومع كل داء دواء .

فقد انتشر في العراق وبلاد فارس حيث كانت المدينة الفارسية سائدة .  
وساد في بلاد الشام حيث كانت مدينة الدولة الرومانية والبيزنطية تعمُّ البلاد .  
ودخل مصر حيث كانت مدينة الفراعنة شاملة . ونجح في مواجهة الأنظمة  
والتشريعات السالفة ، ورسم مبادئ لسلوك الانسان المسلم . تأثير طريقه  
وترشده الى الحياة المثلى ، وفي غمرة الجدل حول صلاح المبادئ الفقهية لكل  
زمان ومكان أشار المعاشر الى أن فئة من الفقهاء أغلقت على نفسها الباب  
واابتعدت عن الحياة المعاصرة ، وجمدت الفقه عند حدود ما كان عليه أيام  
السلف . وأن فئة أخرى نادت بتجاوز المبادئ الفقهية والاقتباس من الحضارة  
المعاصرة والحديثة . . . ومؤلء أرادو للفقه أن يسخر لتحقيق هذا الانفتاح  
بحجة أن مبادئه لا تصلح لمسايرة المصر .

وتعرض المعاشر الى كثير من الموضوعات الفقهية . . . وكيفية معالجتها  
القضايا المضاربة والمشاكل المعاصرة التي تعصف بالأمة العربية .

★ ★ \*

○ وتناول الدكتور « زاهر عوض الالمي » في معاشرة عنوانها :

### مفهوم الشورى في الإسلام

تناول تعريف الشورى . . . وأشار الى ما أورده القرآن الكريم حولها  
وأوضح أن الشورى تقوم على تبادل الرأي ، وتقليل وجهة النظر للوصول  
إلى ما ينفع . . .

ولا بد أن يقوم الرأي على النصح والصدق وحسن التقدير والمسؤولية  
وذهب المعاشر الى أن الاجتهاد في الشورى يبحث عن أفضل الطرق لمعالجة أمر  
ما سواء كان المستشار فرداً أم جماعة .

وأكَّد الباحث أن الشورى لا تكون في أمر مقطوع فيه بالحكم الثابت . . . وإنما تكون بالفهم الصحيح والقناعة التامة .

ومن ميادين الشورى في الإسلام . . . أوضح المعاشر أهمية المبادئ في الإسلام . وميادينها ليست قاصرة على مهمات الدفاع في السلم وال الحرب ، وإنما في البناء والاقتصاد . . . حتى في أوضاع الأسر وبخاصة ما يتصل بالعلاقة الزوجية . . .

وأكَّد أنها تقوم على النصح والاقناع والطاعة في المرحوم وقبول الحق على أساس من الإيمان والسلوك في مختلف مناحي الحياة .

كما أورد أمثلة عديدة استمدتها من حياتنا الاجتماعية والتاريخ العربي الإسلامي .

\* \* \*

○ وتاتي معاشرة الدكتور صالح بن حميد بعنوان :

### أدب الحوار في الإسلام

تعزيزاً لما سبقها من محاضرات بيَّن فيها أن الهدف من الحوار إقامة العجَّة ودفع الشبهة وال fasid من القول والرأي .

والحوار تعاون بين المتناظرين بغية الوصول إلى الحقيقة ، والسير في طريق الاستدلال الصحيح .

ويصنف أصول الحوار في ثمانية أصول . . . منها :

ـ سلوك الطرق العلمية والتزامها بتقديم الأدلة المرجحة أو الثابتة ، وصحة النقل في الأمور المنقوله .

ـ سلامة كلام المناظر وخلوه من التناقض .

ومنها أيضاً :

- ألا يكون الدليل هو عين الدعوى، والا تشتمل على ما ينقضها :
  - ثم الاتفاق على منطلقات ثابتة وقضايا مسلمة .
- ومنها :
- التجدد . . . وقدد الحق والبعد عن التهسب والالتزام بأداب العوار .
  - أهلية المعاور من حيث العكمة . . . ورجاحة العقل . . . والأدب . . .
  - ثم موضوعية المعاور وادراكه أن الرأي الفكري نسبي للدلالة على الصواب أو الخطأ . . . ويكون العوار مخفقاً اذا انتهى الى نزاع وقطيعة ومكايدة .
  - فلا بد من الرضا والقبول بالنتائج التي يتوصل اليها المعاور دون التزام ما يترتب عليه .

\* \* \*

اما المحاضرات الأخرى فكان لها طابع أدبي ثقافي . . . ومنها محاضرة بعنوان:

### النقد الأدبي ودوره في تحقيق الهوية الابداعية

للناقد الدكتور : عبد القادر القط

الذي دلّل على أهمية النقد في النهضة الثقافية والأدبية والفكرية . . . وعلى الارتباط الوثيق بين الابداع والنقد ، وما طرأ على فنون الأدب من تطور ومستجدات . . . ودور الناقد من إقامة صلة واضحة بين النص وقارئه تراوح بين التذوق والتفسير وبين الحكم والتحليل .

ويرى الدكتور عبد القادر القط أن النقد ظلل مرتبطة بالابداع في النظرية والتطبيق بالرغم من المراحل الحضارية التي مر بها المجتمع الانساني .

ثم تعرّض المحاضر للنقد الاغريقي وارتباط شأته بالفلسفة وبالنظرية الشاملة للحياة والانسان والكون بمعزل عن دراسة النصوص نفسها .

وتعرض أيضاً للمذهب الروماني والواقعي والطبيعي فقال :

[ منذ أوائل هذا القرن الميلادي ٢٠٠٠ واكتبت المناهج المعروفة في النقد مناهج جديدة نابعة من نظريات في علوم اللغة وأساليبها ، وتحاول أن تربط النقد الأدبي بمناهج العلم وتستنبط قوانين تصلح للكشف عن طبيعة النص على اختلاف زمانه ونوعه ومذهبه . وعلى تعدد ما كتب عن هذه الاتجاهات وفروعها المختلفة . ]

وبالرغم من بعض الدراسات التطبيقية المتميزة فيها ، فما زال الابداع يلتمس الصلة بينه وبين جمهور الأدب في مناهج النقد المألوفة التي تعطيه بقومات النص ، فلا تجد بأساساً من تقويمه مع الافادة من المناهج العلمية الحديثة ، ومن الظواهر اللغوية والأسلوبية . ]

## ○ وللحاظ الباحث

إلى ما جدَّ على الشعر العربي من تطور باعد بينه وبين النصوص القديمة ، حتى أخذ النقاد يشغلون أنفسهم بالنظر إلى تلك القضايا ، ويغتفلون حولها كقضية القديم والجديد واللفظ والمعنى ، والصدق والكذب ، والأصالة والعداية والسرقات الشعرية .

وتعرض المحاضر لنقد القصة والرواية والمسرحية وقصيدة النثر بين القبول والرفض ليصل إلى ضرورة التفكير في نظرية نقد عربية ، يستقل بها الفكر العربي عن المؤثرات الغربية .

وأضاف : مهما يكن من طبيعة الخلاف بين المبدعين أنفسهم وبين النقاد ومناهجهم ، فسيبقى الخلاف مرتبطة بالتكوين الاجتماعي والثقافي والسياسي للمجتمعات العربية . وأخيراً ٢٠٠ دعا المحاضر إلى أن يكون النقد نشاطاً فعالاً في ميدان النهضة العربية الأدبية والفكرية ، وعوئلاً للمبدع كي يصل إلى أوسع مجال ممكن في المجتمع وإلى أكبر عدد من المتلقين .



○ اما الدكتور « يعيي الساعاتي » فتناول جانباً هاماً من التراث هو :

## التراث المخطوط في العالم الإسلامي والعربي

فهو يرى أن التراث هو المخزون الثقافي الذي تكوّن عبر المصور من الانتاجات المكتوبة والمنقولة مشافهة ، وهو مرآة الماضي يعكس حضارة وثقافة الشعوب كما كانت عليه .

والتراث العربي المخطوط حافل بمؤشرات حضارية غزيرة . تحملها نصوص المدونات الهماسية مثل : الوقفيات والاجازات والتملكات والمعلومات الأخرى التي ترد عرضاً خارج إطار النص الأصلي .

ويذهب المحاضر إلى أن التعامل مع التراث المخطوط يحتاج إلى معالجة متعمقة ترصد الصور الدلالية للبني الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . وحين تعالج المخطوطات وكتب التراث أو مصادر التاريخ يجب ألا تقصر معالجتها على استرجاع الأسماء والأنساب وتوزيع الميلاد والوفاة وتحديد سني المبارك والأحداث عند استخدامها في الكتابة عن التاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ، بل يجب النظر إلى المعلومات التي تحتوي عليها في نسيج متراابط متكافئ دون إغفال لما قد يرد فيها من دلالات قد لا تتفق مع رؤية الدارس .

وقد يجد الباحث الذي يسعى إلى اعطاء تحديد دقيق عن حجم التراث العربي المخطوط في العالم الإسلامي صعوبة كبيرة تصل إلى درجة الاستحال ، وعليه فإن من غير المطقي إعطاء رقم بعينه يمكن أن تكون له مصداقية يؤخذ بها ذلك للأسباب التالية :

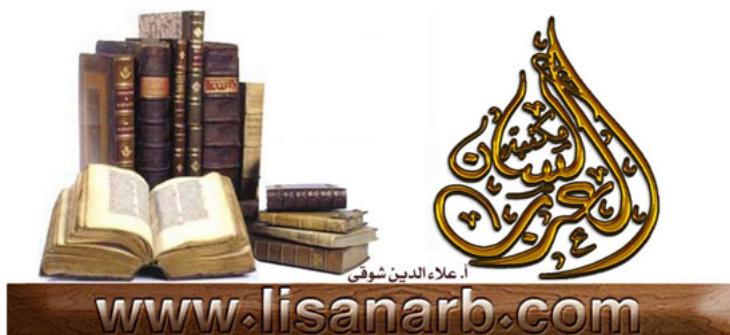
- ١ - عدم وجود جهة واحدة في العالم العربي الإسلامي يمكن الاعتماد على معلوماتها في احصاء هذه المخطوطات ، فالمعلومات المقدمة في هذا المجال هي فردية يغلب عليها طابع الاجتهاد وعدم الدقة .
- ٢ - ان الفهارس التي نشرت عن المخطوطات المعفوفة في المكتبات الرسمية أو الخاصة ، لا تقدم ما تملكه المخطوطات كلها من معلومات .

٣ - ان مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية الاسلامية لا تزال في حيازة اسر وافراد ، وهناك خزائن خاصة تعاني من الاهمال وعدم العناية بها ، وقد حجب ما تحتويه عن الباحثين ، ولا توافر عن بعضها الا معلومات وصفية قليلة الفائدة . في حين ان القسم الاكبر منها لا توافر عنه معلومات كاملة .

٤ - بالرغم من الاهتمام الكبير الذي تبديه دول العالم بالمخطوطات بوصفها تراثاً وطنياً للأمة ، لا يتحقق للأفراد التصرف فيها بالبيع أو الهداء إلى خارج الوطن . الا ان التجارة بالمخطوطات العربية ما زالت قائمة الى اليوم .

ثم انتقل المعاشر الى رصد المخطوطات من خلال توزيعها في بلدان العالم الاسلامي . كتركيا وايران ومصر وسوريا والعراق والمنطقة والجزائر وتونس واليمن والهند والباكستان وأفغانستان واسبانيا ودول البلقان وغيرها .

وأسهب في الحديث عن المخطوطات في المملكة العربية السعودية التي تحظى باهتمام كبير من قبل المسؤولين . إذ توفر لها الفنانون الذين يعملون بنشاط على فهرستها وتصنيفها ، والاستفادة من التجهيزات الفنية التي تساعدهم على حفظها واستخدامها كأجهزة التصوير الدقيقة . أما عدد المخطوطات التراثية في المملكة فقد تجاوزت ٨٩٣٧ مخطوطة . ويرى الدكتور يعني الساعاتي أن دراسة المخطوطات التراثية ستكون عاملاً أساسياً في كشف وضع الثقافة والتفكير في الفترات التي تم نسخها أو تأليفها .





منشورات اتحاد الكتاب العرب

مطبع ألفياب - الأديب  
دمشق

السعر : ٢٥ ل.س داخل قطر  
٤٠ ل.س خارج قطر